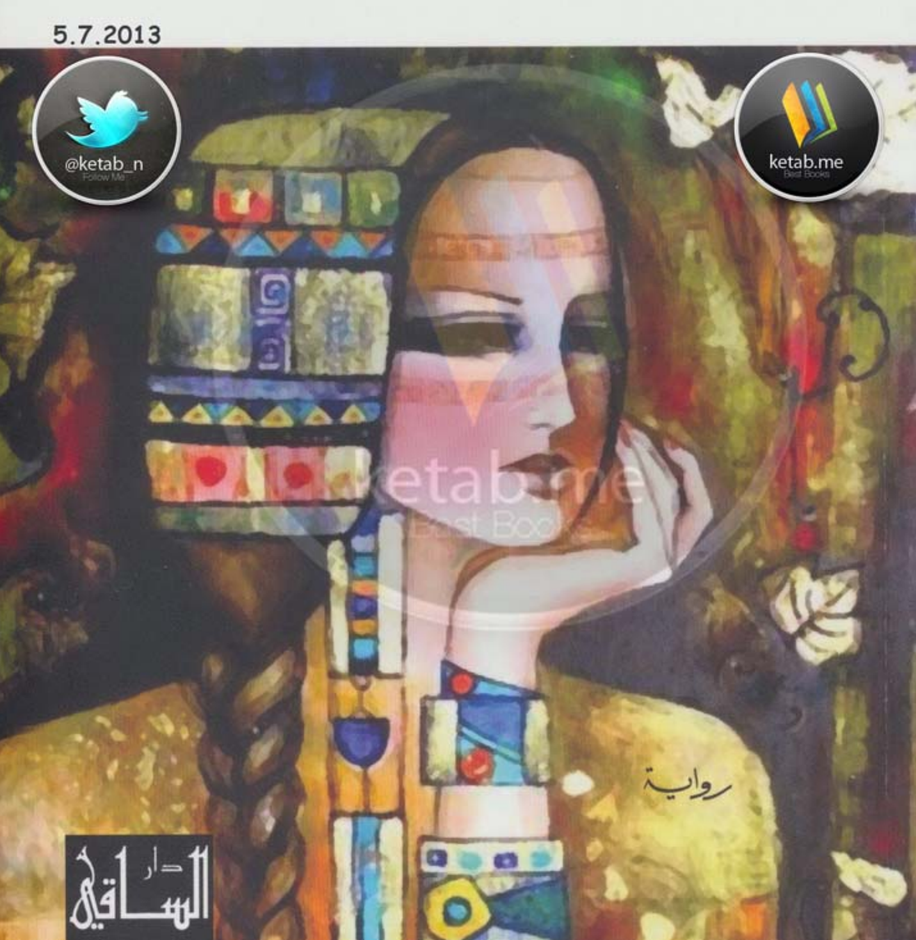
بدرية البشر

غراميّات شارع الأعشى



بدريّة البشر

غراميّات شارع الأعشى



لوحة الغلاف بريشة الفنانة لميس الحموي

خطوط العناوين: حمدي طبارة - تصميم الغلاف: سحر مغنية

الطبعة الأولى 2013

ISBN 978-1-85516-984-5

دار الساقي
بناية النور، شارع العويني، فردان، ص.ب: 113/5342 بيروت، لبنان
الرمز البريدي: 6114–2033
هاتف: 442 866-1-961+، فاكس: 443 866-1-961+

email: info@daralsaqi.com

يمكنكم شراء كتبنا عبر موقعنا الإلكتروني
www.daralsaqi.com

تابعونا على
@DarAlSaqi

دار الساقي

Dar Al Saqi

(١)

- اصعدا إلى السطح وافرشا الفرش.

قالت لنا أمّي بعد الغروب، وهي تنهي صلاتها.

عَدَوْنا باتّجاه سلّم المنزل نتسابق، أنا وعواطف التي ملأت دلو الماء، ورشّت غَرْفات منه وجه السطح الأسمنتيّ، فنفث في وجهينا نسمات دافئة كأنّها زفرات صدرٍ تعِب. نثرت بعض الماء على وجهي، فأدرت رأسي جانباً وأنا أضحكُ، ثم ركضت نحوها، وسحبت الدلو من يدها، وسكبت ماءه كلّه فوق رأسها.

تبلّلت ثيابنا. ضحك وجه سطح الأسمنت معنا ثم شرب الماء، وهبّت النسمات باردةً فأنعشت روحينا.

قالت عواطف وقد تعبت من اللعب:

- هيّا نفرش الفرش.

سحبنا البسط والفرش والمخدّات من غرفة السطح الوحيدة وخرجنا وقد اختفت آخر بقعة ماء عن وجه السطح، وعاد حماس اللعب يتدفّق في دمي، فوضعت قدمي على طرف البساط الذي تحمله عواطف وجعلتها تتعثّر، ثم وقعتُ فوقها فصرخت بي:

- قومي عنّي يا مسواط إبليس.

وزّعنا الفرش على الأسطح الثلاثة. بالتناوب، وضعنا مراتب من القطن، ثم غطّيناها بشراشف ومخدّات، ثم اللحاف أخيراً. بين كلّ سطح وآخر جدار قصير. يحتلّ فراش والدي سطح المطبخ البعيد، تليه فرشنا نحن البنات الأربع فوق سطح المجلس العائليّ، ثم فراش فوّاز فوق غرفة مجلس الرجال، بينما بقي فراش إبراهيم، المسافر إلى مصر منذ عام، قابعاً في مخزن الفرش.

عبّأنا الماء مرّة أخرى في إناء صغير تستخدمه أمّي للوضوء، ثم رششنا وجه الفرش برشّات خفيفة، كي يصبح بارداً حين تجفّ.

تمدّدت عواطف فوق فراش والدي الكبير، وأنا بجوارها، وأصخنا السمع نلتقط الأصوات الصادرة من السطوح الأخرى، أصوات الطيور الصادحة في الفضاء، بوق سيّارة بعيد، صيحات الأطفال في الشارع. ولوهلة عمّ السطحَ السكونُ، فبرزت الغيمات البيض في السماء تجرّ بعضها بعضاً، رحنا نتبعها حتى أسلمتنا لفوهة كونيّة سحبتنا إلى ثقوب سوداء وكواكب أخرى. برقت نجومها البعيدة وأضاءت الشهب الملوّنة دروب أفكارنا، فسبحت كلٌّ منّا خلف أفكارها. عواطف تفكّر في مدرستها، وتسرح مع حلمها بالزواج، وتحلم بأسماء لأطفالها القادمين. وأنا أفكّر بعالم أبعد، أوسع من هذا السطح، وأرحب من هذا البيت، وأكبر من هذا الحي؛ عالم أشارك فيه الناس الذين أفتقد رفقتهم، حتى المشاغبين منهم والأشرار.

أفكّر في عالم أشبه بالأفلام المصريّة التي كنت أشاهدها مساءات الخميس على تلفزيوننا بالأسود والأبيض؛ فهي كلّ ما أعرفه عن العالم

الخارجيّ، وقد منحت خيالي صوراً شاهدت نفسي فيها أركب الباص كما تفعل سعاد حسني، وآكل الذرة على شاطئ النيل مثلل فاتن حمامة، وأتنزّه على الكورنيش الطويل، أستمع إلى الباعة ينادون على زبائنهم كي يقتربوا، وعند بائع الملبّس أتوقّف وأكشف عن وجهي وأشتري كيساً، آكلُهُ على طريقتهم، ثم أقابل أحداً أعرفه وأحادثه.

في ذاك العالم نبتت صور أجمل وأكثر خفّة وفرحاً، وفي الخيال الصامت اخترعت مسرحيّات قصيرة، وألّفت قصصاً لم تحدث مع عيسى الحضرميّ بائع الملابس في سوق الديرة.

لقي مسرحي الذي كنت أقيمه على السطح في سهرة كلّ خميس قبول بنات جيراننا. أُجلسهنّ في صفوف، كما يجلس المتفرّجون، ثم أنشر شرشفاً على حبل الغسيل بيني وبينهم، أختفي وراءه، وألبس ثياب شخصيّتي المقلّدة. أرفع الشرشف وأخرج عليهنّ وقد لففت جسمي بوشاح أسود ألقي طرفيه فوق ساعدي، ثم أمشي وأنا أميل بخاصرتي يميناً ويساراً. ومرّة أربط فوق حوضي شالاً، ثم أبدأ في الغناء والرقص. وأغنّي "خلّي بالك من زوزو، الزوزو اللوزو، كمنوزو"... ومرّات أبكي مثل فاتن حمامة في "أفواه وأرانب"، وأصرخ قائلةً: "هو أنا مش بني آدمة زيّكم برضه"، لكنّ بنات الجيران يحببن أكثر أن أقلّد لهنّ إسماعيل ياسين، وحين أفعل تنتشر بينهنّ موجة كبيرة من الضحك.

وفي آخر السهرة تطلب منّي بنات الجيران أن أغنّي، فأسألهنّ: "أي أغنية تردن؟". فيصحن بي:

– عتاب عتاب.

ألوّح بطرف ثوبي الواسع مثل مروحة تدور، وأهزّ مؤخّرتي، ثم أضع يدي على رأسي، وأضرب بكفّي صدغي وأغنّي "جاني الأسمر جاني"، فتصفّق البنات مرّة، ويضحكن مرّة، وأحياناً يأخذهنّ الحماس فيشاركنني الرقص. وننتهي ونحن نرقص ونغنّي كلّنا.

داهم سكوننا صوتُ طائر ألفته أسماعنا، يعرفه قلب عواطف فيجاوبه بارتجافة منها دون تفكير.

نظرت كلتانا إلى الجدار خلفنا مباشرة، فوجدنا طرف سجّادة صلاة خضراء مُدّتّ على جدارنا كجناح طائر للتوّ حطّ على الفاصل بيننا وبين بيت أبي سعد. قفزت عواطف، وقفزت أنا الأخرى بالعدوى، فحين تفعل إحدانا عملاً تتبعها الأخرى دون تفكير. قلت بعفويّة وأنا أقفز حماساً وتوتّراً:

- جاء الطير.

أمسكتني عواطف من يدي وشدّتني قائلةً:

- راقبي الجوّ.

تدفّقت حرارة الفرح والإثارة في دمي، فقفزت أذرع السطح ذهاباً وإياباً، أراقب مكامن الخطر بهمّة جنديّ يتسلّم مهمّته في يومه الأوّل.

مهمّة المراقبة، رغم الخوف والحذر والمصائب المتوقّعة، كانت واحدة من بهجاتي، فتوتّر اللحظة يدفع شيئاً ما في دمي، يخصّني بحدث فريد، يجعلني أكبر وأقوى وأنا أقوم بحماية هذا اللقاء بين سعد وعواطف، أصبح فيه مسؤولة عن حياتين، عن قلبين، عن أخوين، فيطفر قلبي بالأمومة، أتلبّس دور لبوة تحوم حول صغارها، تقفز هنا

وهناك فوق الصخور المرتفعة، تنظر عالياً ثم تهبط.

أطللت على شارع الأعشى من كوّة في جدار السطح، كأنّما أُطلّ على "صندوق الدنيا". أشاهد عزّوز ابن الجيران يركب درّاجته وفي يده علبة من عصير sun top . يرنّ جرس درّاجته، ويتلفّت يميناً ويساراً ثم يمضي بعيداً. موضي، ابنة الجيران، تطلّ من فتحة بابهم، فتسكب دلواً من الماء المتّسخ، وتلقي نظرة فضوليّة يميناً وشمالاً فلا ترى أحداً، ثم تغلق الباب. خالة عويشة، أمّ سعد، تطلّ من بابها وبيدها مكنسة، تكنس ركام منزلها ثم تدفعه وترمي ترابه في الشارع، وتكنس بعده عتبة الباب وهي تغطّي وجهها، ثم تعود وتغلق الباب. "بيك آب" العم أبو فلاح يدسّ مقدّمته قبالة بابهم، ويهبط منه هو وأبناؤه الخمسة. لحظات أخرى ثم يهدأ الشارع ويعمّه السكون. أنظر إلى السماء. أسراب الحمام تتّجه نحو الغرب، تصفق بأجنحتها حرّة طليقة، ثم أشاهد رأسين على السطح المقابل لشارعنا، فأعرف رأس فاطمة بنت عمران، وألمحها تلوّح بيديها لرأس شابّ صغير مثلها على سطح يفصلها عنه منزلان. هذا إذن هو سلمان الذي أخبرتني عنه. تقف من بعيد تلوّح له بيديها وهو يلوّح لها بالقبل.

جرّت عواطف القصيرة صندوقاً من الخشب ووضعته تحت قدميها وارتقته، فوصل حدّ الجدار إلى مقدّمة صدرها، وضعت كوعها على حافّة الجدار فوق سجّادة الصلاة الخضراء وأطرقت خجلاً.

سألها سعد عن شعرها المبلّل، فقالت بخجل:

– عزيزة رشّت عليّ الماء.

ثم ضحكا.

سأل سعد عواطف:

- لم أرَ فوّاز في صلاة المغرب؟

فتسأله عواطف عن أمّه:

- ما شفنا أمّك اليوم العصر.

هكذا هي أحاديثهما، تبدأ بالسؤال عن غيرهما، لقد تعلّما الحبّ مشتركاً بين عائلتين.

سمعا صوت والد سعد قادماً من أسفل:

- يا سعد، اِلحق الصلاة.

يهبط سعد عن جداره وينظر إلى عواطف مودّعاً:

- غداً ألقاك عند صلاة العشاء.

كعادتها، نزلت عواطف من فوق الصندوق ككلّ مرّة، تقاوم الدوار اللذيذ الذي يؤرجحها بعد كلّ لقاء. تضع كفّيها على قلبها الذي ينبض كقلب طير تحرّر من أسره، ثم ترمي بنفسها على الفراش وتستمتع بدوارها الذي يحلّق بها في دوائر ومربّعات. وعند هذه اللحظة وقفت عفاف الصغيرة فوق رأسينا تلهث ثم صاحت:

- ملوّن ملوّن.

ثم عادت تركض هابطةً إلى الأسفل.

هبطنا الدرج نركض خلفها، فوجدنا أبي يحمل تلفزيوناً جديداً أخرجه من صندوق كارتونيّ كبير، ووضعه مكان تلفزيوننا القديم الصغير، ثم قال لأمّي: "ناوليني المنشفة التي في يدك" ومسح بها شاشته الزجاجيّة السوداء المغلقة، ثم ضغط زرّاً على جانب الصندوق فظهرت صورة نراها للمرّة الأولى ملوّنة.

المذيع السمين يمدّ المايكروفون قرب أفواه أناس، ويطلب منهم الحديث. ظهرت غترته حمراء، والأشجار الصناعيّة التي خلفه خضراء وثيابهم شديدة البياض.

جلسنا كلّنا أمام الشاشة الملوّنة فاغري الأفواه، نحدّق في عالم التلفزيون الجديد. أبي وأمّي وعفاف وعلياء وعواطف وأنا. بدَوْنا في صمتنا وكأننا قد خُطفنا، وحلّق بنا السندباد فوق بساط سحر. طِرنا إلى زمن آخر.

- سنشاهد الليلة المسلسل اليوميّ "الليل الطويل" بالألوان.

قلت أحدّث عواطف التي اتّسعت عيناها دهشة، فقالت:

- الله، حلوة الألوان.

بعد صلاة العشاء هشّت أمّي قطيعها الصغير نحو السطح. تجرّ عفاف النائمة من يدها، تتبعها علياء، يتبعهنّ والدي حاملاً الراديو، يصدح بصوت مذيع رخيم وهو يقول: "هنا لندن" فتدقّ الساعة معلنةً موعد أخبار النشرة الخامسة بتوقيت لندن، وفي مقدّمتها خبر عن الرئيس السادات.

أسمع صوت والدتي يقول:

- لا تنسيا غسل الصحون وإطفاء الأنوار.

جلست أنا وعواطف نأكل من بقايا العشاء، في الصحن أمامنا، هي تأكل الجبن والمربّى، وأنا أكتفي بشرائح البطّيخ الأحمر. كلّما ظهرت صورة ملوّنة تصفّق عواطف، وتقول: "ما أجمل الألوان؟" أمّا أنا فأحلّق في عالم من الرفاهية، يشبه زيارة مدينة ألعاب ضخمة، يخفق فيها القلب وتبرد فيها الأطراف، حتى قلبي صفّق هو الآخر

وقال: "أجل، ما أجملها!"

حملت عواطف الصحون إلى المطبخ، وجلست وحدي أمام شاشة التلفزيون الملوّن، أسمع صوت عواطف يهدل "يُمّا القمر على الباب... ضَوّا قناديله!"

بدأت موسيقى المسلسل المصريّ فناديتها:

- بسرعة يا عواطف، بدأ المسلسل.

ركضت عواطف ويداها مبلّلتان، والمسلسل يظهر بألوانه الجديدة، تنّورة نور حمراء، وجاكيت عمّ عكاشة بنّيّ، ولون الكرسيّ أخضر. لكنّنا بعد قليل نسينا الألوان، فقد حدثت مشكلة كبيرة جعلتنا نغضب ونتألّم، فعكاشة، والد حكيم، يعالج حياته بالحبّ والصبر، وزوجته الأمّ، كريمة مختار، متفانية في خدمة عائلتها: تطبخ وتكنس وتغسل الثياب. ولداهما الاثنان، أحمد ونور، يذهبان إلى الجامعة، بينما في حارتنا لا يذهب أحد إلى الجامعة سوى أخي إبراهيم الذي يدرس في مصر. الجميع هنا يذهب إلى الوظيفة أو المعهد العلميّ. ظهر عمّ عكاشة حزيناً، لأنّ ابنته نور الجميلة واعدت زميلها الشابّ الفقير في مقهى الجامعة، فرآهما أخوها وهي تجلس معه في المقهى يشربان العصير، فوبّخها أمامه وجرّها معه إلى المنزل، وحاول ضربها أمام عكاشة وزوجته كريمة مختار. لكنّ أمّ نور وقفت أمام ابنها غاضبة تنهره:

- ما يصحّش الولد يتكلّم كده على أخته... عيب!

وعكاشة رفض أن يهين أخٌ أختَه، لكنّه عبّر عن حزنه بصمت ودخل غرفته، لكنّ الأمّ دخلت وراء ابنتها نور تطلب منها أن تحافظ على التقاليد وتقول لها:

- شرف البنت زيّ الكبريت ما بيولعش غير مرّة واحدة.

ثم أخبرتها أنّ الشابّ الصادق في حبّه يدخل من الباب وليس من الشبّاك. انهارت نور على سريرها وهي تبكي:

- بس أنا ما عملتش حاجة غلط، الحبّ مش غلط.

تنهّدت عواطف، وردّدت وراءها:

- إيه والله، الحبّ مش غلط!

(٢)

في الصباح، استيقظت حارتنا على شعاع شمس بيضاء دافئة، ببيوتها الطين تتمطّى في جوف وادٍ جفّ ماؤه، يتمدّد جنوباً، بينما تنهض ربوة ترابيّة غرباً، مثل حدبة عملاقٍ يحملها فوق ظهره، حجبت عنّا الشارع الطويل والحياة القائمة خلفه، وينفتح بطن الوادي على شارع أسفلتيّ طويل تسمّى باسم شاعر جاهليّ قديم وُلد وعاش ومات هنا منذ زمن طويل، اسمه الأعشى. يتحدّث عنه والدي كثيراً وكأنه واحد من سكّان حيّنا، وقد ذكر أنّ الأعشى صفة لمن لا يبصر ليلاً، وأنّ هذا الشاعر عاش هنا قريباً منّا حتى صرت أظنّ أنه ذلك الرجل الضامر الذي يخرج علينا من خلف أطلال البساتين الظاهرة خلف الشارع، حيث نشاهده كلّ صباح، وقت ذهابنا إلى المدرسة، يخرج من بيوت الطين البعيدة، بيده عصا، وله لحية بيضاء طويلة، يعتمر عباءة من الصوف فوق رأسه، يتهادى في ضعف ثم يرفع نظره نحونا يحدّق في سرب الفتيات اللاتي يقفن عند الشارع بانتظار باص المدرسة، يتفرّسنا طويلاً كأننا خرجنا عليه من زمنٍ آخر، ثم يمضي في طريقه، تاركاً خلفه أطلال البساتين بجدرانها المهدّمة،

ومن خلفها تبرز بقايا نخيل وأشجار سدر، ثم يغيب.

حارتنا لا تطلّ على نهر ولا شاطئ، بل على تراب الأزقّة وبيوت طين يكسوها الجبس الأبيض، نوافذها الخشبيّة تنفتح على بطون مجالس الرجال، كاشفةً عن مراوح كبيرة معلّقة في السقف بثلاثة أجنحة.

تتشابك البيوت في سلسلة طويلة يتّصل بعضها ببعض مثل رفاق يتشاركون سرّاً، أو مثل أكتاف رجال تتراصّ في رقصة العرضة النجديّة.

تصحو أمّي للصلاة مع أذان الفجر، وتضع شرشف صلاتها فوق رأسها. تصلّي ركعتين ثم ركعتين نافلة ثم تقرأ القرآن، ثم تضطجع حتى يعود أبي من المسجد، فيضطجع هو الآخر بجانبها تاركاً الراديو مفتوحاً على محطّة القاهرة حتى يشرق صوت فيروز فيحلّ موعد صحونا.

هزّتني يد أمّي هزّات خفيفة، فتحت عينيّ ورأيت وجهها المطلّ من شرشف صلاة أبيض مثل قمر يبتسم. نهضت عواطف قبلي، وطوت فراشها. هبطنا سويّاً الدرج. أمسكتُ مكنستي وأخذتُ أكنس غرفة الجلوس فيما فيروز تصدح بأجمل أغانيها، وعواطف دخلت المطبخ ووضعت إبريق الحليب فوق النار، ثم فتحت جوف الخبز الطويل بسكّين، ووضعت بداخل بعضه قطعاً من الجبن، وفي البعض الآخر وضعت البيض المقليّ. هبط أبي بمذياعه ومعه صوت فيروز.

صوت فيروز عندي هو وقت المدرسة وصوت الصباح. وحين أنهت فيروز أغنيتها جاء بعدها صوت نجاة الصغيرة يتهادى مثل

مركب فوق النيل، لكنه ليس كصوت فيروز. أمّي لا تحبّ الأغاني، لكنها تعرف أننا نحبّ هذين الصوتين فتتركنا نسمعهما، ولا تعرف الفرق بين فيروز وبين نجاة الصغيرة، تقول: "التي تحبّها عواطف" و"التي تحبّها عزيزة"، أمّا والدي فيحبّ كل شيء قادم من بلاد مصر والشام كما يقول، ويحبّ سماع الراديو كلّ الوقت. لم أشاهده يوماً إلاّ والراديو بين يديه، مرّةً يسمع أغنية لأمّ كلثوم، ومرّة أخبار القاهرة أو لندن، ومرّة حديثاً من البادية ومرّة شعراً. يعود كلّ يوم من عمله يحمل صحفاً، ويعلّق قلمين في جيب ثوبه. وبعد صلاة العصر يجلس في مجلس الرجال، حيث يضع كتباً كثيرة في رفوف علّقت على الجدار، ويقرأ بعض الوقت من رياض الصالحين وأشعار النادية والشافعيّ ونهاية التاريخ. يحبّ التغنّي بأشعار القدماء أمامنا مثل ذاك الشاعر الجاهليّ الذي اسمه الأعشى، ويُخبرنا أنّ أهله وجماعته عاتبوه حين لاحظوا أنه يختصّنا بأسماء تبدأ بحرف العين مثل عواطف وعزيزة وعلياء وعفاف، وترك اسم والدته وأسماء أمّهات المؤمنين، ثم قال لنا إنه يحبّ البنات لأنّ من يخصّه الله ببنتين ويربّيهما ويُحسن تربيتهما يدخل الجنّة، وهو لديه أربع بنات وولدان فوّاز وإبراهيم الغائب.

هبط كلٌّ من علياء وعفاف وفوّاز عن السطح وتناولنا فطورنا. لبسنا مرابيل المدرسة. مشّطت أمّي شعر عفاف وعلياء، وخرجنا في السادسة صباحاً. كان حيّنا يفتح أبوابه على روائح القهوة والحليب وبعضٍ من رائحة الورد والزباد التي فاحت في مجمرة أمّ عزّوز، جارتنا في المنزل المقابل، وأبو فلاح في المنزل الذي يجاوره قد حمل حِزَم

العلف وخرج إلى سوق الغنم، حيث تجارته، والجارة عويشة كنست منزلها الملاصق لمنزلنا وتركت بعضاً من ترابه بجانب العتبة.

ركضت الصغيرة عفاف ودقّت باب جارنا أبي عزّوز، انفتح سريعاً وظهرت منه أربع فتيات، الكبرى صديقتي موضي وثلاث أخوات صغيرات يربطن شرائط بيضاء على ضفائرهنّ الطويلة.

خرج جارنا سعد من منزله يحمل كتبه داخل سجّادة صلاة كعادة المراهقين الذين تمرّدوا على حقيبة المدرسة. سعد يضبط وقت خروجه إلى المدرسة مع ساعة خروجنا، ولو أبكرَ أحياناً فإنه ينتظرنا حتى نخرج كي يرى عواطف، ويتخيّل وجهها تحت الغطاء الأسود، يتخيّل ضحكتها، لكنه لا يرى ابتسامتها.

ركب سيّارته "بيك آب"، أدار محرّكها، وانتظر بداخلها حتى سخن المحرّك، أطلق صوت الراديو، ثم رفع صوته أكثر كي نسمع مزاجه الصباحيّ، وتسمع عواطف رسالته المشبوبة بالرغبة لتأمّل جمالها. سمعت عواطف صوت المغنّي الصادح: "يا ظالم جمالك اكشف برقعك".

ابتسمت، لكنه مرّة أخرى لا يرى ابتسامتها.

أمشي وموضي وعواطف في المقدّمة، تغطّي جذوعنا عباءات قصيرة تظهر من تحتها مراييلنا الزرقاء، وخلفنا تتهادى الصغيرات بأشرطة بيضاء في أطراف ضفائرهنّ ومراييلهنّ الرماديّة، ولمعة أحذيتهنّ السوداء دون كعب، والجوارب البيضاء تطوّق السيقان الصغيرة، وخطوُنا يحفر زخرفته في الزقاق الترابيّ.

وقفنا عند النقطة نفسها في شارع الأعشى، فوق رؤوسنا انتصبت

لوحة كبيرة لصيدليّة تحمل اسم الشارع نفسه، في حين لا تزال الدكاكين مقفلة، والوقت لا يزال مبكراً على فتحها.

أقبل الباص الأصفر مثل حيوان ضخم يتلوّى في المنعطفات، يقوده شابّ في الثلاثين اسمه أبو مناحي. توقّف سريعاً على جانب الطريق، ثم جرّت يده مقبض الباب المضغوط فانفتح. دخلنا جوف الباص وتوزّعت الفتيات على مقاعد الجلد السوداء. اخترنا المقاعد الخلفيّة كي نحظى بفرجة أوسع. شاهدنا سعد يتبعنا بسيّارته "بيك آب" ويمشي خلفنا، لوّح لنا بيديه وهو يبتسم، حتى وصل انعطافة ثانويّته، "ثانوية اليمامة"، فوضع أصابع يده اليمنى على شفتيه وأرسل لنا قبلة في الهواء، ثم انعطف يميناً.

(٣)

بعد صلاة العصر عاد أبي من المسجد ومعه سيّدة غريبة يصحبها أربعة من الأطفال. وقفت السيدة بالباب تنتظر، في حين دخل هو وأخذ مفتاح بيت الحظيرة وأمر فوّاز أن يأخذ السيّدة وأبناءها إلى هناك، ثم أمر والدتي أن تحمل لهم طعاماً وثياباً، ثم راح يقصّ علينا كيف ظهرت هذه الغريبة.

بعد انتهاء صلاة العصر استدار الشيخ عمران، وأخذ يقرأ على المصلّين من كتاب يحمله بين يديه فصلاً عن فضل الأمانة وعظمتها، وحين ختم الشيخ عمران عظته بالصلاة على سيّد الكرام نبيّنا محمّد، عليه أفضل التسليم، دخلت عليهم سيّدة تلبس عباءة سوداء ذات شقوق تعكّرها لطخات من التراب، وقد لبست برقعاً تظهر منها عينان صغيرتان حادّتان أرهقهما التعب. عرف المصلّون أنها ليست من نساء الحارة، فليس بين نساء الحارة من تجرؤ على هذا الفعل. وقف إمام المسجد حين رآها تتّجه نحوه. سمع والدي ومعه أخي فوّاز السيّدة الغريبة تحدّث إمام المسجد، وتقول:

– يا شيخ أنا مرا مسكينة. جئت من البرّ، ومعي صغاري، تركنا

والدهم وذهب مع الرحيليّة ثم غاب. مرّت خمس سنين، ماتت فيها الماشية ولم يبق لنا من الطعام شيء نأكله، وقد ذبحنا الجوع، فما نفعل؟

نظر الشيخ إلى أبي قائلاً:

- ما رأيك يا أبا إبراهيم؟

قال أبي:

- أعطيها بيت السدّ تسكن فيه حتى يكتب الله لها الفرج.

أكمل الشيخ:

- وأنا أدعو أهل الحارة كي يتصدّقوا عليها، ولو بالشيء القليل.

حين خرج والدي مع السيّدة الغريبة البدويّة، وجد خارج المسجد أربعة أطفال مشعّثي الوجوه، بلا أحذية، ثيابهم متّسخة ومشقّقة، بينهم فتاة بعمر عواطف وفتاة أصغر منّي لا يستر شعرهما شيء. أخذ فوّاز يتأمّلهما بفضول ودهشة، فقال له والدي:

- قل لهم أن يلحقوا بنا.

رتّبت أمّي ثياباً في صرّة، ووضعت خبزاً ودقيقاً وكيس أرزّ في صندوق خشبيّ، وأمرتني قائلة: احمليه.

مشيت مع والدتي في طريق الحارة المستقيم، حتى وصلنا البيوت المتطرّفة آخر الحيّ، بيت "السدّ"، كما نسمّيه، كان منزل جدّي الذي توفّي. بيت صغير بغرفة نوم واحدة، وروشن في منتصف الدرج، وحظيرة للماشية، وضع فيها أبي ثلاث غنمات وخمس دجاجات، يحمل لها علفاً كلّ صباح، ونأكل منها بيضاً ونشرب

حليباً طازجاً. وصلنا أمام بيتٍ نصفه السفليّ من حجر ونصفه الأعلى من طين، يسدّ الطريق وينتهي عنده، لهذا يسمّونه بيت السدّ. ينخفض بابه الخارجيّ عن أرض الشارع نصف متر تقريباً، ولا يظهر من بابه سوى نصفه.

دقّت أمّي بيدها الباب المفتوح، ثم دفعته ودخلنا.

وجدنا امرأة على مشارف الأربعين، في مثل سنّ أمّي تقريباً، تسند ظهرها إلى الجدار، تكشف عن وجه حنطيّ مشقّق الوجنات هدّه التعب والحزن، فوقها عباءة مشقّقة يعلوها التراب، تترك طرفي عباءتها القصيرة منسدلين على جانبيها، ويظهر تحتها ثوب مجعّد أحمرُ بزهور خضراء، وطرفا ضفيرتيها الطويلتين ينامان على صدرها الضامر، أطفالها يتقافزون على جدار الحظيرة الملحقة بالبيت، وطفل صغير يلاحق الدجاجات. وضعت أكياس المعونة التي جلبتها في قدر الأرزّ.

سألت أمّي السيّدة الغريبة عن قصّتها. عرفت أنّ اسمها وضحى، وأنّ والديها قد زوّجاها وهي طفلة في العاشرة برجلٍ بدويٍّ. وقد عاشت معه في الخيام ترعى الغنم، وتستقبل ضيوفه الطارئين وتطبخ لهم الطعام. ويرتحل في مواسم بيع الماشية إلى بلاد متباعدة تعرف أسماء بعضها وتجهل أسماء بعضها الآخر، لكنها تسمع باسم الخليج العربيّ والبوعينين. يعود بعد أشهر طويلة، لكنه في المرّة الأخيرة رحل ولم يعد. انتظرته عامين ولم يعد. ذبحهم الجوع، وهي لا تعرف في هذه الدنيا أحداً، حتى والداها في الشمال لم ترهما منذ تزوّجت. نزحت إلى أقارب لها قرب الرياض، فوجدت أنّ حالهم ليست بأفضل

من حالها، وأولادها لم يدخلوا مدرسة، وصدر ابنتها الصغيرة مزنة يحتاج لعلاج، فجاءت بها إلى الرياض علّها تجد فيها مخرجاً. طمأنتها أمّي قائلةً:

- عيّني من الله خير، أولاد الحلال كثار.

وقبل أن نخرج قالت لها أمّي، وهي تنظر إلى فتاتين بعمري وعمر عواطف:

- يا وضحى، أحضرت لبناتك غطاءً وعباءة، وأبو إبراهيم أوصاني أن أقول لك ألاّ تخرج البنات من دونهما.

ابتسمت وضحى، وعرفت أنّ الجائعين لا يفكّرون مثلما يفكّر غيرهم، بالسمت والوقار. قالت وضحى:

- الله يدفع عنكم البلا ويستر عليكم.

في المساء تدافع الجيران نحو بيت وضحى. بعضهم جاء من باب الفضول، وبعضهم جاء لتقديم المعونة، بعضهم حمل فرشاً من القطن، وبعضهم حمل أكياساً من الأرزّ والبنّ والسكّر، وبعضهم حمل أغطية، وبعضهم حمل أنبوبة غاز صغيرة. وفي الصباح أخبر أبي وضحى أنها تستطيع أن تأخذ من بيض الدجاج ومن حليب الأغنام ما تشاء، وتأكل منها بقدر ما يسدّ جوع أولادها.

كنّا نرى وضحى من نوافذ الباص في شارع الأعشى، تجمع الكراتين وتذهب لبيعها في السوق، وبعد أشهر شاهدت الجازي ومزنة تلحقان بالفتيات الذاهبات إلى المدرسة، بينما ذهب متعب وضاري مع الأولاد إلى المدرسة مشياً على الأقدام. صار عدد الفتيات في الحيّ أكثر. نذهب في قطيع كبير في الصباح معاً ونعود في الظهيرة،

وفي المساء نجتمع، كلٌّ واحدة مع أترابها، الصغيرات يلعبن في الحارة، بينما تجتمع الكبيرات كلّ مساء أربعاء على السطوح، مرّة على سطح موضي بنت جارنا أبي عزّوز، ومرّة على سطح بيتنا.

ذات صباح باكر دقّت وضحى باب منزلنا وقالت:

- أبوك موجود؟

فوجئ فوّاز بالسؤال. فقد كان يتوقّع أن تسأله عن والدته كما تفعل النساء عادةً، لكنّ وضحى التي ظهرت في الحارة منذ شهرين هي بالرجال أشبه منها بالنساء، تختلط معهم، والرجال لا يستنكرون ما تفعل، فإضافةً إلى الشعور الشفقة التي أحاطها بها رجال الحارة، وغياب الرجل عن بيتها، فإنّ حديثها يأتي دائماً عفويّاً ومتوقّعاً، لكونها سيّدة لا معيل لها، تعتمد على نفسها وتحتاج أحياناً للمساعدة. وضحى ليست من النوع الذي يتنبّه الرجل الذي تقف أمامه إلى أنها امرأة، فحين تحضر وضحى تحضر معها روح جسورة وصلبة، وحين تبادرهم بحديثها فإنها تذهب بهم إلى تاريخ لا يعرفه سوى الرجال، ممّا جعل وضحى حاضرة في مجالسهم أكثر منها في مجالس النساء، حيث تجلس صامتة أغلب الوقت، فيظنّون أنّ فقرها وبداوتها هما سرّ صمتها. أمّا النساء فلا تجد ما تشاركهنّ فيه من رخاء عيشهنّ؛ فهي لا تعرف الأسواق وموضات الأقمشة ونقشات الذهب الحديثة، ولا تنوّع الطبيخ الذي يُجِدْنَه. أمّا آلام الولادة والحمل في حياتها فما هي سوى حكاية عارضة في حياتها، بينما حكايات النساء عن طرائف الوحام والولادة والنفاس طويلة. حكايتها هي قصيرة جدّاً، تقول إنها ولدت أبناءها وحدها في

البرّ، وهي ترعى الغنم، تذهب حاملاً وتعود بطفل، لا تحمل معها سوى رغيف خبز وتمرة، زادها في يوم طويل. أحاديث وضحى في مجالس النساء فقيرة، لكنّها حين تمرّ وتجد عمّ مقيرن الأعمى ومعه بعض أصحابه يجلسون عند ناصية الطريق يتشمّسون فإنها تسلّم عليهم، فيرحّبون بها، ويطيلون الحديث معها ويستبقونها، فتجلس معهم على بعدٍ يسير منهم تحدّثهم ويحدّثونها. تدخل عند أبي فلاح في مجلسه، تأخذ طرف المجلس تحدّثه ويحدّثها، وزوجته وعياله يدخلون ويخرجون، يسألونها عن حالها ويمضون، بينما هي تحدّث أبا فلاح عن حكمة عثرت عليها في الطريق وهي تمشي، أو عن حالٍ مشابهة لما يحدث لها، عرفتها في حكايات الأوّلين. تتحدّث وضحى وهم يصغون. تحدّثهم عن الحروب التي سمعت بها، والتي عاشت بعضها، وعن المجاعات وعن الثأر وعن أبطال الشمال، والعائدين من حروب القدس، وحتى طرائفها تضحكهم. تحفظ وضحى قصائد تجعل الرجال يطربون. يحب أبو فلاح، الشاعر المعروف في الحارة، القصائد التي يسمعها منها، وكلّما أنهت قصيدة يعقبها:

- الله الله يا أمّ متعب، سلّم الله ها اللسان.

عادت وضحى تؤكّد لفوّاز الذي فغر فمَه:

- أبوك موجود؟

ابتسم فوّاز الصغير سريعاً، ثم دخل البيت يركض. قابلته والدتي تسأله:

- مَن عند الباب ها الحزّة يالله صباح خير؟

ابتسم مرّة أخرى متوقّعاً ردّة فعل والدته، قد تغضب حين تعرف أنّ بالخارج امرأة لا تسأل عنها بل عن والده. قال لوالده:

- يبه وضحى تبيك عند الباب.

- عيب يا فوّاز، لا تقل وضحى، وقل أمّ متعب. هل تفهم؟

- طيّب أخليها تدخل ولاّ تطلع لها؟

خرج أبي سريعاً لأنه سيخرج عاجلاً لدوامه، ولا يريد أن يتأخّر. أخذ شماغه ولبس نعاله، فتح الباب فوجد وضحى تنتظر. سألها:

- خير يا أمّ متعب، امُري؟

فسألته وضحى إن كان بإمكانها أن تشتري منه الدجاج بالدين. قالت:

- ودّي أترزّق الله فيه.

- أبشري يا أمّ متعب، الدجاج حلالك.

قالت وضحى:

- جعل عيني ما تبكيك. الله يحفظ لك عيالك ويسلّمهم ويسلّمك.

لم ينقطع دعاء وضحى حتى وأبو إبراهيم يسألها إن كانت تريد أن يوصلها لسوق الحريم على طريقه.

قالت:

- إذا ما عليك كلافة.

جلست وضحى في المقعد الخلفيّ وراء أبي إبراهيم، تمسك بمقبض الباب وكأنها تركب جملاً تخاف السقوط منه. تنظر إلى الطريق، وتتذكّر أيّاماً مضت لا يعرفها هؤلاء الناس الذين تشاهدهم الآن في

الطريق، وفي الحياة: الطلاّب والطالبات يخرجون إلى مدارسهم، يلبسون الأحذية في أقدامهم التي لم تعرف الجفاف ولا الشقوق. ثيابهم نظيفة، حقائبهم مليئة بالكتب والخبز، يركبون السيّارات، والمحلاّت من حولهم تبيع بضائع متنوّعة. لن يقدّروا أبداً هذه الراحة التي يعيشونها، تقول:

- والله يا بو إبراهيم، مرّ علينا زمان ننوّم على الجوع، ونصحى على الشقا.

يقول أبو إبراهيم متعاطفاً:

- عيال اليوم يا وضحى في نعمة، يروحون المدرسة، ويأكلون لحم، ويشوفون التلفزيون.

وصلت وضحى سوق الحريم، فتحت باب السيّارة، ثم صفقته بقوّة. ضحك أبو إبراهيم منها وقال:

- شويّ شويّ على الباب يا أمّ متعب.

ودّعها وهو يقول:

- مع السلامة.

ظلّ دعاء وضحى لأبي إبراهيم متواصلاً لأعوام، لا تروي وضحى قصّتها لأحد إلاّ ويكون الدعاء لأبي إبراهيم حاضراً، الرجل الذي منحها بيته وأطعمها، وحافظ على جيرتها.

منحت جولات السوق وضحى طعماً مختلفاً للحياة، ومنحت المدينة لأبنائها الذين صاروا يذهبون إلى المدرسة طريقاً جديدة. صحيح أنها صارت تذهب كلّ يوم إلى السوق، لكنها لم تزل تحلم كلّ ليلة بثغاء الغنم، وحلب الحليب، ورتق شقوق الخيمة، وليالي الوحدة

الطويلة مع صغارها يحميهم فيها كلبٌ ضامر عجوز. وحين تستيقظ وتجد نفسها في حارة "سكيرينة" تتنفّس الصعداء وتحمد الله على ما قدّر لها وتسأله العفو والعافية.

(٤)

يوم الخميس لا نذهب إلى المدرسة، فتكبسنا الشمس بحرارتها فوق السطوح، وتسكب ضوءها على وجوهنا ونحن نائمون، وأفواهنا مفتوحة تعبّ الهواء مثل حيوانات صحراويّة صغيرة. تفوح جلودنا بالحرّ، فنقفز هرباً منها، ونهبط الدرج بجفون هدّلها النعاس.

استقبلنا أبي وهو يأكل من صحن الفطور أمامه:

- تفطرون معي؟

لا نعرف ماذا نقول، أسرعنا ودخلنا الغرفة لنحتمي بظلالها وهواء المروحة البارد، ونمنا حتى التاسعة.

رائحة القهوة تتجوّل في المنزل، وصوت راديو أبي يبثّ ما في جوفه من أحاديث للذكريات، ثم جاءت أخبار الظهيرة، بعدها غنّى عبد الله محمّد وملأ فضاء البيت العامر بالشمس "هيّجت ذكراك حبّي واستبدّ بي الأنين".

انطلق صوت أذان الظهر، فركضت أمّي لتكتم صوت الراديو مردّدةً:

- الله أكبر، الله أكبر.

ثم نادت بصوت عالٍ:

- فوّاز! الصلاة يا وليدي، عواطف، عزيزة، يلّلا، خلّصوا اللي في يديكن وتوضّوا خلّنا نصلّي.

بعد صلاة الظهر جاء والدي ومعه عاملان يحملان صندوقاً كبيراً، وطلب منّي أن أصنع شاياً للعمّال، وطلب من فوّاز أن يحمل إليهم ماءً بارداً. دخل العمّال وخرجوا مرّات عدّة، وحين غادروا، وأقفل والدي الباب، سمعنا صوته ينادينا بينما وقف يقلّب وجهه أمام فتحة في الجدار تنفث هواءً بارداً. اقتربنا منه ووقفنا جميعاً أمام الهواء، رقصت أنا وعواطف، ورقصت معنا أختاي عفاف وعلياء، ونحن نقول:

- مكيّف، مكيّف!

تمدّد أبي فوق السجّادة، ووضع رأسه فوق المسند ذي الطيور الحمراء، فأخرجتنا أمّي من المجلس، وتركنا أبي يستمتع بقيلولته، بينما يتسرّب الهواء البارد من فتحة الباب، والمنزل يغفو في خدرٍ لذيذ لأوّل مرّة نعرفه.

بعد العصر قالت أمّي إنها ستخرج إلى السوق، فرجوناها أن تأخذنا معها، سألها والدي:

- مع مَن؟

قالت والدتي:

- سنذهب مع سعد ولد أمّ سعد.

مدّ والدي لها النقود، فأخذت منها خمسين ريالاً وأعطتها لأختي عواطف. فتحت عيني واسعة وأنا أنظر إلى الخمسين ريالاً

في يد عواطف، اعترضت، لكنّ أمّي رمقتني بملء عينيها، ووضعت إصبعها على فمها إشارةً إليّ أن أصمت.

ضحك أبي، ومدّ لي خمسين أخرى، وقال:

– ما نقدر نزعل الغالي، خذي يا عزيزة خمسين ثانية.

كان سعد ينتظرنا في سيّارته، وأمّه جاءت بعد خروجنا تتهادى في مشيتها، تدور كلمات كثيرة في فمها كأنها تكلّم نفسها، نسمع بعضاً ممّا تقول فنسمع استغفاراً طويلاً قطعته ثم خلطته بالسلام علينا، ثم ركبت هي مع سعد، ركبت بعدها والدتي في كابينة "بيك آب"، فيما ركبت أنا وعواطف في صحن "بيك آب". جلسنا على السطح وأسندنا ظهرينا إلى زجاج الكابينة المفتوحة النوافذ. حمل لنا الهواء رائحة حنّاء والدة سعد التي جلست بجانبه كي تحول بينه وبين جسد والدتي.

أدار سعد صوت المسجّلة عالياً، فانطلق صوت طلال مدّاح، فيما راحت والدته ووالدتي تتحدّثان.

لكزتُ عواطف وأنا أسمع طلال مدّاح يقول: "عطني المحبّة"، فابتسمت، ووضعت إصبعها على فمها كي ألزم الصمت. انطلقت الأغنية وكأنها وشوشة قلب سعد، وسبحت عواطف على خيالاتها الموصولة بظهر سعد المُسنَد خلف زجاج المركبة مقابل ظهرها تماماً، كأنه يسألها وصالاً صعباً، بينهما حديد وزجاج وحرارة يبعثها الموتور والحبّ.

أجنحة عباءتينا تتطاير مع هواء شهر ربيع الأول، بينما كلٌّ منّا تعيش ربيعها. تخبرني عواطف في أحاديث السطح أنها لا تتخيّل

أن تعيش حياتها مع رجل آخر غير سعد، وأنها حين تحلم لا تحلم إلاّ بأنها تكوي ثياب سعد وغترته الحمراء، وتطبخ له الأرز، وتنتظره حتى يعود من العمل صيفاً وشتاءً، وحين ينتفخ بطنها فإنها ستحمل ابنه هو، وستسمّيه كما وعدته على اسم والده، عبد الكريم.

من يومها صرت أناديها أمّ عبد الكريم. تضحك وهي تنهرني وتغمز بعينها مخافة أن ينكشف سرّها.

وصلنا سوق الديرة بمقصوراته المتعدّدة ودكاكينه المتراصّة على الجوانب وأزقّته الضيّقة ونداءات باعته المتجوّلين. لاحت لنا بضائعه بألوانها الأخّاذة. الناس، رجالاً ونساءً وأطفالاً، منشغلون بالفرجة والمساومة والضحك أحياناً والصراخ أحياناً أخرى. بدا لي السوق مهرجان فرح وحرّية، ممّا بعث في قلبي السعادة. شعرت أني طائر انفتح أمامه باب القفص. تحرّكت أجنحتي مملوءةً بشغف التحليق. شعرت بخفّة في جسدي تتجاوب مع ما حدث، وروح طيري المنبعث في صدري. رأيت سعد يقف أمام باب "بيك آب" من الخارج، ويفتح باب الصحن القصير وهو يبتسم، ثم أدار وجهه بأدبٍ لننزل. لم أشعر بجسدي وهو يهبط نصف متر تقريباً. كعب حذائي المسطّح يدقّ الأرض فلا أسمعه. تحوّلت إلى طائر بعباءة سوداء، قلت في نفسي:

- كأنّي غراب.

قالت عواطف التي لا أعرف كيف سمعتني:

- نعم غراب... وش تحسبين نفسك؟

عاد سعد يقفل باب الصحن وهو يتابعنا بعينيه.

قالت أمّي:

- سنذهب إلى سوق الذهب، وأنتنّ اذهبن للتسوّق، لا تتأخّرن. موعدنا القيصريّة الرابعة عند أذان المغرب.

تركتنا أمّي نتجوّل بحريّة، فهمت لماذا يبعث فيّ السوق هذا الدفق من السعادة؛ فهو الوقت الذي نبتعد فيه عن رقابة أمّي، ومعنا نقود نشتري بها ما نريد، ونتجوّل وحدنا...

من أذان العصر حتى أذان المغرب موعد طويل، أطول من نقودنا التي انتهت عاجلاً، وأطول من حاجاتنا. كلّ ما احتجته غطاء للوجه من تلك الأغطية الخفيفة المصلوبة، مثل لوح شاشٍ أسود خفيف، التي تضعها الفتيات على وجوههنّ حين يخرجن إلى المدرسة أو السوق؛ فتشفّ عن أسنانهنّ البيض حين يتبسمن، وعن أعناقهنّ حين تفرّ من تحت جناح العباءة الخفيف، وكلّما أرادت الواحدة منّا أن ترفع حمّالة حقيبتها التي تكاد تسقط كلّ خمس دقائق. أمّا عواطف التي لا تحلم إلاّ بالزواج فإنها تعشق الفرجة على ثياب النوم الشفّافة ومشدّات الصدر الدانتيل، والثوب الذي يُلبس تحت الثياب ليستر ما يشفّ منها، كما تشتري كلّ ما يجعلها نظيفة وعطرة دائماً، كالصابون المعطّر والزيت المعطّر والبودرة المعطّرة والحلوى المعقودة لنزع الشعر. وبدأت مؤخّراً تشتري فرشاة أسنان ومعجوناً.

- نمرّ على محلّ العيطمونة؟ قلتُ لعواطف.

- قصدك تمرّين على حبيب القلب؟ لا. لا.

قلتُ لها:

- يا غبيّة ستجدين عنده أسعاراً أرخص، عشاني هذه المرة!

وافقت على مضض. دخلنا المحلّ الملوّن بالثياب الجديدة.

وجدت عيسى، الشابّ الوسيم الأسمر بثوبه الناصع البياض وغترته الحمراء المنشّاة، أنيقاً، يقف وراء طاولة العرض، منشغلاً مع سيّدتين تظهر من تحت عباءتيهما أكفّ بيض تتحرّك بإغواء، وخواتم ذهبيّة رفيعة بأحجار ملوّنة، تضعان أصباغاً على أظافرهما، ولهما مؤخّرتان كبيرتان تظهران تحت ثيابهما التي تبدو من تحت عباءتيهما القصيرتين، ما يوحي بأنهما سيّدتان غنيّتان. غطاء وجهيهما خفيف وقصير لا يكاد يصل للذقن، ومقدّمة شعرهما تلوح من تحت الغطاء القصير، ورائحة عطرهما تملأ المحلّ. يبدو أنهما متزوّجتان، فالبضاعة التي تمسكان بها من الملابس الداخليّة لا تلبسها إلاّ المتزوّجات. ورغم تأدّب عيسى معهما إلاّ أنهما تبالغان في الرقّة والضحك، وتدخلان في حديث حميم وكأنهما تعرفانه منذ زمن. أكلت الغيرة قلبي. ظننت أنّ عيسى لا يرى غيري، وأنه صارمٌ لا يتهج مع أحد حتى معي. اتّجهت عواطف مباشرةً نحو ثياب "الجُرسيه" الداخلية. تشاغلتُ بتفحّص البضائع مع عواطف، وما إن تركته السيّدتان حتى انعطفت ناحيته ووقفت أمامه تفصلنا طاولة من زجاج، وبدا قلب عيسى أيضاً كأنه من زجاج، نظيف ولامع لكنه بارد. ابتسمت له، سيرى أسناني من خلف غطائي الخفيف، لكنه لن يرى حرقة قلبي: "مساء الخير". لم أقل في حياتي لأيّ إنسان سوى والدي هذه التحيّة.

ابتسم عيسى.

- هل عرفتني؟

هزّ عيسى كتفيه. هو يعرفني. الفتاة التي تمرّ عليه كلّ شهر كلّما

هبطت إلى السوق، لكنه لا يعرف مَن أنا، يا لي من غبيّة، قلت له، وقد حرّكت غيرتي تهوّراً داخليّاً:

- أنا عزيزة.

ابتسم عيسى، فهو يسمع باسمي للمرّة الأولى وقال:

- يا هلا والله، شرّفتي.

قلت أداري حرجي ببرود:

- غيّرتم الديكور؟

فأجاب بتأدّبٍ مصطنع:

- أبداً. هو الديكور ذاته!

شعر عيسى أني أتخبّط على غير هدى، فقال يداري حرجي ويطمئنه:

- المحلّ محلّك يا أختي.

لا أعرف كيف يفكّر عيسى، لكنني أعرف أنّ هناك فرقاً بين شعوري الدافئ نحوه وبين شعوره اللامع البارد، وهو محاط بشقيّات كثيرات يجعلنه أقلّ انفعالاً حين تمرّ به فتاة صغيرة مثلي لا تمنحه سوى الابتسامة والحديث البريء.

لم يعجب عواطف شيء من بضاعة دكّان عيسى، وجدت أسعاره غالية. أمّا أنا فقد كانت هذه الملابس الداخليّة واسعة على براءتي، فخرجنا خاليتي الوفاض، وقلب عيسى البارد غافل عنّي بمتابعة مشتريات أخريات، ممّا زاد من خيبتي وامتعاضي.

أنّبتني عواطف حين خرجنا:

- وش تبين في ها الحضرمي، أنت مجنونة؟

قلت:

- ماذا أفعل بقلبي، هو الذي يختار، يجب أن يكون مختلفاً ليدقّ قلبي.

- إنك تفتّشين عن الشقاء، حبّ بدون أمل، لن تتزوّجيه...

سمعنا صوت شابّ غريب يتبعنا، لم أفهم ما قاله، لكنه استمرّ يتبعنا ويردّد:

- متى الحلو يرحم؟

ضحكت وأنا أسمع هذه الكلمات. تخيّلت سعاد حسني وشابّ في الحارة يغازلها. قرّرت أن أفعل مثلها، أن أمشي بتجاهل، فهو واحد من الشباب الذين لا يأتون إلى السوق إلاّ للبحث عن الغزل والحبّ، لكنّ عواطف شعرت بالغضب. أمسكت يدي وضغطت عليها. شعرت بتوتّرها. عرفت أنها تتجهّز لشتمه كما تفعل عادة بالشباب الذين يمشون وراءنا. قالت بصوت يشبهها، قصير ومكتنز:

- وجع يوجع قلبك يا قليل الحيا.

ما إن نطقت عواطف بهذه الكلمات حتى اندفع خلفنا جسد شابّ يمور بالغضب، اصطدمت كتفه بكتفها، فمالت عليّ وكدنا نقع.

هجم شابّ يلبس ثوباً وغترة على الشابّ الآخر، وأمسكه من جيب ثوبه وهو يقول:

- الظاهر أنك ما تربّيت يا قليل الحيا، تغازل بنات الناس.

سقطت غترتا الشابّين.وهما يدخلان في عراك. ركض بعض الرجال المتواجدين. خرج عيسى من محلّه، ودخل بينهما ليهدّئهما.

قالت عواطف:

- يا ربّي، هذا سعد؟

سحبتني وهربنا.

كان أذان المغرب قد انطلق صادحاً في جنبات السوق. وجدنا والدتي وأمّ سعد تنتظران. عواطف تنتفض خوفاً، فيما أحاول تناسي ما حدث بتفحّص واجهات المحلاّت التي أخذ بعض أصحابها يغطّون واجهاتها بقطع من القماش، أو يغلقون أبوابها الزجاجيّة، ويتّجهون للصلاة. المطوّع يتجوّل بين الناس يصيح: "الصلاة الصلاة هداكم الله"، والباعة اليمنيّون يتباطؤون حتى يمرّ المطوّع، ثم يُخرجون سجائرهم من علبها ويضعونها في أفواههم وينفثون الدخان، ثم يهرولون يفتّشون عن مكان يدسّون أنفسهم فيه حتى تنتهي الصلاة.

ظهرت قامة سعد وهو في حالٍ مزرية، جيبه مشقوق وغترته على كتفه، غاضباً، ينظر شزراً باتّجاهنا، لكنه يخصّ واحدة منّا، بالتحديد عواطف.

سألته والدته:

- وش فيك؟ من اللّي سوّى فيك كذا؟

انتفضت عواطف والتصقت بوالدتها، بينما داهمني خوفٌ مباغت. لأوّل مرّة أشاهد سعد غاضباً، تمنّيت من الله أن يصمت سعد كي لا تعرف المرأتان بالقصّة ويصل الأمر لوالدي، اكتفى سعد بالصمت قائلاً:

- ما في شي، اركبوا اركبوا.

طريق العودة من السوق لا تشبه طريق الذهاب. ركب سعد

واجماً. لم يفتح مسجّلته، و لم يرسل رسائل الحبّ المعتادة. والدته كانت غاضبة هي الأخرى، وعاتبت سعد ونحن نركب "بيك آب" قائلةً:

- وراك دايماً في مشاكل مع الناس، تبيهم يسجنونك؟

في طريق الذهاب كانت الآمال تتقافز والأحلام تتوالد، بينما في طريق العودة كانت عواطف تضع يديها على وجهها كلّ دقيقة وتقول:

- الله يستر، الله يستر.

(٥)

في الصباح صلّت وضحى صلاة الفجر، وقرأت سورة الفاتحة التي لا تعرف غيرها. ودّت لو أنها حفظت من القرآن أكثر، لكنها تأمل أن يعوّض أجرها قلبها الطاهر من كلّ الأضغان، ولسانها المبلّل بالحمد الذي يذكر الله طويلاً ويحمده ويثني عليه. أيقظت بناتها، وأرسلت متعب ليحضر الخبز والفول، وحين عاد وضعت مزنة إبريق الحليب في الصحن؛ فأكلوا وأعينهم ترشح فرحاً وعافية، وهم يبتسمون لأمّهم التي لم يعرفوا في الحياة غيرها، ولا يثقون إلاّ بها وحدها: هي من منحتهم هذه الحياة الجديدة والمتقدّمة على حياة البرّ التي روّعتهم بجوعها ووحشتها. يشعرون أنهم مثل أطفال في حكاياتها، فتحوا أعينهم فوجدوا أنفسهم في صحراء، فجاءت هي في جسد ذئبة بيضاء قويّة، وأرضعتهم، وقامت بحمايتهم من الضواري والوحوش. لا تمنحهم وضحى الكثير من العواطف، لكنها تمنحهم الطعام والحماية والأمن. وضحى في عيون أبنائها ليست امرأة، بل بطل مثل أبطال حكاياتها. حين يفكّرون بأمّهم يرونها مثل فارس فوق حصان، ولهذا فإنهم لم يفكروا أبداً أنّ

واحداً من أحزان أمّهم أنها وحيدة بلا رجل، لأنّ أمّهم لا تشبه باقي النساء.

بعد الفطور مشت وضحى مع بناتها حتى محطّة الباص الأصفر، وحين ركبت الفتيات أدخلت وضحى رأسها وتوجّهت للسائق تسأله:

- يا وليدي، تحطّني في سوق الحريم على طريقك، جعلني ما أبكيك؟

تفحّص أبو مناحي وضحى قليلاً، شعر أنها تُذكّره بأحدٍ يعرفه: عيناها الضيّقتان، عباءتها المرسلة، كاشفةً ثياباً بسيطة وكالحةً، فقرها الذي يشبه فقره.

- حيّاك الله يا خالة، سوق الحريم على الطريق اركبي.

أمسكت وضحى عمود الحديد، ثم صعدت وكأنها تتسلّق جبلاً. تفحّصت مقدّمة الباص الطويلة. لأوّل مرّة تدخل هذه المركبة، مقاعد جلد خضراء متجاورة، فتيات يركبن مع رجل غريب عنهنّ وهنّ آمنات. طفلات يشاغب بعضهنّ بعضاً آخر. وجدت مقعداً قريباً من سائق الباص وجلست عليه. حدّقت وضحى في الرجل خلف المقود، وجدته رجلاً في الثلاثين بجبهة عريضة تتدلّى فوقها خصلة من شعر كثيف تحت طاقيّته المشغولة والمتّسخة. عينان ضيّقتان تميل واحدة منهما بعيداً عن الأخرى في حَوَلٍ ظاهر. أنفه مستدقّ، ينبت تحته شارب كثّ، حليق اللحية، يترك شماغه على كتفه طوال الوقت، يصفّر وهو يحدّق في الطريق، يرمي بعض التعليقات المتأفّفة على بعض السيّارات. لم تلزم وضحى الصمت كما تفعل نساء المدينة، سألته عن

أهله، وذكرت له أسماء رجال معروفين في تاريخها، وغنّت له مطالع قصائد لشعراء نبط مشهورين. ابتسم مناحي وأدرك أنه عثر على كنزٍ ثمين، التفت إليها وقال:

- يا خالة! ذكّرتني بالوالدة، الوالدة مثلك تحفظ الشعر وقصص الأوّلين.

- سوالف الأوّلين يا ولدي هي خبز الروح، لكن وين تلقى من يحبّها اليوم؟

نمت الأحاديث بين مناحي ووضحى مثلما تنمو أغصان عريش متشابك تدفّئ بعضها البعض. صار مناحي يعرف وضحى ويأنس لأحاديثها ويتبرّع كلّ يوم بإيصالها إلى سوق الحريم ويتركها في زاوية الشارع، قبل منعطف سوق الديرة حيث مجمّع المدارس الكبير ومعهد المعلّمات الثانويّ.

هبطت وضحى من الباص، ومشت طويلاً حتى وصلت ظلال جدران السوق القائمة من طين مطليّ بالجصّ الأبيض، ودخلت سوقاً قديمة، لها سقف مرتفع، وأرضها يعلوها تراب وأوساخ.

طرف السوق مفتوحٌ للهواء ومتّصل بساحة كبيرة تتكوّم فيها بضائع قديمة على الأرض. يتوزّع السوق على جبهات مختلفة؛ طيور في أقفاصها، وأقفاص بلا طيور، وفي خلفيّة السوق هناك سوق الأشياء المستعملة والقديمة الرخيصة يتنازع الناس فحصها وشراءها. يختلط الرجال مع النساء والباعة، وجمهور المشترين والمتفرّجين دون هدف. يبلغ السوق أشدّ ازدحامه أيّام العطل الأسبوعيّة. هذا السوق أوسع من حارة سكيرينة في حياة وضحى الجديدة، يضجّ صخباً مملوءاً بالحياة

والحماس والرغبة في الكسب. أصوات الناس في السوق تشبه هديل الحمام فيه وقأقأة دجاجاته. تتفتّح روحها للسوق وأهله، غادرتها وحشة صحرائها ورعب وحدتها وشقاء عيشها. تعرف أنها بقليلٍ من التفكير ستعرف كيف تجد لها مكاناً.

اليأس هو أن تكون بلا خيار، وأن تختفي من أمامك الطرق، تجلس مصلوباً تنتظر اللاشيء، وروحك تخلو من الأمل.

في سوق الحريم وجدت وضحى طرقاً كثيرة، وحافزاً جعلها تفكّر وتتأمّل. تفتّش عن طريقها، تشمّه في روائح السوق وفي أصواته. تنعطف وضحى في درب يضيق، ينفتح على بضائع مصفوفة على الأرض. جلست خلفها نساء تغطّي أجسادهنّ عباءات سود، ووجوههنّ تختفي تحت براقع تشقّها فتحات واسعة للعيون، وعصائب سود تلمع على جباههنّ. تنفتح العباءات على ألوان ثيابهنّ، وبعض فتحات الأثواب العلويّة الواسعة، أعناقهنّ تلمع بالعرق المنساب من حرارة السوق وكثرة مرتاديه. تجلس كلّ سيّدة خلف بضائعها المصفوفة على الأرض أو المتراصّة بعضها فوق بعض وقد أمسكت إحداهنّ بعصا من الخيزران تهشّ بها تحرّشات بعض الأطفال الذين يمدّون أيديهم نحو البضاعة قبل دفع الثمن، أو تضرب بها يد مراهق ظنّ أنّ خفّة يده قادرة على سحب شيء من بضاعتها والفرار. فاحت رائحة القهوة والهيل والزنجبيل والقرنفل من بين بسطات هؤلاء النساء، واختلطت مع روائح البهارات والحنّاء. رفعت وضحى يدها وقالت:

- صبّحكن الله بالخير يا بنات.

التفتت نحوها أمّ جزاع وقالت:

- صبحك بالخير يا وضحى، تقهوي.

أمّ جزاع هي السيّدة الأولى في سوق الحريم والخبيرة بأسراره، أمضت حياتها في الرياض، وتحديداً في هذا السوق. جاءت من وادي الدواسر عندما تزوّجها أبو جزاع وهي في الثالثة عشر. عملت معه في السوق في بيع الخردة والأثاث المستعمل، ثم استقلّت عنه في سوق الحريم وفاقته مهارةً وكسباً. اشتهرت بقصص عرفتها في القصور من كثرة تردّدها على العائلات المشهورة. تعرف مدناً مختلفة، مثل الطائف ومكّة وأبها، لم تزرها صويحباتها في السوق.

تربط أمّ جزاع علاقات وخلافات مع كثيرين، وتتوسّع تجارتها مع بيوت أسر معروفة في الرياض، تجلب لهم البخور والعطور، وهي الوسيط بين بعض النساء وبعض التّجّار، أكسبتها معرفتها بالبيوت والنساء المتعدّدات قدرة على ترشيح الفتيات لزيجات من رجال يبحثون عن أبكار وثيّبات، مطلّقات وأرامل. اشتهرت بدور الخطّابة بين كثير من الأسر والرجال. تعرف بفطرتها مَن يناسب مَن؟ ومَن يطمع في مَن؟ تعرف المرأة التي لا تريد مَن الزواج إلا الستر وولد الحلال، ومَن تريد المال والجاه. تعرف من الرجال مَن يريد المرأة المطيعة، الصبور، الضعيفة، ومَن يريد الفاتنة المغناج ذات الدلال. مَن يريد صاحبة الصدر الممتلئ والخصر النحيل واللحظ الفتّان والعجيزة الكبيرة، ومَن لا يطلب إلاّ فتاة تخاف الله، ومَن لا يطلب إلاّ المرأة التي تجلس على مؤخّرتها كأس الشاي. غريزتها تساعدها على معرفة النساء جيّداً، وخبرتها تساعدها على معرفة الرجال بصورة أفضل.

يدين لها بعض التجّار بأفضال ومعروف، وبعضهم يدعو الله أن لا يجازيها خيراً حين ينتهي زواجه بالطلاق.

تبدو أمّ جزاع بين نساء السوق أميرة سمراء، كقهوة لوّحتها النار، كلمتها بين النساء نافذة، وعطفها ومودّتها سخيّان. ومع مرور الوقت فيما خرجت من السوق خاسرات، ودخلت إليه أخريات طامعات، ظلّت هي صامدة، حتى أصبحت هي الآمرة الناهية. اكتسبت سطوة مضافة حين اشتهرت بأنها تقدّم للمحتاجين من الرجال والنساء ديناً بفائدة مؤجّلة، بعضهم يسمّيه الربا الحرام، لكنهم مضطرّون إليه، وبعضهم لا يرون في فعلها سوى مساعدة تقدّم لهم ما يمتنع بعض الرجال عنه.

في يوم وليلة ظهرت معها فتاة تلازمها اسمها عطوى، تلازمها، كأنها ابنتها، وما عادت تفارقها، قالت هي إنها ابنة أخت لها تزورها من وداي الدواسر. جلست تساعدها في بسطتها وتحمل عنها صناديقها، وقد جهل الناس منذ متى رأوا هذه الفتاة لكنهم تعوّدوا على وجودها مع أمّ جزاع و لم يعودوا يسألون مَن هي، ولولا كبر سنّ أمّ جزاع لظنّوا أنها ابنتها.

مرّت وضحى وقد انتهت من بيع بضاعتها الصغيرة من بيض الدجاج والفراخ القليلة قرب بسطة أمّ جزاع، فنادتها كي تتسلّى معها بالقصص والأشعار. لا شيء يطرب أمّ جزاع مثل الشعر المغنّى. تبدأ وضحى مطلع القصيدة، ثم تغنّيها تالياً في لحن سامريّ، فتشاركها أمّ جزاع إن كانت تعرف بعضها. يحدّق فيهما بعض المارّة، يتبسمون وهم يرون سيّدتين، تقابل كلّ واحدة منهما الأخرى، غائبتين عن هذا

العالم الأرضيّ المتشبّع بسلعه الفائضة عن حاجتهما. دقّت أمّ جزاع على كفّها مثل دفّ سامريّ، ومالت بجسدها يميناً ويساراً وهي تغنّي، حين راحت وضحى تردّد مطلع قصيدة:

يا جرّ قلبي جرا لدنا الغصون

وغصوني جرّها السيل جرّا

اندمجتا في غناء سامريّ مشترك ثم أخذتا تقهقهان. وضعت كل واحدة منهنّ يدها على فمها خلف البرقع، وبعد لحظات ردّدت أمّ جزاع: "الله المستعان يا وضحى" وعطوى الفتاة الصغيرة تراقبهما وتضحك.

وجدت أمّ جزاع في وضحى رفقة حنونة غمرتها، ومودّة ملأت شقوق وحدتها الطويلة. أعادت إليها ذكريات شبابها التي سُرقت، وأفراحها التي غادرتها منذ طلاقها من أبو جزاع الذي أخذ طفلها معه وغاب. عاقبها لأنها طلبت منه الطلاق. قيل إنه عاد إلى وادي الدواسر، وبعضهم رآه في الطائف في سوق عتيق يبيع الأثاث المستعمل. وجدت أمّ جزاع في وضحى رفيقة لا تشبه أيّ رفيقة في السوق؛ فهي تشبهها في صلابتها وحزمها، وفي طراوتها ومرحها المستتر خلف مرارة ظاهرة، وحكمة لا تتكلّفها. فيما أشفقت وضحى على وحدة أمّ جزاع. فالقوّي دائماً يجد نفسه وحيداً محسوداً، ملاحَقاً باللعنات. ولأنّ وضحى تكتفي بنعمة الكفاف، وما في يدها يزيد على حاجتها، اقتربت من أمّ جزاع دون أن تتبنّى ضغائن باقي النساء وأحكامهنّ. صارت تخصّها بالجلوس، وتحمل إليها غداءً مشتركاً وقهوة طيّبة، فيما راحت النساء يتهامسن:

- ماذا تجد أمّ جزاع في هذه السيّدة الفقيرة؟ تبدو كمن دبّرت لها سحراً أو أعمتها بالكذب طمعاً بها.

لكنّ أمّ جزاع استطاعت أن تميّز بحاسّتها القويّة بين مَن طمع فيها وكذب عليها، وبين من أحبّها وعفّ عن عطائها، مثل وضحى، لهذا احتضنتها وأعجبت بشخصيتها. اعتمدت وضحى على جهدها و لم تتسوّل مساعدتها، وخدمتها و لم تطلب أجراً منها. فوثقت أمّ جزاع بوضحى التي صارت ساعدها الأيمن ونائبها حين تغيب عن السوق، وأطلعتها على بحرٍ من أسرار تجارتها غير المتناهي. فتمكّنت وضحى فيما بعد من الانتقال من بائعة بيض بسيطة، تفرغ جعبتها في ساعات نهار قصيرة ولا تربح إلاّ القليل، إلى سيّدة سوق الحريم بعد عشر سنين. طوّرت وضحى بمساعدة أمّ جزاع تجارتها. صارت تشتري مجموعة من البهارات تدقّها، ثم تبيع خلطتها المميزة التي عرفت بخلطة وضحى، وأعشاباً تلزم النساء النفساوات والحائضات واللواتي تتأخّر دورتهنّ الشهرية والخائبات في الفراش. تصنع من الأقمشة المهترئة مقابض للقدور والدلال، ثم أدخلت في بسطتها ثياباً جاهزة للرجال من سراويل بيضاء قصيرة وطويلة، فانيلات، وللنساء تبيع شيلاً سوداء وعباءات، ثم كماليّات زينة النساء الرخيصة. ثم بدأت تشتري عقوداً وخواتم من الذهب والفضّة.

في الصيف حين هبّت النسائم الساخنة في سوق الحمام، وانتشر الخدر في أجساد الباعة، رشّت وضحى شرشفها بالماء البارد ووضعته كالخيمة فوق رأس أمّ جزاع كي ينفذ منه الهواء الحارّ ويخرج إلى رأسها بارداً. دعت لها أمّ جزاع بالبركة والخير الوفير، ثم طلبت منها

أن تصبّ القهوة لهما وهي تفتح إناءً ملوّناً وأخرجت رطباً يلمع نصفه الأصفر بعسل ذهبيّ اللون وينسكب على جوانبه.

وقف رجل على رأس أمّ جزاع وهي تشرب القهوة مع وضحى وقال:

- أمّ جزاع!

- يا هلا يا فرّاج، وشلونك؟

- عمتي صيتة، تقول بتمشي بكرة للطايف.

ردّت أمّ جزاع:

- ما يخالف، أصلّي العصر وأجيكم.

وقفت أمّ جزاع وقالت لوضحى:

- قومي معي.

طلبت وضحى من عطوى أن تنتبه لبسطتها، ومشت مع أمّ جزاع على أقدامها إلى سوق السجّاد العتيق، القريب منهما. أمّ جزاع بقامتها الممتلئة والطويلة، مثل قامة رجل يخرج للحرب تركت عباءتها مفتوحة من الأمام، وثوبها العنّابيّ بأزهاره البنفسجيّة يكشف عن صدر ضامر، وبطن ممتلئ، واصطفّت خواتم الذهب في ثلاثة من أصابعها، وفي ساعدها الأيمن ظهرت ساعة "رادو" ثمينة، بينما لمعت قلادة من خرز ذهبيّ مدوّر على رقبتها تحت غطاء برقعها. مشت وضحى بجوارها بقامة معتدلة وجسم ضامر كجمل هدّه طول الطريق. تلبس ثوباً أخضر بدوائر زرقاء وصفراء. أصابعها بلا خواتم وساعدها بلا حليّ، ورسغها دون ساعة تزيد عن حاجتها. عباءتها ثابتة فوق رأسها، تنسدل على ظهرها، وتنفتح من الأمام تاركةً ثوبها مكشوفاً، بينما

يغطّي وجهها برقع ينسدل حتى صدرها. تحت شمس الظهيرة الحامية مشتنا. وضعت وضحى يدها على عينيها كرحّالة بدويّ كي تحجب عينيها. وقفتا في الشارع المقابل لسوق السجّاد القديم. الرجال في كلّ مكان والنساء قليلات، يتوزّعن بين الباعة والمحلاّت، وعلى الطريق جلست مستندة إلى أعمدة السوق الخارجية امرأة تبيع ماءً مثلجاً، وترضع طفلة صغيرة دسّتها تحت ثيابها، فيما وقف صبيّ في السادسة قربها، سلّمت عليها أمّ جزاع:

- وشلونك يا نوير؟ وشلون الصغار، عساهم طيّبين؟

ردّت عليها بائعة العصير وهي تلاحق أمّ جزاع التي تعرفها وهذه الغريبة التي صارت صديقتها بفضول:

- الله يسلّمك يا أمّ جزاع.

على حافّة الطريق العامّ وقفتا تنتظران خلوّ الطريق. سيّارات الأجرة تنعطف وتقف قربهما، يهبط منها أناس ويركب آخرون. يتباطأ سير بعضها إن كان فارغاً يفتّش عن راكب. في هذه اللحظة قرّرت أمّ جزاع أن تعبر الشارع، فأمسكت بيد وضحى وجرّتها معها، دفعت الطريق بجسدها متصدّية للسيّارات فتبعها آخرون. توقّفت سيّارة بيوك خضراء تعبر الطريق، بانتظار المشاة كي يقطعوا الطريق. عبرت أمّ جزاع ووضحى الشارع إلى الجهة المقابلة. وصلتا إلى رصيف فقير ممتلئ بالحفر. دارتا حول عمود كهرباء طويل، مرّ من أمامهما رجل بعباءته التي تطير خلفه كجناحي نسر، فتنحّتا جانباً. استمرّت السيّدتان تمشيان بمحاذاة الجدار، بينما توسّط الرجال الطريق. وصلتا إلى محلاّت لبيع عباءات رجاليّة مطرّزة بخيوط ذهبيّة تلمع على جانبيها، ودخلتا

بعده زقاقاً ضيّقاً ينفتح على أزقّة متعدّدة يميناً ويساراً، وانحرفتا يميناً نحو محلّ يسدّ الطريق. لفح وجهيهما هواء بارد ينبعث من المكيّف الصحراويّ، يجلس فيه رجل نحيل في السبعين من عمره، يضع نظّارة طبّيّة بإطار بنّيّ، ولحيته القصيرة مصبوغة بلون أسود فاقع، يحمل في يده راديو صغيراً مغلّفاً بحقيبة من الجلد، يرسل أحاديث برامج الإذاعة السعوديّة.

- السلام عليكم يا أبو محيسن.

- أمّ جزاع! يا هلا والله ومرحبا، استريحوا استريحوا.

التفت أبو محيسن إلى شابّ يلبس ثوباً أبيض وصديريّة سوداء، ويترك شعره مكشوفاً، وقال له:

- يا عمر، قم أعطنا قهوة.

شربت أمّ جزاع ووضحى القهوة بيدين تكشفان عن حنّائهما، ثم هزّتا فنجاني القهوة إشارةً إلى الاكتفاء.

بعثت النسائم الباردة نافذةٌ صغيرة تتراقص فيها شرائط حديديّة، فطارت براقعهما من على الجانبين، وظهر صدغ أمّ جزاع، فعادت تمسكه بكفّها.

- يا أبو محيسن، هذي وضحى أختي وأعزّ، وهي في غيابي لين أعود.

سأل أبو محيسن:

- ليه، وأنت يا أمّ جزاع وين بتروحين؟

- أنا يا بو محيسن، جعلك تسلم، بأروح مع الشيخة صيتة للطايف.

- الله يسهّل عليك، لا تنسينا بالبرشومي يا أمّ جزاع!

ضحكا سويّاً، وقالت:

- وش تبي بالبرشومي بيشقّق يديك، ولا عندك سنون بتاكله.

- الله المستعان!

- أبجيب لك عنب ورمّان؟

ضحك أبو محيسن، وقال:

- الله يسلّمك.

- ثم أضاف: طيّب، والحساب؟

- تحاسبك وضحى، وكل شي عندها مثل ما هو عندي.

- تأمرين يا أمّ جزاع.

ودّعت وضحى أمّ جزاع التي سافرت وأخذت ابنة أختها عطوى معها، فأخذت وضحى محلّها في السوق.

بعد صلاة العشاء عادت وضحى لمنزلها، وطلبت من الجازي أن تعدّ لها عشاءً خفيفاً، ثم صعدت إلى السطح، وفكّرت أن تطلب من متعب أن يشتري لها مكيّفاً صحراويّاً كالذي رأته عند دكّان أبو محيسن، ستضعه في الروشن لتنام قبالته في ليالي القيظ الحارّة.

سألت وضحى ابنتها مزنة إن كان متعب قد عاد، فردّت مزنة:

- لا يُمّه، ما جاء بعد.

وفي ذات اللحظة وصلهما صوت متعب مع دخوله للبيت وهو ينادي كعادته:

- يا أهل البيت.

ثم صاح بمرح مقلّداً صوت الذئب:

- عووو.

سمعته يرتقي عتبات الدرج، ينادي باسمها:

- وضحى، يا وضحى.

وعندما وصل ورأى أمّه تحت يدي مزنة، قال:

- أفا يا ذا العلم وضحى تعبانة.

اقترب منها ووضع يديه فوق ظهرها وأخذ يمسّده ثم قال:

- أبو مصطفى، محلّه للبيع.

- وش يبيع أبو مصطفى، دلال وفناجيل؟

- لا يا يمّة، يبيع أشرطة.

ثم أخذ يقلّد صوت العود بلسانه ويغني "دلنق دلننق مليح القدّ والقامة، عسى الله يسعد أيّامه".

قالت وضحى:

- يا ولدي، ليه الناس تشتري الأغاني وهم يسمعونها ببلاش في التلفزيون والراديو؟

- المحلّ يكسب ذهب.

ضغط بقوّة على عضلة ظهرها، وهو يقول:

- ها يا ريم وادي ثقيف، نشتري المحلّ؟

قالت له:

- نشوف.

تحاول أن تذكّر أولادها بما كانوا عليه منذ سنوات حين كانوا معرّضين للموت، لأنهم لا يملكون قطعة خبز، وثيابهم مشقّقة، لكنهم نسوا جميعهم ذاك الماضي. مسحوا من ذاكرتهم تلك الأيّام البائسة. الأطفال لديهم قدرة على نسيان الماضي المؤلم، لا أحد منهم يريد أن

يتذكّر. تدفعهم روح الحياة إلى السير قدماً وإلى الفرح، بينما يفتّش الكبار في الماضي عن ذكرى سعيدة، كي يبكوا عليها أو يتألّموا من أجل ذكريات مرّت وما عاد بالإمكان استرجاعها، يقعون في أسر ما فات، ويفقدون القدرة على الفرح بشمس الصباح وباللقمة الطيّبة، يلومون الزمان الذي مضى سريعاً، يلومونه على ما فعل بهم. وهل يسمع الزمن حتى نظلّ نلاحقه بالملامة؟ إنه لا يسمع أبداً، تقول وضحى.

اشترى متعب محلّ أشرطة الكاسيت المقابل لشارع السوق القديم. ينسخ ويبيع أغاني المطربين المطلوبين: طاهر الأحسائي وحجاب وطارق عبد الحكيم وفوزي محسون، والشابّين الصاعدين محمد عبده وطلال مدّاح. وتردّدت عليه نساء يعملن في مجال الغناء في الأعراس يمازحنه ويطمعن في خدماته بثمن مؤجّل. ينسخ متعب لهنّ الأغاني في الليل حين يغلق محلّه في التاسعة، ولا يعود إلاّ قبل صلاة الفجر، وينام حتى الظهيرة.

تفرح وضحى وهي ترى متعب يكسب المال ويقاسمها الأرباح، ممّا يعني أنه صار رجلاً، ويشاركها في بعض قراراته. قبل أن يشتري ماكينة نسخ جديدة جاء إليها وسألها، لأنه يعرف أنه يحتاج أن يقتطع من الربح القادم وربّما سيزيد عليه. لا توافق وضحى على تبذير المال، فهي أكثر من يعرف نتيجة الخسارة، والماكينة مرتفعة السعر، لكنّ متعب ألحّ، ووضحى لا تلمس منه اقتناعاً بما قالته. تحاول محاولتها الأخيرة قائلة:

– لماذا تدفع ثمنها كاملاً، اشترها بالأقساط وسدّد من الأرباح، أو اشترِ واحدة مستعملة.

نظر متعب إلى والدته ثم صاح بها:

- والله يا أمّ متعب إنك تاجرة بالفطرة.

عندما رآها تضحك مدّ يده قائلاً:

- خلّيني أحبّ رأسك يا ريم وادي ثقيف.

(٦)

قبل الغروب يتضاءل الضياء ويدخل المساء وليداً، فيسمّيه أهل حيّنا تحبّباً "مسيان". لا يزال المساء يحتفظ ببعض الضوء، لكنه ضوء غارب لا محالة، فما إن تندسّ الشمس وسط رحم السماء وتسحب لحافها الداكن على رأسها، تاركةً نصف قمر مضاء، حتى تضيء أمّ عزوز اللمبة الصفراء القابعة تحت مقدّمة منزلهم، فيتسلّل ضوء شاحب لا يكاد ينير جزءاً صغيراً من شارع الحارة، يتكثف فوق بابهم الخارجيّ المبرقش بنقط سوداء خالية من الدهان، تسبّب بها دقّ الحصى بالباب حين يكون الطارق من الأطفال أو يائساً من سماع صوت طرقه. في ذلك المساء اجتمع الأطفال يلعبون تحت بقعة الضوء الفقيرة، بينما انتظرت البيوت الأخرى حتى يحلّ الظلام كاملاً كي تطلق شحنات أضوائها الصغيرة المعلّقة فوق الأبواب، من تحت قبّعات الجبس التي تزيّن مقدّمات الأبواب.

وصل فستان أمّي من الخيّاطة ثريّا. قلّبته بين يديها بفرح، ومسحت على روبيانته الحمراء بزهو وجرّبت سحّابه، فتحته ثم أغلقته. بدت راضية عن شكله الناعم. دخلت غرفتها ولبسته ثم

عادت ترينا إيّاه. بدت أمّي بفستانها الجديد مشدودة القوام، وهي ترفع طرف كمّيها بعيداً عن رسغيها حتى تظهر ساعتها "الرادو" الجديدة، تفحّصها أبي وهو سعيد بمشيتها وهي تشدّ قامتها فتبدو أصغر ممّا هي عليه. قال لها:

- اللّي يشوفك يا نورة يقول إنك أصغر من بناتك.

لأوّل مرّة أسمع أبي يذكر اسم أمّي، فقد كانت دائماً أمّ إبراهيم. اكتشفت اليوم أن أمّي لها اسم أنثى مثلنا، وأن اسمها جميل هو نورة، حتى أني من حماسي وشكّي بأنّ هذا هو اسم أمّي قلت لها أجرّبه:

- والله أبوي صادق يا نورة.

ضحك أبي ونظرت أمي إليّ شزراً ثم قالت:

- قومي، قولي لعواطف تتجهّز بنروح لعرس الحضارم الليلة.

بنت جارتنا حسينة ستتزوّج الليلة، ومنزل والديها في آخر الشارع على بعد أربعة بيوت. لهم اسم غير الحضارم لكننا ننساه، فنحن نعرفهم بجيراننا الحضارم، لكننا لا نتلفّظ بهذا الاسم أمامهم.

تزورنا حسينة مع جارات الحارة، فتبرز من بينهنّ بلهجتها الغريبة، فهي تفتح آخر الحروف بينما أهل الرياض يضمّونها، لكنها أيضاً أكثر جارات أمّي تمدّناً ومعرفة، فهي الوحيدة من بينهم من يتحدّث عن أخبار فلسطين ومعاهدة السادات مع إسرائيل، والانقلاب في اليمن وطرد الإمام منها، وهجمات عصابات سرقة العبيد والجواري التي قالت إنّ والدتها كانت واحدة منهنّ، كما تتميّز حسينة بمعرفتها آخر موضات الذهب لأنّ زوجها مسعود يملك محلاً في سوق الذهب

ويقف فيه دائماً، ولو ذهبت إليه صديقاتها لوجدنه يراعي جيرتهنّ فيخبرهنّ بسعر الذهب الحقيقيّ، ويعيّن لهنّ المواقيت المناسبة للشراء والبيع. ليس بين جاراتها من تتّخذ قراراً بالبيع أو الشراء دون أن تمرّ على حسينة لتسألها إن كان سعر الجنيه مناسباً هذا اليوم أم لا. فتسأل هي زوجها المتأنّق الذي يركب سيّارة بيوك سوداء، هي أحدث السيّارات في الحارة، ويضع أزراراً ذهبيّة في ثوبه، ويدخّن. تتحسّر أمّي كلّما رأته يمرّ من شارعنا حاملاً في يده سيجارة، وتدعو له بأن يهديه الله ويشفيه من هذا الداء. لكنّ حسينة لا يغضبها أنّ زوجها يدخّن، بل لأنه يحبّ سميرة توفيق، وهذا ما يجعل حسينة دائماً حزينة. كلّما تحدّثت أمام جاراتها تخبرهنّ بأنّ سميرة توفيق قد سرقت عقل زوجها؛ فهو يحمل صورتها في محفظته، وقد نشبت بينه وبين ابن عمّه مشادّة حادّة حين أخذ صورتها من يده وقبّلها، فقام عليه وجرّه من جيبه ودفعه نحو الجدار قائلاً:

– قدّامي يا كلب!

وحين تظهر سميرة توفيق تغنّي في التلفزيون: "بالله صبّوا ها القهوة وزيدوها هيل" يخرس كلّ مَن في البيت، ويرفع صوت التلفاز عالياً فلا يسمع إلاّ صوتها، ويدوخ في عذابات أشواقه عندما تقوم بحركتها الشهيرة فتغمز بعينها والكاميرا تقترب من خدّها الأبيض ذي الشامة السوداء، وأسنانها البيضاء تكشف عن ابتسامتها الضاجّة بالفتنة، فيطير قلبه فرحاً، وتقول أيضاً حسينة إنه يدلّعها ويسمّيها "سمّورة قلبي" ويقول لها: "يا ليت أهلش سمّوش سميرة".

في المساء وقفتُ أمام مرآة غرفتي وشددت حزامي على فستان أبيض مخطّط بالألوان، وخرجت مع عواطف وعلياء وعفاف، نتهادى بكعوب الأحذية والثياب الجديدة، في حين مشت أمّي في المقدّمة حتى بيت جيراننا الذين شدّوا عقدين من الأضواء في الشارع، تمتدّ من بيتهم حتى البيت المقابل لهم. دخلنا فوجدنا صفوفاً من النساء لا يشبهننا. أزياؤهنّ مختلفة. يعلّقن عقوداً من الياسمين على رقابهنّ وفي شعورهنّ، ويتوشّحن بشالات ملوّنة على رؤوسهنّ، وزخرفة الحنّاء تظهر فوق الأكفّ والأقدام لا في بواطنها كما نفعل نحن، بينما تقصّ الفتيات مقدّمات شعورهنّ حتى خطّ الحاجبين فتنتفخ شعورهنّ الخشنة فوقها. رائحة عرسهم بدت غريبة بسبب البخور. جلست العروس وسط صفوف النساء في غرفة الجلوس، وتحلّقت وسط الغرفة فرقة نساء يحملن دفوفاً وطبولاً يطرقن جلدها المشدود، وترقص الفتيات على أنغامها. يضعن أيديهنّ خلف ظهورهنّ ثم يتجاورن كتوائم ويتحرّكن جيئةً وذهاباً. التفتت حسينة إليّ وقالت:

- يلّلا يا عزيزة، قومي إلى الرقص.

اندفعت أضع رأسي على كتف أمّي وأنا أتألّم خجلاً. قلت لأمّي:

- لا، أستحي.

كنت أشعر أنّ رقصنا سيبدو غريباً ، لكنّ أمّي دفعتني وقالت:

- لا تتدلّعي، قومي ارقصي من أجل حسينة.

دفعت عواطف أمامي ووقفنا في حلبة الرقص وسط الغرفة،

وعرفت صاحبات الدفوف أننا غريبات، فغنّين لنا أغنية شهيرة لمحمد عبده ما إن سمعتها عواطف حتى بدأت تهزّ ردفيها وترقص بحماس، فلحقتها أنا وقلّدتها.

صفّقت النساء لنا وحدّقت بنا الفتيات في فضول ينظرن إلى هاتين الفتاتين اللتين ترقصان بغرابة.

بعد طعام العشاء أخذ بعض النساء يودّعن أمّ العروس، ومنهنّ أمّي، لكنّ حسينة قالت إنّ السهرة لم تنته بعد، وأقسمت أيماناً مغلّظة كي نجلس ونمضي السهرة حتى نهايتها لأنهم سيعرضون فيلماً سينمائيّاً فوق السطح، لكنّ أمّي أصرّت على العودة إلى البيت، فأمسكت حسينة وبناتها بي وبعواطف وطلبن أن نجلس.

سمحت لنا أمّي بالمكوث والعودة مع أخي فوّاز الذي جلس مع الفتيان في تجمّع العرس في الشارع.

صعدنا فوق سطح المنزل، كان مظلماً وبلا ضوء، لكنّ الضوء القادم من عقود الأضواء الخارجية كان قويّاً ويكشف أشباح الأجساد التي بدأت بالتجمّع على السطح، والتي جلست على كراسيّ من البلاستيك صُفّت على جدران السطح الثلاثة. سمعت أصوات الرجال والشباب على الجانب الآخر. كان بينهم فوّاز أخي، وهو لم يعرفنا لأننا بقينا متلفّعات عباءاتنا، ووجوهنا تحت الأغطية. لم تستطع الفتيات أن يخفين سعادتهنّ وهنّ ينتظرن بداية الفيلم. بعضهنّ يُطلقن صيحات حماس خافتة. بقي السطح مظلماً، وطلب مسعود من ولديه أن يطفئوا عقود الأنوار في الخارج. لم أفهم لماذا يصرّون على إبقاء المكان مظلماً حتى شاهدت بقعة مضيئة تنبثق

من الجدار يظهر منها أناس يتحرّكون، بقعة تشبه شاشة التلفزيون لكنها مجرّد بقعة ضوء يحجبها كلّ جسد يمرّ أمامها. لم أرَ طوال حياتي مثل ما شاهدته ذلك اليوم، لقد وقع قلبي وشدّت عواطف فستاني.

كانت كريمة مختار، الممثّلة المحتشمة، زوجة عمّ عكاشة في مسلسل "الليل الطويل"، تخرج من الحمّام وهي تضع المنشفة على رأسها ومنشفة أخرى تلفّ بها جسدها، تاركةً كتفيها وركبتيها عارية. وقع قلبي وتفجّرت حماسته، شعرت بمذاق يشبه تقاسم الأسرار، وضعت عواطف يديها على عينيها وقالت:

- الله لا يخزينا.

سمعت قهقهة الفتيان في الجانب الآخر وتصفيقهم، وسعال جارنا مسعود الذي يدخّن، بينما غرقت النساء في صمت وفضول يتابعن الفيلم. جرّتني عواطف من كتفي، وقالت:

- قومي نروح.

دفعتُ يدها وقلت:

- لا تخربين الفيلم علينا.

مرّ الوقت سريعاً، فجاءت عفاف وهي تركض قائلةً:

- أبوي تحت يقول يلّلا تعالوا.

جاء يأخذنا بنفسه لأنّ الوقت متأخّر، فمشينا معه إلى البيت، بينما بقي فوّاز حتى نهاية الفيلم، كانت هذه المرّة الأولى في حياتي التي تمنّيت فيها لو كنت ولداً مثل فوّاز ليس ملزماً بالعودة قبل أن ينتهي الفيلم. من يومها عرفت أنّ الأفلام المصريّة التي أغرمت بمشاهدتها

في التلفزيون ليست كلها هي نفسها التي في السينما، وأنّ الأفلام مثل الحياة لها وجهان، ومثل كريمة مختار، مرّة محتشمة ومرّة عارية. لهذا رحت أفتّش دائماً عن وجه الحياة العاري.

(٧)

خرج والدي بعد صلاة العصر وركب سيّارته، وقبل أن يدير محرّكها اكتشف أن مكان الراديو فارغ، فنزل منها ودخل منزله. أخبر أمّي أن مسجّلة سيّارته تعرّضت للسرقة، وأنه ذاهب لإخبار الشرطة. عاد من دائرة شرطة شارع الأعشى ومعه رجلان، أحدهما بثياب عسكريّة والآخر بثوب مدنيّ. دخلت مزنة وهي تركض نحوي. كنت قد استيقظت للتوّ من نوم ظهيرة قصير. أخبرتني أنّ الشارع ممتلئ بالرجال، ومعهم رجلا شرطة. سمعت صوت أبي يحذّر أمّي من الاقتراب من الباب، ثم خرج مرّة أخرى.

سحبت يد مزنة، وقلت لها:

- تعالي نتفرّج.

في السطح توجد كوى صغيرة مغطّاة بشبكة من الجبس تطلّ على الحارة، وفي جدار السلّم شبّاك مفتوح مغطّى بصندوق خشبيّ مدهون باللون البنّيّ، تتخلّله ثقوب مدوّرة تسمح للعين بالنظر. حشرنا أكتافنا النحيلة بداخله. نظرت كلّ واحدة منّا عبر ثقب. شعرنا بالخوف، بدا والدي غاضباً وجافلاً. لأوّل مرّة أراه هكذا، ورجال الحارة يتابعون

معه ما حدث، فيما تجوّل رجلا الشرطة بعيداً، يجوسان أوّل الحارة حتى آخرها. ظهر صبيّان، أحدهما أسمر اللون والآخر قمحيّ اللون، يركبان درّاجة وفي يديهما آيس كريم، وفي ظهر درّاجتهما مشتريات كثيرة. أوقف الشرطيّ الصبيّين، ثم سألهما أسئلة عدّة. اعترف الفتى الذي كان يجلس خلف قائد الدرّاجة أنهما قد سرقا المسجّلة، فطلبا من أبي أن يقترب ليتعرّف على اللصّين قبل القبض عليهما. كانت مزنة قد تعرّفت على أحدهما قبلي. لقد كان ضاري أخوها يركب الدرّاجة بصحبة الولد الدحميّ الذي حذّره متعب من مغبّة رفقته. خرجت مزنة تركض في الحارة دون غطاء، لم يلتفت إليها أحد. ركضت إلى منزلها، لكنها لم تجد في البيت غير أختها الجازي، وقبل أن تستدير لتخرج نبّهتها الجازي قائلة:

- هل تخرجين دون عباءة يا مجنونة؟

خطفت مزنة عباءة أختها، وخرجت تفتّش عن والدتها في سوق الحريم فوجدتها مشغولة بالبيع. جلست بجانبها تشدّ طرف عباءتها بقوّة، ووضحى ترمي بيدها بعيداً وتقول:

- اصبري شويّ.

نظر الرجل الذي يجادل وضحى في البيع قائلاً:

- ما شاء الله هذي بنتك؟

لم تردّ وضحى.

مشى الرجل، فسقطت مزنة في حضن والدتها تبكي!

- ضاري مسكته الشرطة.

خرج ضاري من سجنه ناقماً على أمّه وأخيه متعب لأنّهما تركاه

خمسة أيّام في مخفر الشرطة مع اللصوص والمهرّبين، قال لمتعب وهو يجرّه إلى السيّارة:

- أنا ما سرقت شي، الدحميّ هو اللّي سرق.

لكنّ متعب ردّ بحدّة:

- اللّي يمشي مع الحراميّة حرامي زيّهم واللّي يشيل قربة مشقوقة تقطر على ظهره.

دخلا المنزل، وحين رأى ضاري والدته تبدّد شعوره بالحنق وحلّ محلّه شعور بالعار. وضحى لم تقل له شيئاً سألته فقط:

- أكلت؟

لم يردّ. كان يتوقّع أن تضربه كما كانت تفعل حين يخطئ، ولو أنها فعلت لخفّفت عنه قليلاً، ولربّما منحت فرصة لأحلامه بالتعبير عن نفسها حين توسوس له:

- ليتني أهرب وأرتاح من هذه العائلة.

وهو في سرحانه فاجأه متعب بقوله آمراً:

- إذا خلصت الأكل اتبعني للصلاة.

لكنه لا يريد أن يتبع أحداً. جلس في المنزل يأكل ثم خرج. قابل أترابه الصغار الذين ما إن رأوه حتى سألوه عن السجن، فتظاهر بالشجاعة وأخذ يحدّثهم عن السجناء: اثنان منهم يمنيّان قُبض عليهما لأنهما يصنعان الخمر المحلّيّة، وسارق الحديد الأسود، ورجل ضبطه رجل آخر في منزله فادّعى أنه دخل كي يسرق، لكنه في الحقيقة كان يواعد زوجته، وخاف الاعتراف حفاظاً على شرف المرأة، ورضي المسروق كي لا يلحقه عار. جلس مع كلّ هؤلاء وسمع أحاديثهم ومخاوفهم،

وهم ينتظرون أحكام القاضي. بعضهم كان يمرح، وبعضهم غير مبالٍ. لم يكن أحد منهم حزيناً وخائفاً مثله، لكنه لم يقل لهم ذلك، حدّثهم عن الطرائف التي حدثت لهم والأحاديث التي دارت بينهم، ووصفهم بالشجاعة، بل وقال إنّ قلوبهم ميتة لا تعرف الخوف أبداً.

سأله صديقه:

- هل خفت؟

ردّ بحماس:

- لا. لكنّ أكلهم رديء والنوم على الأرض أتعبه.

صار عند رفاقه بطلاً وراحوا يتبعونه. منحته قصّة إيقافه في السجن أمامهم خبرة تفوقهم، فقد اختبر شيئاً لم يعرفوه هم. أوّل هذه الخبرة أنه قضى ليالٍ عدّة بعيداً عن المنزل.

وللتأكيد على تفوّقه بادر بالذهاب إلى البقالة والحميديّ معه، وسأل البائع الحضرميّ:

- عندك دخان؟

في المساء حين وصل ضاري المنزل أخرج علبة الدخان من جيبه، وحفر في الركن الأيمن من الباب حفرة ووضع علبة الدخان وسطها ودفنها ثم دخل. اقترب منه متعب وسأله:

- وين رحت؟

ارتبك ضاري وقال:

- كنت أتمشّى.

فاحت رائحة الدخان من ثوبه، أمسك متعب يد ضاري ورفعها نحو أنفه وقال:

- وصرت تدخّن يا أسود الوجه؟

ثم رفعه من أسفل ثوبه وحمله وهو يرفسه، ثم أخذ حذاءً وبدأ يجلده.

حملت وضحى سجّادتها وصعدت إلى السطح. كانت تعرف أنّ ضاري يحتاج رجلاً يؤدّبه لا امرأة لا تستطيع أن تكسر شوكته.

خرجت الفتيات إلى المدرسة واتجه متعب إلى محلّه ووضحى ذهبت إلى السوق، لكنّ ضاري لم يقم من فراشه حاضناً حنقه الذي لم يعد يعرف سواه منذ ذلك اليوم. وقبل أن يعود متعب ووضحى من أعمالهما ويكتشفا تغيّبه عن المدرسة خرج مرّة أخرى دون أن يأكل شيئاً. وعند الباب نبش الحفرة وأخذ علبة الدخان وغادر.

بعد خمسة أيّام قابل متعب مدرّساً جاءه إلى المحلّ وسأله عن ضاري الذي لم يأتِ إلى المدرسة. لم يأخذ من المدرّس الذي اشترى منه شريطاً لطلال مدّاح نقوداً، لكنه كان يتحيّن وقت العودة إلى المنزل والغضب يزبد ويرعد في جوفه.

دخل متعب المنزل فوجد الجازي تعدّ الخبز وتطبخ الطعام، ووجد مزنة تغسل الثياب ووضحى مستلقية على جنبها، فسألها:

- أين ضاري يا يُمّه؟

قالت وضحى:

- يا ولدي عليك بالصبر، الولد صغير.

سمع ضاري صوتهما عند الباب فوجف قلبه. أخرج علبة الدخان ودفنها قبل أن يدخل. دفع بيده الباب المفتوح ووضع رجله، ولم يمهله متعب ليضع الرجل الأخرى. جرّه من مقدّمة ثوبه وهو يقول له:

- تحسب ما يقوى عليك أحد؟

هذه المرّة دافع ضاري عن نفسه بأن وضع كفّيه في صدر متعب يدفعه عنه، لكنّ متعب كان أقوى منه، فحمله ثم أوقعه على الأرض وداس بقدمه على صدره. تركت وضحى المكان، لكنّ الجازي ركضت وهي تبكي تطلب من متعب أن يرفق به، فالولد صغير.

توقّف متعب عن ضرب ضاري، نزولاً عند بكاء الجازي ورجائها، لكنه قال، وهو يتركه من يده:

- إذا هو ما يبي يصير رجّال ترى ما حدّ نافعه، لا له أعمام ولا أولاد عمّ ينفعونه. أنت تسمع يا غبيّ؟

ذهب ضاري في اليوم التالي إلى المدرسة وجلس في الفصل يشعر بغربة مع رفاق الصّفّ، شعر أنه صار أكبر وأقوى، ولم تعد المدرسة تناسب أمثاله، وصار يتحيّن نهاية العام حتى يعلن أنه شبع من المدرسة. في الفصل طلب منه المعلّم أن يخرج واجباته فادّعى ضاري أنه كان غائباً، فأرسله عند المدير الذي فتح ملفّه وقال:

- لا تحلّ الواجبات يا ضاري، وتغيب، اذهب إلى البيت ولا ترجع إلاّ مع والدك.

فوجدها حجّة كي لا يدخل المدرسة مرّة أخرى، فهو لن يستطيع أبداً أن يحضر والده ليدافع عنه، وقد همز المدير جرحه الذي كلّما لمسه أحد انتفضُ وغضب وشعر برغبة في تدمير هذا العالم الذي لم يناسبه.

يعرف ضاري معنى غياب الأب. في العيد وفي الأعراس وفي الولائم يدخل رفاقه معاً لكنهم يذهبون مباشرة إلى أهاليهم الذين

يمنحونهم مكاناً. ويكتسب الولد حظوة بين رفاقه إذا ما كان صاحب الوليمة هو والده، وفي العيد يخرج كلّ ولد بحصيلة من النقود من والده أو من ضيوفهم. وحين يتصرّف الأولاد فإنهم يتبعون ضوء الأوامر التي وضعها الآباء في المنزل، مثل ساعة العودة إلى المنزل، ونوع الرفاق الذين يختارونهم، وحتى نوع المأكل والمشرب، ممّا يجعل حياتهم واضحة وسهلة، بينما لا يجد في منزله سوى امرأة لا يلمس منها إلاّ حنانها، لأنّ قوّتها الخفيّة تتحرّك فقط في رأسها ولسانها. لا يعرف إلاّ هذه المرأة التي عملت طويلاً من أجلهم، فيرهقه شعوره بأنه عاجز عن تولّي الأمر عنها. ومتعب لا يعرف سوى أن يتبع أمّه. هو لا يريد أن يتبع امرأة مهما كانت هذه المرأة، فالرجل مختلف، هو خشن وقويّ ولا يطيع أحداً، ويعرف كيف يضع القواعد في المنزل، لكنه يشعر أنه صغير ولا يملك نقوداً، وذهابه إلى المدرسة يجعله صغيراً أكثر، لذا فقد وجد في دعوة متعب للعمل معه في المحلّ طريقاً جديداً يجعله أكبر في المنزل وفي الحارة.

في عطلة الصيف الطويلة كان متعب يجرّه أمامه إلى المحلّ، ولكم طال الوقت حتى تدرّب وصار سعيداً هذه المرّة، إذ تعلّم سريعاً كيف يدير المحلّ.

وقف في المحلّ ينفّذ ما يقوله له متعب، ويساعد الشابّ اليماني عليّ الأعرج، شابّ يكبره بعامين، لكنه قويّ، يضحك طوال الوقت، وماهر في نسخ الأشرطة. ابتهج ضاري بالدور، وأخذ يصدر أوامره لعليّ:

- روح جب لي شاهي يا عليّ، انسخ هذا الشريط يا عليّ.

وقف خلف طاولة البيع وجاءه الأولاد المراهقون، وتعرّف على نوع الشباب الذين يسمعون الأغاني، وفي بعض الأحيان، جاءته فتيات ملثّمات وتحدّثن معه وضحكن.

وذات يوم ومتعب يقفل دكّانه قال له:

- إذا تشدّ حيلك يصير المحلّ لك!

أعجبه العرض، لكنه لا يعرف كيف التنفيذ.

في أحد المساءات التي خرج فيها متعب من المحل، اقترب ضاري من صندوق النقود الخشبيّ ومدّ يده داخله وملأ قبضته بالنقود ثم وضعها بسرعة في جيبه. وما إن عاد أخوه حتى أخبره أنه سيخرج قليلاً ليشتري له عصيراً من البقالة المجاورة، وحين تأخّر، و لم يعد، أقفل متعب الباب وعاد إلى المنزل متوعّداً ضاري بالعقاب؛ لذا طوال الليل انتظره لكنه تأخر، فنام قرب الباب و لم يأتِ. وحين استيقظت وضحى في الصباح عرفت أنّ ضاري لم يعد، فشقّ عليها ذلك وطلبت من متعب أن يفتّش عنه. حاولت أن تشرح له أنّ ضاري لا يشبهه لأنه ابن هذه المدينة وهو يفتّش عن مكان يجد نفسه فيه، وعليه بالرفق، لكنّ متعب ردّ بصرامة أنه يلزمه تأديب.

خرج متعب في الصباح يفتّش عنه في كلّ الأماكن حتى توقّف عند مقهى على شارع قرب دكّانه، فوجده يأكل على طاولة وحده. عجب من وجوده هناك. اقترب منه وجلس وقد أعياه التعب والحرّ. رفع ضاري عينه ورأى متعب فقفز من الخوف واقفاً، لكنّ منظر متعب المستسلم لمرآه جعله يشعر بالخجل، فجلس مدارياً خوفه

ومتحلّياً ببعض الشجاعة، متمنّياً أن لا يسمع متعب صوت دقّات قلبه الخائفة.

قال متعب:

- وش تأكل؟

بلع ضاري لقمته وقال:

- فول.

قال له:

- اطلب لي مثله.

حين جاء صحن الفول أكل منه لقمة ثم قال:

- تعرف يا ضاري هذي أوّل مرّة أدخل فيها قهوة وآكل فيها صحن فول. الأكل في القهاوي في سلومنا عيب، تعرف وش معنى العيب؟

ابتسم ضاري بمرارة ثم قال:

- كل الناس تدخل القهاوي وتأكل فول، أنت اللّي حارم نفسك.

عرف أنّ ضاري لن يكون مثله ابن صحراء متقشّفاً، فقد جاء المدينة صغيراً، وابن المدينة يتعلّم مبكراً كيف يلهو، فليس وراءه قطيع غنم يرعاه منذ الصباح، ولا بطن يقرقر من الجوع في المساء.

***

قرّر متعب أن يشارك صفيان محلاً لإعداد الولائم، ويترك لضاري محلّ بيع الأشرطة الغنائيّة، فقد كبر ضاري، وأصبح بالإمكان أن

يعتمد عليه. لم ينهِ ضاري دراسته، لكنّ وضحى لم تتوقّع أن يكون أبناؤها من المتعلّمين، فالرجل عندها من يكدّ ويتعب ويتزوّج ويرعى عائلته، لذا فإنها لم تفهم لماذا عاتب متعب ضاري حين عرف أنه لم يتقدّم لامتحانات الثانويّة.

قال له متعب:

- ألا يكفي أنا المتعثّر فيكم عشان أرعاكم؟

قال ضاري:

- اعتبرني أنا متعثّراً أيضاً، وش يضرّ؟

ثم أضاف:

- الفلوس اللّي يدخّلها علينا المحلّ تكفينا.

صار ضاري يحبّ الجلوس في المحلّ مع مساعده عليّ، ويحبّ ذلك الوقت الذي تأتي إليه فتاة ممتلئة القوام اسمها وردة تصحب معها رفيقتها بنفسج. عرف لاحقاً، وبعد أن مشّطت الأغاني بينهما طريقاً من الأشواق والمزاح، أنهما تعملان مغنّيتين في الأعراس النسائيّة، وكلّما دخلت وردة المحلّ صاح ضاري:

- عليّ، رح جب لنا بارد.

تسأله وردة عن كلّ الأغاني التي تفتّش عنها، لكنه يحبّ أن يسألها عن حالها هي أكثر. يسألها عن سلمى ومبروكة وباقي أعضاء فرقتها، فتخبره بقصص عن عوا لم يعرفها لأوّل مرّة. وذات مرّة أخبرها أنه يودّ أن يفتح بيتاً للأفراح خاصّاً بها كي تغنّي فيه مثل أمّ كلثوم، ولا تذهب لأحد. فقهقهت وردة طويلاً وقالت له:

- ومَن سيحضر؟

ردّ ضاري:

- أنا لحالي، ما يكفّي؟

أحبّت وردة مزاحه، لهذا صارت تمرّ عليه كلّ يومين وتأخذ منه الأشرطة التي تريد ولا تدفع له شيئاً غير القهقهة والمزاح، وأحياناً تترك يدها التي ترتخي فوق طاولة الخشب رشوة مقابل كرمه، فتزحف يد ضاري وتهبط فوقها، ويشعر بها تنتفض تحت كفّه مثل قلب يتأوّه.

(٨)

بعد وصولهما من الطائف عادت عطوى وأمّ جزاع إلى الدكّان في سوق الحريم، فشاهدت مزنة التي تكبرها بقليل، بقامتها التي تطول عنها قليلاً وصوتها الأكثر جرأة وروحها التي تجيد اقتحام المكان والحديث، مزنة التي عاشت في السوق لم تكن تكبرها إلاّ بأشهر، لكنها تفوقها بما يثير فضول عطوى ويحبّب إليها صحبتها. طلبت منها أن ترافقها في نزهة خارجاً حيث تحبّ أن تطلق شهابها وتنثر دلالها في عيون رجال السوق الذين تمرّ بهم فوافقت فوراً.

مشتا في طريق يشقّ سوق الحريم شمالاً، ثم انعطفتا إلى دكاكين الفضّة الجنوبيّة، حيث الطريق الأقصر الذي يقود إلى الشارع العامّ بدلاً من الدوران حول مقدّمة السوق والمرور ببسطات الحريم كلها. منحتا ظهريهما لأقفاص طيور السوق الضاجّة في أسرها، وأصوات الباعة المتشابكة في جدلها. مدّت مزنة يدها وأمسكت يد عطوى، وما إن شعرت عطوى بحرارة يد مزنة ولدانتها حتى سحبت يدها بفظاظة، فهي لم تتعلّم بعد مؤاخاة أجساد الفتيات، لكنها حرصت أن تضع كتفها قريباً منها كي تشعر بالأمان. لا يزال جسدها يتدرّج في سلّم

الملامسات، لم تألف بعد هذه الملامسة المكشوفة دون غطاء. تشعر مزنة بقرب عطوى، لكنها لا تكفّ عن البحث عن كفّها كي تمسك بها مرّة أخرى وتحتضنها، فمزنة على عكس عطوى تعلّمت من أمّها أنّ القرب الحميم بين الصديقات لا يكتفي بالصوت المسموع، ولا بدّ من أن يتمدّد باللمس والشعور بحرارة الجسد ونعومة اليد، دون شهوة، بل بمحبّة عميقة، فالملامسة بنت الأخوّة. لا تنتبه مزنة إلى روح عطوى النافرة، التي لا ترتاح لهذه الملامسات، ولا إلى قامتها التي تتصلّب حين تجرّها مزنة وتقبّلها، مطلقةً صوتاً مسموعاً للقبل المتبادلة بحماس، ومثلما تفعل النساء وهنّ يتبادلن القبلات على الوجنات في خضمّ سلام حارّ، تكتفي عطوى بمنح خدّها بقوّة وكأنها تصطدم بمن يقابلها، فتشعر مزنة أحياناً بعظم خدّ يرتطم بوجهها ويؤلمها أحياناً. مدّت مزنة يدها وسحبت يد عطوى مرّة أخرى، فتركت عطوى يدها لثوانٍ وعادت تسحبها.

مشت الفتاتان حتى دكاكين الشارع الشهير بزينة السيّارات وبضائع الرجال من أقلام ومسابح وأحذية وقمصان رياضيّة، ومن بين هذه الدكاكين ظهر دكّان ضاري الذي تجمّع حوله فتيان يدخّنون السجائر ويتمازحون ويضحكون.

عرفت مزنة أنّ ضاري يضبط جماحه عند مشاهدته فتاة تصحبها، ولهذا أحضرت عطوى مثل رشوة تطفئ بها غضبه، وجاءت كي تحقّق طلب عزيزة بأن تحضر لها أغاني سلامة العبد الله وشريطاً لطلال مدّاح.

أطفأ ضاري سيجارته حين شاهدهما، ودخل الدكّان حتى لا

يكتشف أحد من رفاقه أنها أخته. سيظنّون أنهما زبونتان.

وقف ضاري خلف الطاولة صامتاً ينظر إليها. فرفعت مزنة الغطاء عن وجهها وكذلك فعلت عطوى، عندما نظر ضاري إلى الزائرة الجديدة، وجدها مثل الفتيات العاديّات ببشرة تميل إلى الاسمرار وعينين سوداوين صغيرتين وأنف دقيق بأسنان صغيرة أيضاً، لكنها حين تبتسم تظهر غمازاتان في وجنتيها مثل ثقبين يملّحان وجهها. وقد أعجبته تقطيبة فوق عينيها قد تجعل الشابّ يفرّ منها خوفاً، لكنها بعثت في نفس ضاري تحدّياً محبّباً لنفسه منذ صار يخالط الفتيات.

طلبت مزنة الشريطين لعزيزة، وسألت عطوى إن كانت تحبّ أن تأخذ لنفسها شيئاً. هزّت عطوى كتفيها متجاهلةً، فمدّ لها ضاري شريطاً وقال لها:

- خذي هذا الشريط، هديّة من المحلّ.

ابتسمت عطوى ونسيت أن تشكره. وضعت مزنة الشرائط في حقيبتها بينما أبقت عطوى الشريط في يدها، وقرّرت أنها في المرّة المقبلة ستشتري حقيبة تخصّها وحدها، تضع فيها الأشرطة، وستشتري أحمر شفاه أيضاً كما تفعل مزنة وباقي الفتيات.

تعلّمت عطوى مثل البنات أن تسمع الأغاني، لكنها لا تفهم النوع المليء بالنواح والسهر والبكاء على الحبيب الغائب، بل أحبّت الأغاني ذات الإيقاع الهادر بقرع الطبول الراكضة في عجل وصخب، فهذه الطبول تطلق دفقات فرح في دمها وفي رئتيها وتشحن رجليها بطاقة غريبة وبرغبةٍ في الرقص. لقد كانت هذه الطرقات الخفيفة للإيقاع

تذكّرها بأغاني قريتها التي كانت تسمعها في مساءات بعيدة، وتتذكّر خطو الأقدام التي كانت تصاحبها، وحين حضرت يوماً عرساً مع ضيوف العمّة صيتة وشاهدت البنات يرقصن أحبّت رقصهنّ، وصارت ترقص حين تجد نفسها وحيدة في بيت أمّ جزاع، وحين اجتمعت بالفتيات في القصر لاحقاً تعلّمت أن ترقص أمامهنّ دون خجل.

رحّب ضاري بزيارة مزنة لدكّانه وأبدى تسامحاً ظاهراً معها، بل ودلّها على أغانٍ جديدة وصلت حديثاً، ثم صار لاحقاً يسألها أن تُحضر معها صديقتها بنت أمّ جزاع. وفي المرّة الثالثة جهّز لعطوى شريطاً كتب عليه رقم هاتف المحلّ وكتب عليه اسمه.

حين حضرت مزنة مع عطوى حرص أن يضعه في يدها وقال:

- إن شاء الله تعجبك الأغاني لأني اخترتها بنفسي.

شعرت عطوى أنّ حروف ضاري ليست خالية من التلميح، فرسمت تقطيبتها القاسية التي أحبّها ضاري وزادتها سحراً، ثم سحبت منه الشريط وهو يلمس أصابعها فقالت له:

- وجع.

كانت ملامسة شابّ غريب أكثر وجعاً على أصابع عطوى من حرقة سوط عمّها جهم، فارتعش لها جسدها، وكرهت هذا الشعور، وانفتقت رغبة غامضة في جوفها مثل وجع سمعته في كلمتها حين قالت: وجع!

ضحك ضاري، وقدّر أنها ردّة فعل فتيات شاهدهنّ قبل عطوى، لكنها لا تعني له شيئاً سوى أنها قد فهمته.

قالت الأغاني لعطوى ما كان يريد ضاري أن يقوله، التغزّل بوجنتيها وعينيها، وسهر الليل الموحش دون حبيب، لكنها لم تعرف هذه الأرقام التي تركها ضاري لها. وحين عرفت أنّ ضاري يريد الحديث معها على الهاتف استغربت، فما حاجته للحديث عبر الهاتف طالما هي تمرّ عليه في السوق. لقد كان الحديث بالنسبة إليها واحدة من قدرات كامنة في روحها لم تتعلّمها بعد.

في الليل حين يصمت الشريط وتمسح إسفنجته بقايا ندى الكلمات تستيقظ الأنثى في جوف عطوى، وتهطل الذكريات الحارقة في قلبها، تتذكّر ذلك الوقت القريب الذي كانت فيه صبيّاً اسمه عطيّة، والوقت الذي صار يبتعد لا يمهلها كي تفهم هذه المشاعر التي حاصرها بها صبيّ آخر مثل ضاري، والذي يناديها باسمها الذي كادت تنساه: "عطوى".

لا تذكر عطوى منذ متى كانت تلبس قميصاً ومئزراً وعمامة قطن بيضاء على رأسها، كما يفعل الصبية في قريتها، لكنها وجدت نفسها هكذا في السوق مع زوج والدتها جهم. لا تذكر أنها امتلكت ثوب فتاة إلاّ وهي صغيرة، وحين مزّقته أغصان الشجرة وهي تلعب في حقل الرمّان ضربها زوج أمّها وربطها يومين في الشجرة ذاتها، وظلّت تبكي خائفة من صوت الريح البعيدة وحفيف الأشجار التي كانت تصبّ في أذنها تراتيل لم تفهمها. وحين استفاقت في الليل على دفء بولها بين فخذيها، سمعت صوتاً يشبه صوت والدتها يقصّ عليها قصّة الفتاة التي اختبأت وسط جذع شجرة وطارت مع فتاها الوسيم، ثم سمعت صوت أخيها الرضيع يصدر مناغاة ويزبد

بشفتين صغيرتين فقاعات وينفخها، وحين عادت للنوم استمرّ الحلم يتناسل في أحلامها. عرفت عطوى منذ ذلك اليوم أنّ والدتها قد سكنت الريح والأشجار مع طفلها الوليد وتركتها، فكبر حنقها على والدتها التي تركتها وحدها مع جهم، الرجل ذي البنية الضئيلة بأسنانه السوداء، لا يطعمها إلا كرّاثاً وخبزاً.

على سلسلة جبال سوداء يتسلّق رجال قريتها ذاهبين إلى الصيد، ويذهب بعضهم إلى بطن مدينة مترف محملين بالحوائج والرغبات، ويهبط منها رجال يحملون معهم شباك صيد وقحافاً مليئة بسمك كريه الرائحة لم تذقه قط. تسمع أنّ وراء هذه الجبال بحراً وعربات تسافر بعيداً، لكن لم يذهب أحد ممّن تعرفهم ويخبرها عمّا رآه، وكلّ الرجال الذين تعرفهم في هذه القرية هم جهم زوج أمّها.

تعمل معه في سوق القرية المفتوح من الصباح حتى مغيب الشمس. يستيقظ هو قبل أن ينقشع الظلام ويخرج مع أذان الفجر، وحين يعود من الصلاة يلكزها بقدمه قائلاً:

– الفلاح الفلاح يا عطيّة.

لا تعرف من هذه الحياة سوى السوق. وفي الطريق إليه تشاهد صبية ورجالاً ونساءً يذهبون إلى الحقول، وبعضهم يذهبون إلى الجبال لقصّ الحجارة، وتشاهد عربة يجرّها حمار، عليها عجائن الأعلاف والبرسيم الكبيرة، وتشاهد صبية السوق يضعون بضائعهم في مقدّمة الدكاكين وعلى جوانبها، بينما يتوزّع الصنّاع في الطرقات المفتوحة، بعضهم يدقّون بطون القدور والدلال ويصقلون نحاسها، وآخرون يدقّون سكاكين طويلة وأخرى قصيرة، ونساء متفرّقات

يسِفنَ السلال والزنابيل وقبّعات الخوص، وبعضهنّ يجلسن أمام سلال تمتلئ بالبهارات والحنّاء وقشور الرمّان والمستكة، وبعضهنّ يبعن الثياب والجلود. وباعة الحيوانات يحبسونها في أقفاص صغيرة وصناديق، أو يربطونها بحبال قصيرة قرب مكان تجمّعهم. جميع مَن في السوق يعرفها بعطيّة. وحدها سعدى، السيّدة الكبيرة في السوق، تناديها عطوى وتعطيها قليلاً من الخبز اليابس، وبعض فواكه جافّة من التين والرمّان تحضرها معها من الحقل البعيد الذي تسكن بجانبه.

جلس جهم زوج أمّها على عجلته يصنع من الطين أباريق وجراراً، في حين ذهبت هي كي تحضر الطين الجافّ الذي أشبعه المطر، وجففته الشمس وانتفخ. ذهبت إلى حافّات الجبال، شقّت طريق البساتين، ثم مشت في أثر شجر الأراك الممتدّ على جوانب الطريق، تباري شجر السدر، وأكلت من النبق الذي تتركه الأشجار في طريقها، وتظلّلت أفياءها التي تحجب عنها ضوء الشمس الحارق، أمّا النبق فقد تخلّل بحنان بين أغصان الشجر وكأنه يريد أن يلقي التحيّة فقط ويتفرّج. قفزت عطوى جذلاً بالحياة، ووضعت الطين في قفّتها وحملته على رأسها، ومشت به حتى السوق، ثم وضعته في أحواض الطين وصبّت عليه الماء وتركته أيّاماً.

تركها حين وصلت وذهب لأداء مهمّته، ومشى متّجهاً نحو سلسلة الجبال المتوسّطة الارتفاع التي تحجب الفضاء والمدينة كي يجمع بقايا جذوع النخل اليابسة التي ترمي بها مياه الوديان، أو تجرجرها رياح قوّية، وتجفّفها الشمس حتى تفرغ ما في جوفها. حين عاد، ألقى

بهذه الأخشاب في جوف الفرن. ثم دخلت عطوى غرفة الحرق بجسدها الصغير فوضعت الجرار الجافّة. عاد جهم وأشعل النار فيها. أخذ اللهب يطوّقها ثم يبتلعها في التحام أحمر ساخن مهيب، ما لبث أن انكشف عن جرار قويّة تبتسم في وجهها، وهي تنفض عنها الرماد، كأنها خرجت للتوّ من معركة ظافرة.

حاول جهم أن يعلّمها صبّ الطين على العجلة المدوّرة، لكنّ قدمها الصغيرة كانت بعيدة عن الأرض. وحين كانت تحاول أن تصلها كانت يداها تقصران عن طاولة الصبّ، لهذا تركها جهم أوّل الأمر تحمل الطين وتصفّ الجرار، لكنه كلّ شهرين يقيس طول قدميها حتى بلغت التاسعة، فأوقفها فوق العجلة، وأخذ يدلّ يديها على الدوران مع قوائم الطين التي تبزغ بين يديها كلّما داست بقدمها العجلة وتتطاول، وحين تفلت من يدها مرّات يلسعها جهم بسوطه الذي يلامس قدمها، فتقفز من حرارته إلى الأعلى، ويسقط الطين من بين يديها. اعتادت مع الوقت أن لا تترك عروس الطين من يدها، وأن تتوافق مع رقصة الطين التي أحبّتها، وأصبحت لعبتها الجديدة ودهشتها الوحيدة في يومها الطويل. وحين يداهمها النعاس في ساعات الفجر الأولى تدوس على العجلة بسرعة حتى تصحو، ثم تعود تبطئ ثم تبطئ، ثم يرقد جفناها على حافّة أصوات السوق حتى تسمع صوت سوط جهم يلسع قدميها.

عاشت عطوى بقدر قليل من خبز جافّ وبقايا تمر يابسة يتركها لها جهم في الظهيرة قبل أن يذهب للصلاة. لكن سعدى تناديها وتفتح لها آنية تمر طريّ وتسقيها من اللبن البارد الذي تضعه في إناء خضّ

اللبن وتصنع منه زبداً. ولولا تمر سعدى ولبنها لماتت. وقبيل الغروب تأخذ بعض الحبوب التي تساقطت من حجري رحى سعدى تضعها في جيبها وتقضمها وهي في طريق العودة، حتى تنتفخ معدتها وتهدأ قرصات الجوع فتنام.

لم تحبّها المرأة الجديدة التي جاءت إلى بيتهم. دخلت المنزل دون أن تنظر إليها كأنها لم ترها. تعلّقت عينا عطوى بظهرها وهي تمشي نحو غرفة المنزل الوحيدة. كانت امرأة متوسّطة القامة، عريضة الكتفين، دخلت وهي تحمل سلّة فوق رأسها، هي كل ما حواه جهاز عرسها، فوضعتها في الغرفة الصغيرة الوحيدة، ثم خرجت تتجوّل في الفناء، واضعةً يدها فوق خصرها، حتى وصلت عند عطوى، حدّقت كلٌّ منهما في الأخرى بجسارة كأنّ كلّ واحدة تقيس مدى قوّتها في مواجهة الأخرى. نظرت عطوى في وجهها المربّع وفكّها الكبير، لاحظت أنّ عينيها متقاربتان كأنّ بهما حولاً، ولها أسنان متفرّقة، تنفرج شفتاها ويتقدّم فكّها للأمام. لكزتها المرأة الغريبة بقدمها قائلة:

- وخّري عن طريقي يا قردة.

فزعت عطوى عندما سمعت جملتها. سرى في رأسها غضب محموم. قرّرت أنها لو سكتت لها فإنها لن تتوقّف أبداً. قفزت عليها، تعلّقت برقبتها وهبطت بها إلى الأرض، وعندما دخل جهم وجدها فوق عروسه وتعضّها من رقبتها، فما كان منه إلاّ أن لسعها بسوطه على ظهرها وفخذيها. شعرت بلهيب يشقّ جلدها ويزرع طعمه حرّاقاً بداخله. في ثوانٍ سريعة قفزت عطوى وركضت. اختبأت

تلك الليلة تحت كروم العنب في بستان "أبو فرج" بعيداً عن منزلهم حتى نام جهم. و لم تعد تسمع له صوتاً.

تخرج كلّ يوم منذ الفجر فلا ترى هذه العروس التي لم تسمع جهم يناديها باسمها أبداً، و لم تقل لهما في تعارفهما الذي بدأ بالعراك ما اسمها، ولا تعرف ماذا تفعل في غيابهما، لكنها صارت عند عودتهما تشمّ رائحة خبز وبصل تفوح من بيتهم. يدخل جهم غرفته حيث تقدّم له عروسه الطعام وينام، تاركاً إيّاها تنام تحت مقدّمة المنزل المسقوفة بأغصان الشجر والخوص، وحين توقظها قرصات الجوع تزحف إلى دكّة المطبخ ذي الجدران الواطئة، المفتوح على الفناء، فتشمّ بقايا القرص المخبوز بالبصل تنبعث من القدر. تضع يدها في الظلام وسط الإناء وتحكّ جوانبه، وحين تضع ما يخرج في أصابعها في فمها تشمّ رائحته اللذيذة، فيسيل في فمها لعاب يختلط بالخبز، ويقرقر بطنها سعيداً بهذه الوجبة النادرة.

تعلّمت عطوى في السوق صنع الجرار والأواني، وجهم فوق رأسها يراقب حركات يديها وفي يده السوط يضربه في الأرض حين تتباطأ، أو ينحرف العجين قليلاً في اتّجاه خاطئ، لكنها لم تعد تخاف السوط. إنها تفتح عينيها بفرحة كبيرة. تلاحق عيناها العجين يتطاول، ثم تضغط قليلاً باتّجاه خاصرته، ثم تفتح به أفقاً كي يكبر ويكبر ويكبر، وتنتهي عرائسها بجرّة ذات خصر نحيل وعجيزة كبيرة وصدر مفتول. عرف جهم وهو يرى يَدَيْ عطوى تتفنّن في نحت الطين أنها أعجوبة وقعت عليه من السماء يمكنه الاعتماد عليها، فقد بدأت عظامه تشكو تصلّباً بعد زواجه، فعروسه تمتصّ كلّ ليلة دماءه وترهقه بطلباتها.

تريد أن تطبخ كلّ يوم قرصاً ولحماً، وتريد أن يجلب لها من السوق حنّاء وبهاراً، وتطلب في العيد كسوة من قماش وشرشفاً أصفر تزور به جارتها، وهو الذي لم يعرف منذ ولدته أمّه كيف يُخرج قرشاً ويمنحه لأحد، فكيف بزوجة خرقاء تبذّره في السوق ثمن بهار وحنّاء. وعطوى التي عاشت معه تسع سنين لم تكلّفه شيئاً، فهي تلبس ممّا تجده من الصدقات، ولا تعرف أبداً معنى لثياب الفتيات ولعبهنّ التي لم تعد تحتاجها منذ لبست ثياب الصبيّ. قرّر جهم أن تصبح عطوى صبيّاً حتى يمنّ الله عليه بصبيّ من عروسه القويّة التي ترهقه في الليل والنهار، بعدها سيعيد عطوى إلى دورها كفتاة تخدم زوجته وتساعدها. تصنع عطوى في النهار ضعف ما كان يصنعه من الجرار والقدور، وحين يغفل نهاراً عنها يجدها وقد صنعت أشكالاً غريبة تلعب بها أو تبيعها للصغار. ثم صارت تقلّد ما تراه في السوق فتفرد الطين وتصنع منه إناءً مسطّحاً وإبريقاً ومبخرة وقضيباً لضرب الطعام، تبيعه للنساء. وراحت عطوى تحتفظ ببعض النقود في جيبها أو تخبّئها حين يكون جهم بعيداً عنها، لكنها لا تستطيع أن تشتري بها شيئاً، سيضربها جهم لو عرف أن بيدها نقوداً و لم تعطه إيّاها.

جلست عطوى بعض الوقت قرب سعدى تتفرّج عليها وهي تصنع الزبد واللبن المجفّف، وتقلّب بين يديها ورق الحنّاء والسدر والغار، وتشمّ أواني البهارات الملوّنة حتى تعطس. وحدها هذه السيّدة تعاملها كفتاة حين تسحب منديل القطن الذي تلفّ به رأسها، ثم تجرّها في حضنها تمشّط شعرها. وتغنّي لها أغنية قديمة تتغنّى بشعر الفتيات الطويل، والعاشق الذي يتلصّص على معشوقته ليرى لون الزعفران

الذهبيّ المرسوم في مفرق شعرها، ويشمّ رائحة الحنّاء والورد المعجون في ضفائرها. لا تضع عطوى في شعرها زعفراناً ولا حنّاء ولا ورداً لأنّ شعرها كلما طال قام جهم بقصّه، لكنها شمّت هذه الروائح قرب أنفها وهي تجلس بين يدي سعدى، فظنّتها آتية من شعرها بينما هي تفوح من سلال سعدى المفتوحة في وجوه الباعة.

لا تضرب سعدى يد عطوى، كما تفعل زوجة جهم، حين تمدّها إلى إناء التمر الذي انزاح غطاء وجهه قليلاً، فظهرت التمرات تلمع في قلبه، تتركها تأكل منها، وتمدّها بقطع من اللبن المجفّف الحامض الذي تبيعه.

يلمع ألق الحياة في وجنتي عطوى التي قاربت الشحوب كلّما زاد الوقت الذي تمضيه مع سعدى، لكنّ جهم حين يعود من جولاته لبيع جراره خارج السوق، ولا يراها في الدّكان يصرخ بصوت ترتجف له فرائصها وهي تسمعه ينادي: "عطيّة يا عطيّة خذوك العفاريت".

في العاشرة صارت عطوى فتاة في ثياب صبيّ حتى أن زملاء السوق لا يذكرون اسمها القديم، وظلّت شهرتها بعطيّة تلاحقها حتى في المنزل. ونسيت الفتيات في القرية أنّ لهنّ جارة صغيرة اسمها عطوى.

أنجبت "عفرة" زوجة جهم ولدين لكنهما لا يفارقان حضنها حتى أصابت جهم الغيرة وربّما الضجر من انشغالها بهما. و لم تعد تهتمّ إلاّ بإطعامهما وتنظيف مؤخّرتيهما والركض خلفهما خوفاً من أن يقعا في البئر. لم يعد جهم يجد عشاءه كلّ مرّة في القدر، وبردت رائحة الخبز الطازج، لأنّ عفرة تغيب عند جارتها، تأكل عندها من عصيدة

التمر بالدقيق والسمن، وتسقي طفليها من حليب ماعزهم الذي تحضر بعضه معها حين تعود. كلّما دخل البيت وخلفه عطيّة، فتّش في القدر فوجده فارغاً، وصرخ باسمها، تسمعه من خلف الجدار المجاور، وتهرع إليه، يسألها عن الغداء فتقول:

- ما طبخنا، الدقيق خلص، واللبن شربوه الأولاد.

يلحقها جهم كي يضربها، فتحرّر يديها من طفليها وتهرب راكضة. وحين يقبض عليها يشدّها من ضفيرتها. تضع رأسها تحت زنديها مثل مالك الحزين وهو يتّقي قدره، ويهبط جهم بكفّيه يلسعها على يديها وعلى رأسها، ثم ينحني إلى حذائه فينزعه من قدمه ثم يضربها به حتى تكلّ يداه، أو تهرب منه وتترك صغيريها يبكيان.

التفت نحو عطوى وقال لها:

- حضّري فراشي فوق السطح. ثم غاب وعاد ومعه طعام من حليب وتمر جلس يأكله وحده. صعدت عطوى إلى سطح الغرفة الصغيرة، ثم رشّت أرضها بالماء ومدّت الفراش الكبير لعفرة وجهم، وفوق السطح المجاور بسطت فراشها وفراش الصغيرين معاً حيث تدفن رأسها معهما وتشمّ رائحة بولهما وحليبها، فتظنّها رائحة الأخوّة الجديدة.

في ذلك المساء شاهدت في ضوء قمر شاحب جسدَي جهم وعفرة وهما يتخاصمان، هو يرفع جسده فوق عفرة ثم تدفعه عنها، فيلطهما ثم يسحبها من ضفيرتها ويشدّها نحوه ثم يزحلق نفسه عليها، يفرك جسدها في الأرض وحين يهبط عنها، يضرط ضرطة كبيرة ويتوسّد يده وينام.

مرّات عديدة تعود فيها عطوى وجهم من السوق ولا يجدان رائحة الخبز ولا يجدان عفرة، لكن هذه المرّة طال غيابها. انتظرها جهم أيّاماً فلم تعد، وحين ذهب لأهلها في القرية المجاورة وجدها عندهم، رفضت أن تعود معه حتى حلف أمام إخوتها أن لا يضربها، وأن يحضر لها دقيقاً وخمس دجاجات كي تربّيها وتطعم أطفالها من بيضها. قبلت عفرة بوعود جهم سريعاً، لأنها عرفت أنها لو جلست أكثر فإنّ إخوتها سيعيدونها غصباً دون دجاجات، والأيّام التي قضتها مع إخوتها في منزلهم الصغير الضاجّ بالأطفال كانت مثل الجحيم، فتاقت نفسها لتركه والعودة إلى منزل زوجها حتى لو جاعت.

عادت عفرة ومعها أربع دجاجات فقط كانت ثمن ترضيتها، وصارت تفوح من المنزل رائحة جديدة تعرّفت عليها عطوى لأوّل مرّة، رائحة البيض المطبوخ. فالدجاجات توفّر طعاماً جديداً لعطوى لو أنها استيقظت مبكراً قبل الجميع، وسرقت بيضة ووضعتها في جيبها تطبخها في الفرن الذي تطبخ فيه جرارها.

فرحت عطوى باللعب مع أخويها الصغيرين، لكنّ عفرة لا تتركها دائماً تفعل، وتتعمّد أن تكدّر عليها لعبها، إما بمعايرتها بثياب الصبيّ التي تلبسها، أو برائحة الزيت الذي وضعته لها سعدى في شعرها. تعرف عفرة أنّ عطوى ليست ابنة جهم بل ابنة زوجته المتوفّاة، لهذا تضيق بها ذرعاً، لأنهما يربّيان ابنة ليست لهما، تسميها ابنة الجان، وتكرهها لأنها تلازم جهم طوال الوقت مثل ابن له، وتحلم أن يكبر ولداها ويحلاّن محلّها، وأن تعود عطوى لتصبح فتاة تخدمها

وتطبخ لها وتساعدها على تربية الصغار. لكنّ جهم يأخذ عطوى لخدمته، ويتركها وحدها في المنزل دون مساعدة. شغلت نفسها طوال نهارات عديدة تفكر في التخلّص من نغص هذه الفتاة، وتمنّت لو ترسلها إلى عذابات الحياة، وتراها متزوّجة من رجل مثل جهم يجوّعها ويضربها.

كانت عطوى تسمعها وهي تحدّثه كلّ يوم وتدور حوله، تذكّره بأنّ أولادها يكبرون وأنهم هم الذين يجب أن يذهبوا معه إلى السوق. لامته وذكّرته بأنّ الوقت قد حان كي تنزع عطوى ثياب الصبيّ وتجلس في المنزل أو تذهب إلى بيت زوجها. تنبّه جهم أنّ عطوى ليست صبيّاً فتكدّر، وفكّر بأنّ عطوى قد تكفّ عن مساعدته في السوق، فغضب من عفرة وشتم أفكارها التي تشبه أفكار الشياطين، لأنها توسوس له وتذكّره بهذه الحقيقة، وحين زادت بإلحاح أنّ عطوى ستكبر وتتركه عاجلاً أم آجلاً لطمها على فمها قائلاً:

- أنت حرمة مجنونة، الله يكفينا شرّك.

نسيت عطوى كلّ هذا وهي تصنع مجسّمات الطين التي تخرج بين يديها مثل خلائق صغيرة، وتكبر بين يديها مرّات، وتصغر مرّات. تحدّت جهم وفاجأته بأن صنعت زيراً كبيراً لتبريد الماء، احتاجت أن تقف على قدميها كي تصل إلى أعلاه. ضحك جهم ولأوّل مرّة تراه يضحك، أعجبته يداها وتمنّى لو أنها ولده، أو أنّ عفرة تكفّ عن تذكيره بأنها ليست سوى فتاة في ثياب صبيّ.

اشتكت عطوى، وهي تأكل تمرات الضحى عند سعدى وتشرب معها قشر القهوة، من عفرة وخطّتها الجديدة لسجنها في البيت.

مسحت سعدى ضفائرها بزيت النارجيل قبل أن تلفّ عطوى المنديل حول رأسها وقالت لها:

- مهما طال الوقت وأنت عطيّة سيجيء وقت وتصيرين عطوى، لا تخالفي خلقة ربّي يا بنتي.

أوّل مرّة تسمع فيها أحداً يذكّرها بالله، وبأنّ مخالفته قد تغضبه، فكّرت في أنها لم تعرف شيئاً عن الله، و لم تذهب إلى المدرسة، و لم تتعلّم القرآن. جاءتها هذه الفكرة الغريبة. ظنّت أنّ الله يظهر للناس الذين يعرفونه ويحدّثهم، وأنه يهملها هي لأنها لا تقرأ القرآن ولا تصلّي مثلهم، وتمنّت لو أنّ والدتها عاشت كي تعلّمها كيف تصلّي.

ذات صباح طلب منها جهم أن تلزم المنزل، وأن لا تخرج منه، لأنّ ضيوفاً سيحضرون بعد صلاة العصر ويأخذونها. لم يكن من عادات جهم أن يتركها يوماً في المنزل ويذهب.

تسلّقت عفرة سلّم الطين وأطلّت على جارتها ودعتها لزيارتهم قالت لها:

- عطوى ستتزوّج اليوم من ابن عمّي.

لقد تحقّقت أمنية عفرة، ستتزوّج مثلها رجلاً يجوّعها ويضربها ويشدّها من يدها ويفرك جسدها في الليل.

أقبلت سيّدة سمراء من جارات عفرة تسألها إن كانت العروس قد تحمّمت، ثم قامت إلى إناء نحاسيّ كبير وملأته بالماء، ثم نادتها وهي تصفّق بيديها وتغني: "تعالي يا عروس".

قفزت عطوى من سلّم المنزل الطينيّ، إلى منزل جيرانهم الذي انكشف أمامها دون جدار، ثم هبطت في قلب حقل البطّيخ الأحمر

الذي ظهر من بين عروق الأرض، ودخلت في زقاق ضيّق بين جدران البساتين. ركضت عطوى، وهي تسمع عفرة تلحقها مناديةً إيّاها:

– يا عطيّة ارجعي، والله ليذبحك جهم.

قفزت عطوى جداراً قصيراً إلى بستان كبير، وركضت حتى وصلت إلى آخر عريشة عنب فيه، زحفت تحتها وقلبها يدقّ وأنفاسها تلهث. جلست في وسطها طوال الليل تفكّر.

كلّ ما عرفته عطوى من هذه الدنيا خمسة بساتين منتشرة في قريتها ودروبها الضيّقة التي تنفرج بعضها عن عرائش العنب وأشجار الرمّان الصغيرة. وقد سمعت بأنّ خلف تلك الجبال الصخرية التي تحجب الشرق بحراً وحيتاناً وسمكاً. رأت رجالاً يدخلون السوق يحملون شباك صيدهم، ويلفّون أوساطهم بأُزُرِهم ويربطون عمائمهم، وتعلو وجوههم سمرة وفي محيّا كلٍّ منهم سماحة ولين حديث وابتسامة، لهذا فهي تظنّ أنّ العالم خلف هذا الجبل الذي خلف قريتها لا يخيف، وهي تعرف رجاله أكثر من نسائه بسبب السوق، لهذا فإنها تعرف كيف تمضي حياتها بينهم أكثر من حياة النساء. لا تملك من قاموس الكلام سوى كلمة حاضر، وعليكم السلام، وبعض الكلمات التي تصبّ في ساقية الإذعان والموافقة. تخاف اليوم من ذلك المصير الذي سيقذفها به جهم بمساعدة عفرة؛ فرغم قسوة العيش معهما إلاّ أنها تظنّ أنّ الحياة ستكون أقسى لو أنّ رجلاً مثل جهم أصبح زوجها.

في الليل سمعت عطوى صوت جهم يناديها ويدعو الله أن

يأخذها، ثم يهدّدها بأنه سيسلخ جلدها ويعلّقه على الشجرة، كما سمعت صوت حفيف ثياب نساء انتشرن، يحملن سراجاً وينادين:

- يا عطيّة يا بنتي، بياخذونك الجنّ ابنة لهم، عودي.

لم تخف عطوى من الجنّ، فقد علّمتها سعدى كيف تصاحبهم بالتعاويذ والغناء، كما علّمتها أن تحمل في يدها عصا خفيفة تضرب بها رأس كلّ شجرة تمرّ قربها أو غصن فيهابها الجنّ ويظنّون أنّ جبّاراً مرّ بأرضهم فيختبئون. تضحك عطوى حين تفعل ذلك وهي تخترق بساتين العنب والسفرجل والرّمّان في قريتها. تضحك وتتخيّل الجنّ مختبئين خائفين منها. تمنّت عطوى لو يظهر لها جنّيٌّ تحدّثه ويسلّيها. تمنّت لو ينتفخ جذع الشجرة ويطير بها كما في حكايات سعدى، لكنّ دموعها فرّت رغماً عنها حين سمعت صوت والدتها وهي ترضع طفلها وتغنّي له، ولا تسمعها هي الوحيدة الجالسة هنا يحجبها سواد الليل عنها. عاد الحنق يملأ صدرها من جديد، فقرّرت أن تهجر هذا المكان الذي يحمل صوت أمّها التي هجرتها وتبتعد عن جهم وعفرة وولديها. تمنّت لو تمرّ قبل أن ينجلي الليل وتخنقهما كي تتعذّب عفرة وتبكيهما طويلاً.

مثل وحش صغير تفلّتت عطوى من أسرها وشدّت مئزراً أزرقَ فوق خصرها الناحل، ولفّت رأسها بفوطة بيضاء من القطن الخفيف مثل عمامة. شعرت أنها حرّة لكنها لا تعرف أيّ طريق تختار، فقرّرت مثل وحوش البرّيّة أن تتبع غريزتها.

قبل أن تشرق الشمس زحفت عطوى على يديها وخرجت من حقل العنب، شقّت الحقول حتى وصلت إلى حقل البطّيخ الأحمر

حيث تدفن جرّتها الصغيرة، عند الجدار الملاصق لمنزلهم، خرجت فأرة صغيرة من ثقب في الجدار. راقبت عطوى الفأرة التي تمشي بأمان، وحسدتها على طمأنينتها وهي التي لا تملك إلاّ جحراً. حفرت الأرض ثم أخرجت جرّتها الصغيرة وحملتها بين يديها ومضت.

في آخر القرية تجمّعت شاحنات صغيرة ينشر أصحابها بضائعهم المؤقّتة في سوقٍ لا يُقام إلاّ كلّ يوم سبت، في حين وقفت شاحنتان كبيرتان. لمحت صبيةً في مثل سنّها يقفون على رأس الشاحنات، يصيحون بأسماء أماكن بعيدة تسمع بها للمرّة الأولى: "الطايف، الرياض، المدينة". دارت حول السيّارات، تتأمّل وجوه الرجال الغرباء، لا تشبه الوجوه التي تشاهدها في السوق، لحاهم أطول وثيابهم أطول، غابت المآزر وبقيت الثياب البيضاء والصفراء، شاهدت رجلاً يضع سواكاً في فمه ويبصق عن يمينه. قبل أن يتحدّث ينظر نحوها بريبة وترقّب. توجّست قليلاً، وبردت أصابعها الممسكة بجرّتها ففرّت من نظراته إلى الجهة الأخرى.

حامت حول السيّارات كأنها تنتظر قدرها أن يقودها، شاهدت نساء وأطفالاً فتبعتهم، اتّجهوا نحو صندوق الشاحنة الحمراء، دخلت وسطهم، شعرت بالأجساد تدفعها، فتركت نفسها في دفء موجهم. شعرت بجسدها خائفاً ومتصلّباً، لكن يداً امتدّت وسحبتها نحو جوف الشاحنة، كانت يد الصبيّ الواقف على حافّة الباب المفتوح يساعد الصغار والعجائز على ارتقاء الحافلة. وجدت نفسها فوق سطح لوح خشبيّ طويل يفصل صندوق الشاحنة إلى قسمين. يقبع

أسفله قطيع من الماعز، بينما جلس النساء والأطفال فوق اللوح في النصف المكشوف للهواء بصحبة حقائب من جلد وصناديق من حديد، يسندون ظهورهم على مكعّبات القشّ اليابسة والأعلاف الطريّة.

(٩)

اجتمعنا في غرفة واحدة نأكل فيها وننام، ونشعل مدفأة مزوّدة بالكهرباء. صقلت أمّي دِلال القهوة النحاسيّة بالزيت حتى عاد لونها الذهبيّ يلمع، ومسحت بطون أباريق الشاي الملوّنة، ثم صفّتها فوق رفوف الموقد الشتائيّ من جديد. ووضعت الفحم المشتعل داخل حوض مستطيل من نحاس مصقول، ثم جلست تعدّ القهوة لها ولأبي.

تدعو أمّي جاراتها من أجل قهوة الموقد الشتائيّ، فيتحلّقن حوله، بينما ينفث الجمر دفئه ورائحته في المكان. ترمي أمّي، حين تزورها جاراتها، قطعة من البخور في الجمر فتفوح في المنزل كله رائحة شذيّة مميّزة، وتغرقه برائحة لا نشمّها عادة إلاّ حين يزورنا أحد، أو في غرفة أبي مساء الخميس.

بعد مساء سهرة شتائيّة، كنت أطفئ آخر ضوء بقي في المنزل، وأترك ضوء النيون الأبيض في مدخل المنزل مضاءً كالعادة، حين سمعت طرق الباب الحديديّ. تذكّرت أنّ فوّاز لم يعد، وأنني قد أغلقت الباب. لكنّ الطرقات القويّة الجسورة هذه ليست طرقات فوّاز، فعادةً فوّاز يخفّف الطرق حتى لا يفطن لعودته المتأخّرة أحد.

اقتربت من الباب الحديديّ، بحذر وضعت أذني خلف الباب وأخذت أصغي وأنا أسأل:

- مين؟

جاء صوت شابّ مليء بالحبور:

- أنا إبراهيم.

ثم قال بلهجة مصريّة:

- ما تفتحي يا بت.

فتحت الباب وتعلّقت برقبته وقبّلته، وأنا أقول:

- إبراهيم، أخوي.

قبّلني إبراهيم وهو يضحك، ويسألني:

- وين أبوي؟ نايم؟

سمعنا صوت باب يفتح سريعاً، ووالدي يركض من الغرفة، يسأله:

- وش فيه؟

شاهد أبي شابّاً نحيلاً يلبس بنطالاً وقميصاً تفوح منه رائحة حلوة، لكنها ليست رائحة الليمون. شاهدت لمعة طفحت من عينه، قال:

- إبراهيم.

ثم نادى أمّي قائلاً:

- يا نورة إبراهيم جاء.

صباح الجمعة كان مختلفاً هذه المرّة. جلس بيننا علاء الدين، جاءنا ببساطه السحرّي. هبط علينا من السطح، لا نعرف كيف، فهو يودّعنا من البيت، ونستقبله في البيت، لا نعرف كيف يذهب، وأين يغيب عنّا عاماً، وماذا يركب؟

نسمعه يتحدّث مع أبي عن الطائرة، وعن الكلّيّة، وعن الشوارع في مصر والخيّاطين والطلبة القلّة الذين يدرسون مثله في مصر. فتح إبراهيم حقيبته الجلديّة الكبيرة، وأعطى والدي معطفاً رماديّاً ببطانة ذهبيّة لامعة، وقدّم لوالدتي قماشاً مزيّناً بالورود الحمراء والزرقاء والسيقان الخضراء، مثل ثياب فاتن حمامة وهند رستم، وأعطى فوّاز فانيلة كرويّة كان قد طلبها منه، مطبوعاً عليها اسم فريقه، ومجلّة تحمل صور أبطال فرق الكرة العالميّة، وأعطى لإخوتي الصغار ثياباً جديدة، ثم مدّ عواطف بحقيبة مكسوّة بفرو ناعم من جلد منقّط كجلد النمر، ثم أخرج من الحقيبة آخر الهدايا، حذاءً ذهبيّاً بكعب عالٍ تدمغ باطنه قطعة صغيرة من قماش كتب عليها بالعربية: "صنع في مصر".

مدّ الحذاء نحوي وهو يبتسم لي.

شهق قلبي، أعرف هذا الحذاء جيّداً، يشبه الحذاء الذي تلبسه سعاد حسني، الكعب نفسه من الفلّين الرفيع من الأمام والعريض من الخلف. هذا الحذاء هو ما كان ينقصني. مهما لبست مثل سعاد حسني، ومهما لوّنت وجهي بالأصباغ فإنني لا أكون سعاد حسني إلاّ بهذا الحذاء. الآن صرت أشبهها تماماً. هذا الحذاء هو العلامة الفارقة بيني وبين باقي الفتيات. لا يستطعن أن يلبسن حذاءً صُنع في مصر، وتلبس مثله سعاد حسني. وضعت قدميّ في الحذاء، وتعجّبت كيف ناسب مقاسهما تماماً، كيف يعرف إبراهيم مقاس قدمي؟ لأوّل مرّة أشاهد قدميّ. كنت دائماً أعتقد أنّ قدميّ خلقتا فقط للمشي، لذا لم أعرهما أبداً أيّ اهتمام. إنهما مجرّد دوّاستين تأخذانني إلى المكان الذي أريد، لكنني حين وضعت الحذاء في قدميّ اكتشفت أنهما جميلتان،

وقد جعلني الحذاء مثل فتاة فقيرة حسناء مهملة اكتشفها أحد الأمراء وجعل منها أميرة. هذا الخيال قادني لأتذكّر شيئاً مهمّاً بالنسبة إليّ. إنهم يسمّون سعاد حسني سندريلا الشاشة العربيّة، وأنا أيضاً اليوم أصبحت سندريلا بحذاء ذهبيّ جديد.

دخل إبراهيم بعد أسبوع من قدومه، وطلب من والدتي وأخواتي أن يتركن الطريق أمام الرجال خالياً. أخذتنا أمّي كلنا إلى المطبخ، وتكوّمنا فيه.

تحلّق أبي وفوّاز وبقية الصغار حول موظّف الحكومة والعامل الذي معه.

سأل العامل:

- أين نركّب الهاتف؟

قال أبو إبراهيم:

- في مجلس الرجال.

دخل الرجلان إلى المجلس القريب من الباب الخارجيّ، مدّدا أسلاكاً، وتركا هاتفاً وكتاباً أصفر، وألصقا شريطاً على الهاتف يحمل خمسة أرقام.

ركضتُ وعواطف، حين خرج الرجلان، نحو الجهاز الجديد، لمسته. كان هاتفاً رماديّ اللون بقرصٍ يدور حول عشرة أرقام من الصفر وحتى الرقم تسعة. حملت السمّاعة، وضعتها على أذني، وقلت:

- وحياتك تدّيني مصر.

قال إبراهيم:

- كيف كنتم تعيشون دون هاتف؟

صار الهاتف، ولوقت طويل، مثل ضيف غريب، استقبلناه في مجلس الرجال، لكننا تركناه يجلس وحده هناك. عاملناه باحترام شديد مبالغ فيه، فصار لا يدقّ إلاّ نادراً، ولا يعرف استخدامه إلاّ الرجال، وظلّت أمّي تتجنّبه مثل رجل غريب، وتنهانا عن الردّ عليه خوفاً من أن يكون المتّصل رجلاً من أصدقاء "أبو إبراهيم" فيسمع صوتنا المحتجب. لذا فأوّل من يهرع لرنين الهاتف النادر في المجلس كان الأطفال، إذا ما سمعوا رنينه بالمصادفة البحتة. لكن ذات يوم وقعت الفأس في الرأس. دقّ الهاتف وقد كنت للتوّ انتهيت من الحديث مع صديقتي في الفصل نعيمة، فرفعت السمّاعة. سمعت صوت صديق أبي "أبو فهد" يسأل عن والدي، سلّم عليّ سلاماً طويلاً، وسألني من أكون من بنات أبي إبراهيم؟ فقلت له: أنا عزيزة، سألني كيف هي مدرستي وهل أنا شاطرة وذكيّة كما يقول أبي عنّي، فقلت له: نعم، فضحك. سألني عن أبي، فقلت إنه غير موجود. مرّت بالقرب منّي والدتي فسألتني:

- مَن؟

كان هو لا يزال يحدثني فقلت لها:

- أبو فهد.

أمسكت رأسها مرتاعة، وهي تقول:

- ورددتِ عليه؟ وكلّ هذا الحديث معه؟

قلت لها:

- والله يمّه ما كنت أدري أنه عمّي أبو فهد.

من يومها بدأت أمّي تعاملني وكأني فتاة فقد صوتها عذريّته، وأنا تركتها تعتاد على أنني ابنتها التي لم تعد تخجل من الردّ على الهاتف، فقد أخطأت لكنّ خطئي حرّرني من أسر الفتيات المحتجّبات عن الردّ على الهاتف، لا أفهم لماذا. أقول لها:

- والله يا يمّه هذا عمّي، يعني زيّ أبوي بالضبط.

نادراً ما دقّ الهاتف الوحيد الجالس بعيداً في مجلس الرجال، إذ لا أحد يتّصل إلاّ صديقتي نعيمة وأبو فهد. لم تتغيّر حياتنا كثيراً بسببه. لكنّ عواطف كانت أكبر المستفيدين منه، فسعد الذي لم يدخل الهاتف منزلهم مثلنا، لأنّ والده لا يعرف أحداً في مصلحة الهاتف، عرف بهاتفنا، فاتّفق معها أن يذهب كلّ يوم خميس إلى منزل صديق له يمتلك هاتفاً، ويتّصل بها من عنده، بعد العاشرة. يدقّ دقّة واحدة، ليتأكّد أنها تجلس بجانب الهاتف تنتظر، ثم يعود يتّصل مرّة أخرى، فترفع هي السمّاعة قبل أن تكمل دقّتها الأولى. لا يمكن أن يدقّ الهاتف دون أن ينتبه إليه أحد، أو يعرف الجميع من الذي يتحدّث من خلاله.

بعد عام ونصف العام صار الهاتف واحداً من العائلة، نستخدمه أكثر من الماضي. كثيرون صارت لديهم هواتف. موضي جارتنا وحسينة جارة أمّي، وحتى عويشة أمّ سعد صار لديهن هاتف. تعوّدت أمّي أن تحدّث جاراتها فيه كلّ ضحى بدلاً من زيارتهم، لهذا نقلناه إلى غرفة أبي ليكون أقرب إلينا، ثم إلى مجلسنا العائليّ، ثم صار يتنقّل معنا في الغرف الخاصّة، وصار لكلّ منّا وقت من النهار يمضيه في الحديث على الهاتف، صار كلّ من يريد أن يتحدّث فيه ينزع السلك ويحمله إلى غرفته كي يحظى بمكالمة لا يقطعها عليه أحد. لم يعد يفزع أمّي

أن تردّ على الهاتف. صارت هي أيضاً تردّ على سلام أبي فهد وأبي جاسر، صديقَي أبي، حين يتّصلان تردّ على سلامهما بحياء، لكن بفضول يتوق للتعرّف إلى صوت أصدقاء زوجها الذين لم ترهم أبداً، وصارت تسأل أبي حين يعود، وتقول له:

- أبو فهد اتّصل بك.

ثم تزيد:

- كم عند أبو فهد من العيال؟

وأبي يجيب بلا مبالاة وأحياناً يقول:

- لا أعرف.

جلس إبراهيم معنا في المساء، وأمّي تعدّ شاهي الزنجبيل بالليمون وتسكبه لنا بحنان، ثم تضع حبّات الكستناء فوق الجمر، فنسمع طقطقات قشرها يتفتّح في رماد الموقد. وحين دخل والدي غرفته لينام، غمز إبراهيم لي بعينه، ثم أخرج من حقيبته "السمسونايت" صورة كبيرة لفتاة بيضاء لا تشبه سعاد حسني، لكنها تشبه صفاء أبو السعود، وقال لأمّي وهو يبتسم:

- انظري، هذه صديقتي.

نظرت والدتي إلى الصورة، وهي تضحك ثم قالت:

- أنت تكذب. هذه ممثّلة.

سحبت الصورة من يد أمّي وحدّقت في فتاة طويلة تلبس بنطلوناً رمادياً وقميصاً أحمر، وشعرها كستنائيّ اللون، وقلت:

- جميلة صديقتك يا إبراهيم. ستتزوّجها؟

حين لم تصدّقه أمّي أخرج صورة أخرى، وهو يجلس مع الفتاة

على طاولة، وأمامهما كأسا عصير، تماماً مثل نور بنت العمّ عكاشة وصديقها في مسلسل "الليل الطويل". نظرت أمّي إلى الصورة ثم رمتها على حضنه، وقالت:

- لا إن شاء الله، ولدي إبراهيم عاقل، ما ياخد إلا بنت بلاده.

أعاد إبراهيم الصورة إلى حقيبته، وقال ضاحكاً:

- إذا لقيتوا لي مثل هالقمر ما عندي مانع.

عاد إبراهيم إلى مصر مرّة أخرى عندما انقضت إجازته، وعدنا ننام في غرفة الشتاء مجتمعين.

الصعود إلى السطح صار لافتاً للشكّ، لا أحد يصعد إلى السطح في يوم بارد تهبّ ريحه المربعانيّة تشقّق جلودنا من شدّة بردها، لكننا نصعد في ظهيرة يوم الجمعة ننشر الغسيل. أنا وعواطف نتسلّل كلّ ظهيرة لنرقب ظهور جناح طائرها الأخضر على الجدار، الذي تباعد وزاد غيابه. كنت وحدي في تلك الظهيرة حين رأيتها. أزحت طرف السّجّادة، أسرعت وشددتها ثم قلت لسعد أن ينتظر. هبطت ركضاً أخبر عواطف كي تصعد إلى السطح، وجلست مع أمّي أشاغلها وأحقّق كل ما تطلبه كي لا تكتشف غياب عواطف. شاهدت عواطف تتناول شرشف صلاة وتضعه على رأسها قبل أن تصعد إلى السطح، وحين سألتها لماذا؟ قالت إنّ سعداً قد طلب منها أن تغطّي وجهها عنه، لأنه حرام.

فكرت في نفسي: "هل كانت ليلى تغطّي وجهها عن قيس؟".

عادت عواطف من سطحها، مضطربة تحاول ابتلاع دموعها بقتل الأسئلة.

قالت لي عواطف بقلق إنّ سعداً قد تغيّر. لم يعد ذلك الشابّ المرح القديم. وقد طلب منها أن تتخلّص من الصور في منزلنا حتى تدخله الملائكة، وأن تكفّ عن الاستماع إلى الأغاني حتى لا يصبّ الله في أذنها حديداً مصهوراً. وحين سألتها عن سرّ تبدّل سعد، قالت لي إنه صار يذهب مع جماعة في حيّ سكيرينة ويتعلّم منهم الدين الصحيح، ويقول لها أيضاً إننا نعيش فتنة كبيرة ونعيش في ضلال مبين سيعاقبنا الله عليه عاجلاً.

وعدته عواطف، وهي تشعر باضطرابه، أنها حين سيتزوّجان لن تسمع الأغاني وستصبح مثلما يريد تماماً، لكن في بيتنا سيكون ذلك صعباً عليها، فأبي يحبّ سماع الراديو، والراديو مليء بالأغاني، وهي تحبّ أن تسمع نجاة الصغيرة، وعزيزة تحبّ سماع صباح، فصحّحت لها:

– أنا أحبّ عبد الحليم حافظ يا غبيّة.

لم تسمعني عواطف. كان الموضوع على ما يبدو أكبر ممّا أظن، لأنها ظلّت منشغلة في الحديث مع نفسها، لكن بصوت عالٍ تحدّثني، لكنها لا تسمعني.

قالت وكأنها تحدّث نفسها:

– إنها مجرّد أغانٍ ما ضرّني لو سمعتها؟

لكنها عادت وقالت:

– وما ضرّني لو لم أسمعها طالما هو يريد ذلك؟ إنها مجرّد أغانٍ.

في ظهيرة الأسبوع التالي تسلّلت إلى الدرج، وصعدت إلى السطح، فوجدت السجّادة الخضراء ممدودة بين الجدارين، وحين سحبتها قليلاً،

علامةً على استلام العلامة، قذف سعد برسالة، وقال:

- تأخّرت على الصلاة.

ثم ذهب.

تسلّلت بحذر وأنا أهبط الدرج، وجدت عواطف تفتح باب غرفتنا نصف فتحة، وتضع شرشف صلاة على رأسها بانتظار إشارتي، لكنني منحتها نظرة واجمة، فظنّت أنّ سعداً لم يأتِ.

دخلت الغرفة ثم سحبت يدها، ووضعت الرسالة في يدها. قرأتها، ثم بكت.

مدّت إليّ الرسالة، ثم قالت:

- اقرئي. سعد أبو المفاجآت.

فقدت عواطف مرحها هي الأخرى، أصبحت تصلّي كثيراً، كانت لا تريد فقط أن يرضى عنها الله بل أن يرضى عنها سعد. لم تعد تشاركنا بهجة قضاء المساء والسهرة في الفرجة على التلفزيون، صارت تشاهد البرنامج الدينيّ بعد صلاة المغرب .

زارتنا أمّ سعد بعد يومين. جلست بجانب أمّي التي أعطت عواطف دورها وراء موقد الجمر. تحبّ أمّي أن تظهر بناتها خبيرات بشؤون المنزل. تقول أمّي لأمّ سعد:

- إنّ البنت التي لا تجيد شؤون البيت لا رجاء فيها، فمن يقبل أن يتزوّج فتاة كلّ ما تجيده القراءة والكتابة؟

فتنعطف أمّ سعد بالمديح على عواطف:

- الله يحرسها ويبارك فيها، عواطف ما في مثلها بين البنات!

صنعت عواطف القهوة بإتقان وصبّتها لأمّ سعد وأمّي، بينما أنا

أفتح رواية رومانسيّة ألاحق صراعات أبطالها مع الحبّ في الركن المجاور، وأستمع إلى الأحاديث تارةً، وتارةً أقرأ في الرواية.

أوّل مرّة أنتبه إلى الشبه بين أمّ سعد وابنها سعد. أمّ سعد هي أقرب جارات أمّي. اسمها عويشة، لكنّ الجميع ينادونها أمّ سعد، واحدة من عينيها تستقرّ على سوادها نقطة بيضاء، تجعل نظرتها مثل نظرة شبح، غائمة، أو كأنها تترقّب الفرار. وعلى وجهها بقع قديمة من آثار الجدري. لا تبتسم إلاّ نادراً ولا تضحك. وحين تفعل تضع يدها على فمها وتطرق نحو الأرض خجلاً وتستغفر الله. وضحكتها لها نهاية مميّزة تشبه صوت يد تفرك الزجاج. تبدو واجمة طوال الوقت، تستطيع أن تشعر بوجومها في قامتها، فهي طويلة، لكنّ رقبتها تتدلّى دائماً على صدرها. ظننت في البداية أنه الخجل، لكنني لاحقاً بدأت أرى أنّ طاقتها ضعيفة على الحياة. لا تملك القوّة لترفع رقبتها بشموخ أو فضول أو فرح. عقلها يبدو وكأنه بلا قاع، ما يسقط فيه يذهب بعيداً بلا صدى، ليس لديها ما يسعدها أو هي هكذا تبدو، لها ولد وحيد هو سعد، زوجها يبيع الخضار في سوق عتيقة. تزوّج أربع مرّات باحثاً عن أبناء، وعندما ولدت له أمّ سعد سعداً اكتفى به، ولم يعد يفتّش عن مزيد، فهو يعرف أنه هو السبب وليس زوجته. لكنّ زوجته ظلّت عشرات السنين تفتّش عن دواء يزيد خصوبتها، ويمكّنها من الحمل مرّة أخرى. أخبرها الأطبّاء أنها لا تشكو من علّة، فأصبحت العلل تداهمها، مرّة على شكل هبوط في الضغط، ومرّة خفقاناً في القلب، ومرّة في شكل صداع نصفيّ.

كلّما زارتنا أمّ سعد تكون قد عادت لتوّها من عيادة الطبيب. مرّة

تقول إنّ قلبها ضعيف، ومرّة تقول إنّ في كليتها حصوة، ومرّة تقول إنّ صداعها يتزايد. تدور أمّ سعد في عالم من الشكوى، وكلها شكوى من الجسد، وحتى عندما قامت أمّي لشأن من شؤون المنزل و لم تجد سواي، حدّثتني عن أمراضها. ومن باب المجاملة حدّثتها أنا الأخرى عن صداعي، ففرحت. لقد وجدت أخيراً من يعاني مثلها واطمأنّت. اكتشفت أن لا حديث بيني وبينها إلاّ عن الأمراض. ثم قالت أمّ سعد بسعادة، وكأنّ باباً جديداً للألم قد انفتح، إنّ سعداً وضع التلفزيون في مجلس الرجال، وغطّاه بسجّادة صلاة و لم يعد أحد يشاهده، وإنّ سعداً أحياناً إذا سمعها وهي تفتح الراديو، ومرّت أغنية ونسيت أن تقفل الراديو يلومها كثيراً.

تتبع أمّ سعد تعاليم سعد وكأنه سيّدها، لا لأنها تعتقد بصحّة ما يقول، لكنّ تعاليمه توفّر لها مزيداً من العذاب، وهي تحبّ أن تتعذّب. تحبّ أن تصوّر نفسها ضحيّة ضعيفة لا تملك من الأمر شيئاً. تمتدح دائماً المرأة المطيعة التي لا تجادل ولا تخاصم. تذكّرت أنّ عواطف تشبه أمّ سعد قليلاً، لهذا ربّما أحبّها سعد، فقد لاحظت أنّ الفرح الباقي في شخصيّة أختي عواطف بدأ سعد يقضي عليه. أمّ سعد تشعر على الدوام بالذنب، ذنب لم تفعله، لكن من الممكن أن تقع فيه، لولا أنها تسمع الكلام وتتبع الأحاديث. ولو سألتها عن نوع الذنب أو الخطر الآتي لقالت إنها لا تعرف، لكننا يجب أن نحذر الفتنة المقبلة.

لم تكن أمّ سعد تحتاج سوى دودة صغيرة من التحذير حتى تلعب في رأسها، وتجعلها تخاف من كلّ ما يمكن أن يأتي ويسرق طمأنينتها.

حدّقت أمّ سعد ذلك المساء في عواطف طويلاً تراقبها بعناية وكأنها

تراها لأوّل مرّة. فطنت عواطف إلى نظرات أمّ سعد فزاد خجلها.

مالت أمّ سعد على أمّي، وقالت:

- ودّنا نخطب عواطف لسعد.

تركت عواطف دلّة القهوة من يدها، ونهضت مطرقة وجهها في الأرض خجلاً، لكني لم ألحقها. جلست أنتظر ردّ أمّي. هذه مهمّتي عادة، فالمجنّدة المخلصة لا تترك موقع المراقبة في اللحظات الحرجة.

أطرقت والدتي قليلاً حائرة ومتفاجئة، ثم قالت:

- العلم عند أبوها.

عاد والدي إلى المنزل، وتعشّى كعادته قرب موقد الجمر، وهو يشاهد نجاة الصغيرة تغنّي على مسرح كبير، ويجلس قبالتها كبار الشخصيّات في مصر، ويصفّقون لها عند انتهاء كل وصلة غناء.

جلست أمّي بجانبه تبتسم وهي تقول:

- طبعاً، جات الحبيبة صار ما لنا قيمة!

يلتفت أبي وهو يبتسم، ويعالج غيرتها بحنان:

- أنت عندي بأربعين نجاة.

نظرت إلى أمّي فوجدتها تغمز لعواطف أن تخرج. خفت أن تخرجني أنا الأخرى فتظاهرت بالنوم، وأنا أتمدّد أمام التلفزيون، وأضع رأسي فوق المسند. خرجت عواطف. التفتت أمّي نحو أبي، وقالت:

- أمّ سعد خطبت عواطف اليوم.

ابتسم أبي، وقال:

- الولد صغير، لا شهادة ولا وظيفة، من اللّي بيصرف عليهم؟ أبوه؟

- لكن الولد عارفينه وعارفين أهله.

- بيرزقها الله واحد أحسن منه.

سمعت أمّي تهمهم مستسلمةً وتقول:

- أنت أبوها وعلمها معك.

نهض أبي، ونهضت أمّي خلفه، ثم دنت منّي، وقالت لي وهي واقفة فوق رأسي:

- عزيزة، قومي نامي في فراشك.

تظاهرت أنني أصحو على صوتها، ثم عدت إلى غرفتنا. كانت عواطف تدور في الغرفة، وتقشّر جلد شفتها السفليّة بأسنانها. نظرت نحوي، وعيناها على اتّساعهما، حاولت أن تقرأ وجهي.

فهززت رأسي علامة عدم الموافقة.

ارتمت عواطف على السرير، ودفنت وجهها في المخدّة، وأخذت تبكي.

نصحتها:

- فكّري في خطّة.

شهقت عواطف:

- أقول بلساني إني أبغي سعد؟ أفضح نفسي يا خبلة؟ الموت ولا الفضيحة.

- على هونك يا فاتن حمامة.

قلت وكأنني أتخيّل أحداث فيلم:

- عواطف ليش ما تنحاشون؟

صرخت عواطف:

- بس، بس يا عزيزة، أنا ناقصتك.

لم تجد عواطف تلك الليلة أيّ أمل بالنجاة، فقدت كلّ أمل، لم أعد أسمع سوى تنهّداتها.

قلت لها وكأني أضع الخاتمة في نهاية الفيلم:

- كل أنواع الحبّ عذاب، حبّ الجار وحبّ صاحب الدكّان، هذا سعد صار مثل عيسى. مستحيل.

(١٠)

هبّت نسائم الصيف من جديد، لكن هذه المرّة بدون سعد وبدون ضحكات عواطف القصيرة والسريعة. نظرت عواطف مراراً ناحية السطح، لكنّ السجّادة الخضراء لا تظهر أبداً. عواطف تفكّر أنه قد يحدث شيء قويّ كأن يعيد إيمانها سعد إلى سيرورته الأولى بريئاً وشفّافاً، ويحبّها كما أحبّها في الصيف الماضي. دخل الهاتف بيت أمّ سعد، لكنه لم يكلّمها منه سوى مرّتين، حديثاً قصيراً وبارداً، انتهى سريعاً، وتركها بعد أن قال: الله يكتب لنا الصالح، أنت تريد والله يفعل ما يريد.

بدا سعد أكبر من عمره، بل بدا لعواطف أكبر من والدها، متجهّماً وجادّاً ويفتعل الحكمة والمعرفة أكثر ممّا يبدو عليه الشباب. في الأماسي التالية اتّصلت به مرّات، لكنه لا يردّ.

تعاتب أمّي أمّ سعد مرّات بأنّ هاتف منزلهم لا يردّ فتقول أمّ سعد إنّ سعد إذا انتهى من الهاتف ينزع سلكه. دائماً ما تجد الفيش وقد نُزع من مكانه.

وفي أحد الأيّام اختفى سعد، و لم يعد إلى منزله، قالت عنه أمّ سعد

إنه سكن مع جماعة في بيت من الطين، ليس فيه كهرباء ولا هاتف على طريقة السلف الصالح.

عادت عواطف إلى مسرح السطح متفرّجة صامتة، تتناسى أيّام السطح مع سعد، وتستعدّ لامتحانات المعهد الثانويّ لإعداد المعلّمات، فبعد شهر ستصبح معلّمة للمرحلة الابتدائيّة. كانت تودّ لو أنها لم تكمل شهادتها إلاّ في بيت زوجها كما كانت تدعو لها والدتها. استجاب الله لدعاء والدتها في الشهر الأخير من الدراسة، وزارتنا أمّ راشد وابنتها المراهقة حصّة وراشد ووالده. دخلوا المنزل وجلسوا في بيتنا يومين، وشاركتنا حصّة النوم في غرفتنا. لاحظت أنها لا تتحدّث كثيراً وتنظر إلينا بفضول شديد. وحين ندخل أنا وعواطف في حوار تحدّق فينا كالبلهاء، وعندما حاولت أن أشاركها بعض الحديث عن التلفزيون وبرامجه لم تفهمني. سألتها:

- هل تشاهدين التلفزيون؟

قالت:

- ما عندنا تلفزيون.

فتحتُ خزانة ملابسنا وأظهرت لها حذائي الذهبيّ، وعندما رأته دُهشت، قالت لي:

- ما هذا؟

قلت لها:

- حذاء.

قالت:

- وكيف تلبسينه؟

وضعته في قدمي، وقمت أمشي أمامها أقلّد طريقة سعاد حسني، وأغني "يا واد يا واد يا تقيل يا مجنّني". ضحكت ووضعت يدها على فمها. لا تضحك حصّة أبداً ولا تبتسم إلاّ وهي تضع يدها على فمها، لاحظت أنّ فمها حين يبتسم ينحرف إلى اليسار، بينما عضلات وجهها على الجهة اليمين تبقى جامدة. فقط عضلات وجهها اليسرى هي التي تتحرّك قالت:

- أجرّب الحذاء؟

مددت الحذاء إليها فلم تعرف كيف تضعه في قدمها. ساعدتها بإدخاله في قدمها، ثم نهضت لكنها مالت قليلاً، واستندت على كتفي، وقالت إنّها ستسقط، أمسكتها من يدها اليمنى، ومشيت معها، وهي تمشي سعيدة، وتقول:

- أشعر أنني أمشي على جبل.

وحين سحبت يدي من يدها سقطت وتكوّمت على الأرض ورحنا نضحك. لكنها هذه المرة لم تضع يدها على فمها، بل استلقت على قفاها، وأخذت تضحك كالمجنونة، وهي تمسك بطنها بيديها، وترفس برجليها، فينحسر ثوبها عن ساقيها.

في صباح يوم الخميس خرجنا جميعاً إلى السوق. سيأخذنا هذه المرّة راشد، وستكون فرصة لعواطف لتتفحّص راشد الشابّ القريب منّا وابن عمومتنا. أنا وعواطف ووالدتي وحصّة وأمّ راشد سنركب معه سيّارته. راشد شابّ ممتلئ، ووجهه مدوّر كصحن، عيناه ضيّقتان تشبهان عيني والدته، وأرنبة أنفه مدوّرة أيضاً، وفمه الصغير يحيط به شارب ولحية مدوّرة. سمّيته الرجل المدوّر فلكزتني

عواطف خوفاً من أن تسمعني أخته حصّة التي تتابع حركاتنا وسكناتنا بفضول شديد.

ركبنا في صحن "بيك آبه" هذه المرّة، وما إن استقرّينا في بطنه حتى شاهدنا "بيك آب" الآخر مقبلاً مع صاحبه نفسه الذي حملنا منذ عامين إلى السوق. "بيك آب" سعد توقّف عند بابه. فتعلّقت عينا عواطف به، وأنا أيضاً رحت أنظر إليه في عجب. خرج منه سعد بهيئة مختلفة، وجهه تغيّر. عيناه تشبهان العينين اللتين شاهدتهما في عراكه مع ذلك الشابّ الذي غازلنا في السوق. عينان ملؤهما التجهّم والغضب، وقد أطال لحيته دون تهذيب، ولبس ثوباً قصيراً يصل إلى منتصف ساقيه. عندما رآنا أطرق رأسه في الأرض وأدار ظهره ناحيتنا ليتحاشى النظر إلينا. وقبل أن يدخل منزل والديه رفع نظره سريعاً ليلقي نظرة خاطفة علينا، نحن الفتيات في سيّارة راشد التي يراها أوّل مرّة، وكأنه يفتّش عن هيئة عواطف التي نسيها.

دخلنا تحت أروقة السوق المسقوفة، فهبّ نسيم بارد نفثته مصدّات الهواء. انفجر ضوء الذهب في عقوده الكبيرة واصطفّت الأساور الذهبية وسط أنابيب طويلة وضعت داخل واجهات الدكاكين، ولمعت سبائك الذهب التي افترشت صناديق العرض الزجاجيّة المقفلة بإحكام، واشتعلت أضواء الكهرباء الصفراء فوقها لتزيد من لمعانها وتسرق الألباب. تحوّل السوق إلى عرس ذهبيّ خلب عقول النساء اللاتي توزّعن على دكاكينه، وأشعل شهوة الشراء في قلوبهنّ، وارتفعت حمّى المساومات بلهجات قرى مختلفة لجوحة تقاطعها الضحكات. وقفنا خلف أمّ راشد وخلف أمّي التي سألت البائع عن سعر جنيه الذهب اليوم، ثم مدّت له

أساورها ليقيّمها بسعر البيع ويبادلها بأساور أخرى.

قال لها البائع:

- اختاري ما شئت ولن نختلف.

ثم عرض عليها أساور بزخرفة جديدة تشبه موطأ قدم حمامة، قال عنها إنها دقّة وضحى وابن عجلان.

نادتنا أمّي من خلف ظهرها وسألتنا رأينا، فوافقنا سريعاً مع بعض الشهقات المقنعة: "جميلة".

دسّت حصّة رأسها بفضول ونظرت نحو الأساور و لم تعلّق.

طلبت أمّ راشد من البائع أن يريها نوعاً من الخواتم المبرومة تجتمع في ثلاثة خواتم رفيعة متلاصقة، ثم وضعتها في إصبعها، وطلبت من البائع أن يزينها.

تركت أمّي يدها على طاولة الدكّان. مدّ البائع مقصّاً، ودون أن يلمس يد أمّي قصّ أساورها الذهبيّة ثم قام بخلعها، وعاد وأدخل يد أمّي في كيس من النايلون، ثم سكب على يدها سائل الشامبو فانزلقت عليه الأساور الذهبيّة الجديدة، إلى معصم والدتي، ثم سحب كيس النايلون لأعلى، تمت العمليّة ببراعة أدهشتنا جميعاً، وحصّة بنت أمّ راشد تغرس جسدها بين جسدينا بقوّة لتتفرّج بفضول على المشهد.

بعد أن انتهت عمليّة الشراء بين أساور أمّي وخواتم أمّ راشد، طلبت من أمّي أن نذهب لشراء ما يخصّنا، لأنّ أذان المغرب سيصدح، ونحن لم ننته بعد.

قالت لنا:

- خذوا حصّة معكم.

تركنا أمّي وأمّ راشد واتّجهنا نحو سوق الملابس الجاهزة. لاحظت أنّ حصّة كانت تمشي وهي تمسك طرف عباءتي بيدها خائفةً، قلت لها:

- وش فيك؟

قالت:

- أخاف أن يخطفوني.

- مَن هم؟

قالت:

- هذولا الرجاجيل الغريبين، شوفي وشلون يناظرونا.

ثم عادت وسألتني بخوف:

- وين راحت أمّي؟

قلت:

- إنّهنّ في سوق الحريم، ونحن الآن في سوق البنات.

أصاب حصّة شعور خليط بين الفرح والخوف، فهي مرّة تضحك دونما سبب، وتعلّق على وجوه الناس، وتهزأ بالأطفال، ومرّة تلتصق بي، ومرّة تقول:

- يمّه شوفي ذا الرجال مطوّل شواربه كنّه جنّي.

تنظر إلى البضائع بنهم، فقد بدا لها عالم تراه لأوّل مرّة. وقفنا أمام دكّان يبيع الحليّ المقلّدة من الخواتم والحلق والأساور. قلت لها:

- تشترين؟

نظرت إلى الحَليّ، قلّبتها بيديها ثم أعادتها، وأومأت برأسها أن لا.

مررنا أمام دكّان عيسى، نظرت إلى عواطف فوضعت يدها على رقبتها إشارة إلى أنها ستذبحني إن فعلت.

تجاوزنا الدكّان وأنا أقول في نفسي: حسناً ليس الآن. ستفضحنا حصّة بغبائها، لكنني عدت وأشفقت عليها، فهي مسكينة لم ترَ سوق الرياض من قبل، وعيسى واحد من بهجات السوق التي يجب أن تتعرّف عليها. لماذا لا ندخل؟ سحبتها من يدها بصمت حين وجدت عواطف منشغلة أمام واجهة دكّان قريب.

كان عيسى جالساً ووقف حين رآنا، سحبت يد حصّة وتقدّمت نحوه، وقلت:

- مساء الخير.

ردّ وهو ينظر نحو حصّة التي كانت تشدّ عباءتها حول عنقها، تكاد تخنق نفسها، قال:

- امُري.

قلت:

- وش تبّين يا حصّة؟

ظلّت حصّة تحدّق في وجه عيسى، وتؤشّر ناحيتي بإصبعها، لا. لا. وكأنّ عيسى لا يراها. أمسكت قطعة من الملابس الداخليّة، وهززتها في وجهها "هذي؟". ظلّت تحدّق في وجه عيسى وتؤشّر: لا. لا. دخلت علينا عواطف، وشاهدتنا على هذه الحال، فأمسكت يد حصّة، وشدّتها من يدها وخرجتا من الدكان. ابتسم عيسى وسألني:

- من هذه التي معك؟

قلت له:

- هذه ضيفة.

سألني وهو يضحك:

- تبدو قرويّة؟

ضحكت وقلت له:

- هي نفسها قرويّة.

أسعدني أن يقول عيسى عن حصّة إنها قرويّة، فقد أظهر هذا تميّزي عنده، وبدأت الثقة تتسلّل إلى نفسي. فقوله هذا يعني أنني متطوّرة، لكنّ فرحتي لم تدم طويلاً، فقد قاطعها دخول سيّدتين إلى المحلّ، رفعت إحداهما صوتها من عند الباب:

- وشلونك يا عيسى؟

نظر إليهما، وابتسم كعادته، وقال:

- تفضّلوا.

دخلت السيّدتان فعرفت أنّ وقتي قد انتهى. خرجت لأفتّش عن عواطف وحصّة. وجدتهما عند الدكّان المقابل. وقفت معهما نقلّب البضائع، حتى علا أذان المغرب فخرجنا.

عدنا إلى البيت، ركضت حصّة نحو والدتها تفتّش في مشترياتها، قلّبتها، وسألت والدتها مثل طفلة:

- هل اشتريت لي شيئاً؟

دفعتها والدتها بخشونة قائلة:

- وخّري عنّي. هذا شغل حريم.

انكفأت حصّة على نفسها، ثم نظرت ناحيتي، وعندما انتبهت أنني أراقبها أطرقت بخجل، ثم نظرت ناحية السقف.

أمّ راشد لا تشبه أمّي، فهي خشنة السلوك والمظهر، وعلى قلّة ابتسامها إلاّ أنّ فمها هي أيضاً ينحرف إلى جهة اليسار حين تبتسم.

تدور الكلمات في فمها وكأنها تعلكها. بدت جاهلة، تسأل أمّي كثيراً عن الأشياء التي حولها، وكلّ شيء تراه غريباً. وتعلّق على غرابته بجملة مرعوبة تقول:

- يا أختي هذي علامات الساعة قربت، الحديد يتكلّم، والحريم يظهرن في التلفزيون. الله يثبّتنا على طاعته.

في اليوم التالي أو لم أبي وليمة كبيرة لضيوفه، ودعا إليها الجيران. امتلأ البيت بالجيران والجارات. منذ الصباح الباكر والبيت يمور بالناس. جاءت وضحى ومعها بناتها، تحمل فوق رأسها قدراً كبيراً تتّسع لذبيحة، ثم شاهدتها تحمل الخروف من قدميه، وتدهنه بالزعفران. قطعت البصل والطماطم، ثم حين بدأت القدر تغلي طلبت منّا أمّي الخروج لأنّ المطبخ لم يعد يتّسع لنا جميعاً. كلّفتنا أمّي بصبّ القهوة والشاي للنساء. لازمت مزنة والجازي المطبخ لمساعدة والدتهما. كانت وضحى تقف فوق قدر الذبيحة تقلّبها كمن يعدّ وجبة صغيرة لشخصين وتضع عليها البهارات، وتأمر بنتيها بأن تغسلا نصف كيس من الأرزّ، قامت بسكبه في مرق الذبيحة بعد أن أخرجتها ودهنتها بالزعفران مرّة أخرى، ووضعتها فوق الأرزّ عندما جفّ ماؤه.

حين خرج الضيوف من الرجال استراحت أمّي ووضحى، وجلستا مع النساء، وبدأنا نحن الفتيات نغسل الصحون، ثم نسكب الصابون على أرض المطبخ نشطفه ونتزحلق، وما إن جاء المغرب حتى كان التعب قد هدّنا جميعاً، فصعدنا إلى السطح نفرش الفرش، ونكمل بقايا الأحاديث، ننشر أفراحنا وأسرارنا ونصادق حمام الفضاء.

داهمت عواطف لحظات شرود خطفتها من مرحنا. كانت تنظر

أحياناً إلى جدار أبو سعد، ثم تطرق في هواجس قصيرة. أضع يدي على رأسها مشفقةً عليها، وأقول لها: "اللّي واخد عقلك" فتضحك وتضحك معنا البنات. لا تفهم حصّة اللهجة المصريّة، لكنها تضحك، تشاركنا الضحك من باب التقليد. وشاركتنا مزنة والجازي وموضي وفاطمة بنت عمران ألعاب الفرش المعتادة، ثم قمت بمسرحيّتي المعروفة: وضعت الشرشف على حبل الغسيل، وحجبت نفسي عن الجمهور لأعدّ المشهد، وأعطي مزنة وموضي أدواراً قصيرة، طلبت من حصّة أن تشاركنا لكنها لم تفهم. فأجلستها أمام الستارة مع المتفرّجات، ونبّهتها:

– أنت فقط اجلسي وشاهدي.

لاحظت أنها لا تضحك إلاّ على حركات إسماعيل ياسين، فتركت تقليد عتاب وسعاد حسني، ورحت أقلّد إسماعيل ياسين. تضحك حصّة حين ترى البنات يضحكن، ثم تصمت فجأة، وتحدّق فيهنّ طويلاً، تتفرّس في شعورهنّ وثيابهنّ وحليهنّ، ثم تقبض بكفّها على ثيابها، وتضغط عليها بخجل.

عصر الجمعة ودّعنا ضيوف "الخرج" أمّ راشد وحصّة، قبّلتني حصّة وشدّت رأسي ناحيتها فأوجعتني. نظرت إليّ وعيناها تغرورقان دمعاً، ودّعتنا وذهبت. سمعتها تبكي وأمّها تدفعها أمامها. ركبت حصّة ظهر بيك آب فيما ركبت أمّ راشد وأبو راشد وراشد في مقدّمة بيك آب.

نظّفنا البيت من آثار الوليمة وتمدّدنا أمام التلفزيون.

عرفت أنّ راشد خطب عواطف وسيأخذها بعد الزواج معه إلى الخرج، وشاهدتها وهي تعوم فوق سطح بحيرة بلا قرار. طلبت من أمّي أن تمهلها حتى تصلّي صلاة الاستخارة.

استمرّت عواطف تصلّي أسبوعاً كاملاً، وتقول لوالدتي إنها لم تهتد بعد إلى قرار. ناداها والدي يوماً، وهو يجلس في غرفته، ثم حدّثها بحديث طويل عن الأقدار والنصيب، وأنّ الفتاة ستجد نفسها مهما طال بها الأمد في بيت زوجها، والأبناء زينة الحياة الدنيا.

قالت عواطف ردّاً على كلام والدي:

– اللّي تشوفه يبه.

تكفي عواطف كلمة من والدي لتصبح كائناً وديعاً مطيعاً لا يجيب إلا بكلمة حاضر. وجدت الأمان في حديثه الذي حثّها على القبول. سألتها بعد أن خرجت:

– وافقت؟

قالت:

– أبي يعرف كلّ شيء، وقال لي إنّ راشد ابن حلال، ويعرف قيمتي لأنه من أبناء عمومتنا.

قلت:

– وتعيشين في الخرج؟

فبكت.

لا تشعر عواطف بالخطر إلاّ حين أواجهها بأسئلتي، لكنها بدلاً من أن تحير جواباً تبكي، وحين أسألها عن سبب بكائها تقول إنها لا تعرف الجواب.

أنا أيضاً لا أعرف الجواب لو كنت مكان عواطف. فالأسئلة تخطر على بالي، ولا أجد لها جواباً، فتجعلني حائرة، والحيرة تعني أنّ هذه

الأمور لا تسعدني تماماً، كما لا يسعدني أن تخرج عواطف من بيتنا وتذهب بعيداً إلى الخرج.

قبل أسبوع من زواج عواطف ظهرت علينا في الصباح وهي سعيدة، قالت:

- حلمت البارحة حلماً.

قالت أمّي، وهي سعيدة بمرأى عواطف تضحك:

- خير اللّهمّ اجعله خيراً.

قالت عواطف:

- ظهر لي في حلمي رجل يشعّ من وجهه نور. لم أتعرّف على ملامحه، فقط رأيت نوراً يشعّ من وجهه، ثم أمسكني من يدي، ودخل بي بيتاً قديماً بابه من خشب، وحين دخلت البيت وجدت غرفة وقد سقط جدارها، ثم ظهرت أمامي بساتين ونخيل، وسمعت صوت الساقية تسكب ماءها، لم أرها، لكن صوتها كان واضحاً، وقلبي كان سعيداً، لكنه يشعر بوحشة من هذا البيت القديم والمهدّم.

قالت أمّي:

- هذا يا بنتي حلم كله خير. هذا الرجّال اللّي أخذك هو راشد ووجهه نور، والبيت القديم هو الخرج، والبساتين والساقية كلها خير وبركة يا بنتي. هذا جواب صلاة الاستخارة، والله يقول لك: إنّ طريقك كله بركة.

فرحت عواطف. شعرت أنّ الله قد مدّها بالجواب ولو متأخّراً بعد أن وافقت، لكنه على الأقلّ أراحها وجعلها تهنأ بالموافقة، فالأحلام حملت لها رسالة لم تفهمها، لكنّ أمّي ترجمتها لها. عرفت عواطف

الآن أنّ قرار زواجها قد حُسم. لقد طلبت في صلاة الاستخارة جواباً ووجدته. منذ ذلك اليوم تغيّرت عواطف، صارت في منتهى السعادة والاطمئنان.

أقام أبي حفلة عرس ودعا جميع الجيران إليها. جاء أهل راشد في عصر ذلك اليوم، وجاءت معهم حصّة ومعها حذاء بكعب عالٍ وثوب جديد، وعادت تضع يدها على فمها وهي تبتسم، تسألني عن مزنة والجازي وموضي وفاطمة، لكنني أنا تغيّرت، فقد مللتها وصرتُ أراها مملّة وبلهاء، فلم أعد أحدّثها كثيراً، وأقفلت خزانتي حتى لا ترى ثوب عرس عواطف وثوبي. سيقام عرس النساء في منزلنا فوق السطح، وعرس الرجال سيقام في ساحة خالية في طرف الحارة.

جاء إبراهيم من مصر لحضور العرس، وأحضر فوّاز فريق الكرة كلهم ليعاونوا والدي. متعب ولد وضحى استلم من أبي مهمّة إعداد ولائم العشاء من مطبخه الجديد الذي افتتحه في "الديرة" ومن دكّانه الصغير الذي يتعهّد إعداد الحفلات. أحضر سيّارة نقل بصحن طويل، محمّلة بالسجّاد والسلالم الطويلة. وأحضر عمّالاً يمنيّين يحملون سجّاداً ملوّناً بقباب وأعمدة وزخارف، ومساند حمراء مزيّنة بأغصان وطيور من القطيفة الحمراء. فرشوا السجّاد على أكبر سطح في منزلنا، وأسندوا المساند على جدران السطح، ثم خرجوا إلى الحارة ومدّوا عقدين من الأضواء من بيتنا حتى بيت أبو عزّوز المقابل. ثم فرشوا سجّاداً آخر في الساحة الممتدّة عند طرف الحارة حيث سيجلس الرجال. ونظموا حولها عقوداً من الأضواء.

كما أقام فريق من الرجال السود موقداً من الحطب اشتعلت ناره عند الغروب حتى أصبح حلقة كبيرة من الجمر، ثم صُفّت بجانبه دلال كثيرة لصنع القهوة، ثم جاء فريق آخر يلبس ثياباً فلكلورية أكمامها واسعة، وفي أيديهم دفوف، وعلى خصورهم أحزمة من الجلد. أخذ فوّاز يضرب على الدفّ ويرقص ومعه بعض الصبية. ناداه والدي ليترك الدفّ ويلحق بهم إلى صلاة العشاء، حيث سيبدأ العرس بعد الصلاة مباشرة.

لبست عواطف ثوبها، وحزمت أنا وأمّي حقائبها التي وضعت فيها ثيابها الداخلية الشفّافة التي اشترتها ظنّاً منها أنها ستكون لزفافها إلى سعد، لكنه تركها، وذهب بعد أن زرع الخوف في قلبها من الحبّ والأغاني التي لم تعد تروق لها. جلست عواطف في غرفة والدتي بثياب العرس البيضاء تنتظر عريسها الذي سيدخل إليها بعد العشاء.

بعد صلاة العشاء انطلقت الدفوف بالأغاني في سطح بيتنا تهنّئ العروسين وأهليهما. بين شوط وآخر، تتقدّم امرأة من نساء الحيّ، وتدفع نقوداً للمغنّيات، وتخبرهنّ بأسماء عائلتها، تبدأ المغنّيات على إيقاع الدفوف بالتغنّي بأسماء شباب العائلة وبناتها، تمنحهم وعوداً بالسعادة، ومديحاً بالشجاعة والكرم. في أغاني العرس يصبح الشباب فرساناً والفتيات جميلات، والكلّ يطلب ودّهنّ، ويتبارى لخطبتهنّ الشجعان. اندفعت الفتيات نحو الرقص وسط النساء. حصّة لم تترك الحلقة أبداً، ورغم أنها لا تجيد الرقص، لكنها ظلّت واقفة طوال العرس تزاحم الفتيات، وتقلّد طريقتهنّ بحركات تشبه رقصة بدائيّة. وددت

لو أدفعها لتقع خارج الحلقة. قلت لها، وقد نفد صبري من مزاحمتها فاطمة وعطوى وامتثال وأخواتها:

- اتركي البنات يرقصن، فهذا دورهنّ وهنّ مَن دفعن النقود.

ردّت عليّ بطريقة والدتها الخشنة نفسها:

- هذا عرس أخوي وأنا حرّة.

ثم مدّت لي لسانها.

على إيقاع الدفوف الراقصة والغناء، تقدّمت وضحى، فضحكت أمّي وهي تدفعها مشجّعةً إيّاها. منحت المغنّيات عشرين ريالاً، ورفعت صوتها تعدّد على المغنّيات أسماء أبنائها متعب وضاري ومزنة والجازي. وما إن سمعت الغناء، وقد جعل من متعب فارساً ومن الجازي جميلة الجميلات، حتى اعترتها حمّى الفخر والحماسة، فحملت طرف عباءتها في يدها وبرقعها يغطّي وجهها ثم هزّت قامتها وثنت ركبتيها ومدّتهما تناوباً. مالت برأسها طرباً يميناً وشمالاً. رفعت طرف عباءتها في يدها إلى أعلى رأسها، لوّحت به يميناً وشمالاً، ثم على رأسها، خفضت رأسها، جعلته يتمايل طرباً! حدّقت النساء في وضحى بدهشة. لأوّل مرّة يرينها، وقد لبست ثوباً جديداً، وحلّت معصمها بأساور من الذهب. تعلّقت نظراتهنّ بها، فهذه هي المرأة نفسها التي عرفنها قبل أعوام فقيرة بائسة، وقد ظننّ أنها من شدّة بؤسها وصلابتها لا تعرف الرقص. وضحى تدوخ من النشوة وتردّد وراء المغنّيات المقطع الأخير من الشعر المغنّى. اندفعت مزنة والجازي مع والدتهما إلى حلبة الرقص وراقصتاها، لوّحت الجازي الجميلة بشعرها ومزنة

قلّدتها، ابتسمتا لساحرتهما المبجّلة أمّهما وضحى التي ترجّلت عن حصانها وأخذت ترقص. تملّكتهما سعادة غامرة وهما تريان والدتهما للمرّة الأولى في ثياب امرأة تجمّلت ورقصت، وأنا أيضاً لأوّل مرّة أشاهد ظلال السعادة ترتسم على قامة وضحى وبناتها، وتعقد معهنّ صلحاً رحيماً.

(١١)

هبّت نسائم الشتاء مرّة أخرى. صارت الشمس لا تطلّ بوجهها إلاّ قليلاً في الضحى الدافئ. عاد موقد والدتي في مجلسنا يشتعل بجمره. لمعت رفوف المتّكأ الشتويّ بدلاله المصفوفة. وبدأ إبريق النحاس يفور مرّة أخرى بالماء الحاضر دائماً لدلّة من الحليب بالزنجبيل، أو دلّة من القهوة، أو إبريق شاي بالنعناع.

دخلت وضحى منزلنا يوم الجمعة. والدي يشرب قهوته عند الضحى، وأنا وأمّي نضع الثياب في المغسلة ونعصرها. صوت القرآن ينطلق من راديو أبي صادحاً وسط المنزل. رحّبت أمّي بالزائرة التي سألت عن والدي. سلّمت عليه وجلست. طلب والدي من فوّاز أن يصبّ فنجان قهوة للضيفة. كنت أدخل وأخرج. سمعتها تقول لأبي إنّ أمّ سعد خطبت الجازي لابنها سعد البارحة، ولا تدري ماذا تقول؟ لهذا جاءت تطلب مشورته. سكت والدي قليلاً ثم ابتسم، وقال:

– شاوري الجازي، لازم توافق.

ثم سأل:

– وأخوها متعب وش رأيه؟

ضحكت وضحى وقالت:

- متعب ما يحبّ أهل اللحى، لكن سعد يخاف الله واللّي يخاف الله ما يظلم.

حملتُ شبك الغسيل إلى السطح لأنشره. شلّت المفاجأة يديّ. أصبحتا باردتين ضعيفتين لا تكادان تقدران على حمل سلّة الغسيل المملوءة بالثياب، انعصر قلبي مع الثوب وسقطت قطراته مثل دموعي. نظرت إلى سطح سعد المقابل، فكّرت في الجازي، أجمل فتيات الحارة، التي تشبه الممثّلة الجميلة هند رستم لكن بشعر أسود، وجهها أبيض، ولديها خدّان يرتفعان على وجنتيها كلما ضحكت، أنفها دقيق، وعيناها واسعتان يملؤهما كحلٌ فاقع السواد، ولديها خالٌ على خدّها الأيمن. حين تتحدّث تفور بأنوثة بالغة. ستتزوّج؟ وممّن؟ من الرجل الذي كانت عواطف تحلم به. كم يبدو الأمر غريباً! وسعد أيضاً صار غريباً. لم أفهم ماذا يحدث. شعوري بالألم لا يجد كلمات تجاوبه. عقلي مصاب بصدمة. أصبحت عاجزة عن التفكير، لكنني لو كنت مكان الجازي لن أوافق على الزواج بسعد.

جاءت أمّ سعد بعد أسبوع لزيارتنا، وقالت إنّ زواج سعد بالجازي سيكون بعد شهر، وحرصت أن نحضر ليلة العرس جميعاً، ثم أخبرتنا وكأنها تعتذر عن تواضع فرحهم بأنّ الزواج سيكون وجبة عشاء كبيرة دون دفوف ودون رقص، فهكذا أراده سعد. في الشتاء أصبحت الحياة في الحارة أكثر هدوءاً، والسطوح بدون فتيات وبدون حبّ. لم تثمر قصّة حبّ واحدة في السطوح هذه السنة. كلّ قصّة صبّت في مدار آخر غير مصبّها الذي أرادته. عواطف ذهبت إلى راشد، والجازي

ذهبت إلى سعد. حتى الجازي قالت لي إنها لم تكن تحلم بسعد، بل أرادت يوسف، الجار الوسيم الذي كان يطيّر الحمام فوق سطحهم المجاور، لكنها فرّت منه سريعاً، دون أن يبدأ بينهما الكلام. متعب لم يكن سعيداً بزواج الجازي من سعد، لكنّ زواج سعد بأخته سيمنح لعائلته أواصر أقوى مع أهل الحارة، ستطلي وجه غرابتهم، وستمنحهم قرابة جديدة تحبك عائلتهم في نسيج الحارة وتخيطه بباقي الأسر، فأهل الحيّ لم يكونوا قادرين - رغم تحسّن حالهم وارتفاع مدخولهم - على نسيان أنّ هذه العائلة الصغيرة كانت تعيش على إحسانهم حين دخلت هذا الحيّ، وفقرهم الذي اختفى ظلّ ندبة في تاريخهم، لذا فهذ الزواج هو انتقال عائلته إلى مصاف الاعتراف بأنهم أصبحوا مثل كلّ العائلات الكريمة واللائقة بالنسب الرفيع.

صعدتُ السطح أنشر الغسيل ضحى الجمعة، وقد صارت الجازي جارتنا، وتسكن بيت سعد ووالديه. سمعت صوتها تهدل مثل حمامة، لا تغنّي بكلمات بل تدندن بلحن تدور كلماته بغموض في فمها. وضعت صندوق الخشب فوق الجدار، ونظرت نحوها وقد لمع شعرها تحت الشمس بلون حنّائه الأحمر القاني، وفاحت رائحتها العطرة، وسطع خالها الأسود في وجهها مثل حبّة بركة سوداء شهيّة. همست:

- الجازي يا حلوة.

ركضت نحوي ثم ارتقت شبك غسيلها.

سألتها عن سعد فقالت إنه يجلس الآن مع والدته في الغرفة، تشتكي له أمراضها، وهو يقرأ القرآن عليها ويرقيها، لا تجتمع به إلاّ

في الليل حين يدخل للنوم.

تجهّم وجهها قليلاً، ثم عاد للابتسام. أشارت إلى بطنها وقالت:

- أنا حامل.

- مبروك يا الجازي.

ضحكت، وقالت:

- أسمّيها شهد إذا كانت بنتاً.

قلت:

- وإذا كان ولداً؟

قالت:

- لا أريد ولداً، أريد بنتاً.

فجأة سمعنا صوت سعد يزجر:

- الجازي.

سحبت رأسي بسرعة وخفضته، لكنني لم أتحرّك من مكاني، سمعته يقول:

- أنت متعلّمة على وقفة السطوح، وش تسوّين عندك؟

همهمت بكلام غير مسموع، لم أسمع ماذا قالت له، لكني سمعتها تبكي، وتتأوّه وهو يضربها.

زارتنا أمّ سعد في العصر وحدها. سألت أمّي لماذا لم تحضر الجازي معها، فقالت إنها خرجت مع سعد يتنزّهان ونظرت إليّ، لا بدّ أنها تعرف أنني أعرف أنها تكذب، وأضافت وكأنها تعتذر لي، أو توضح ما حدث:

- سعد، الله يهديه.

ثم تجهّم وجهها فعرفت والدتي أنّ في الأمر خلافاً.

حين أقبلت أختي فاتن وفتحت التلفزيون أدارت أمّ سعد ظهرها له حتى لا تشاهده. ظهر فيلم الكارتون، وتوم وجيري يتخاصمان، ثم جاء وودي بيكر يدقّ الخشب.

قالت أمّ سعد:

- هذا التلفزيون فتن الناس وشغلهم عن دينهم، والإنسان غافل عن آخرته وعذاب القبر والفتنة والمسيح الدجّال.

قمت من المجلس ودخلت غرفتي، وجلست أمام المرآة أضع كحلاً، وأرسم عينيّ على طريقة هند رستم، وأضع نقطة سوداء على خدّي لأشبهها تماماً، فظهر لي وجه الجازي في المرآة. قطّبت جبيني وتخيّلت نفسي مكانها. دخلت صورتها في خيالي. نظرت إلى وجهي أمام المرآة. شاهدت حبّة الخال على خدّي، وعبست. زممت شفتيّ وانتفضت غضباً. هززت قدمي غضباً وقلت:

- الله ياخذك يا سعد يا ولد أمّ سعد.

بعد أسبوع زارتنا وضحى والجازي ومزنة، جلست وضحى قليلاً مع نساء الحيّ، ثم قالت إنها ستذهب إلى السوق، وأخذت مزنة معها، بينما بقيت الجازي معنا في المجلس. غمزت لها بعيني، فنهضت ولحقتني إلى مجلس الرجال لنجلس وحدنا نتحدّث. أخبرتني أنها الآن في منزل والدتها، وأنها لن تعود إلى سعد بعد ما حدث.

فقد خرجت الجازي في ضحى تلك الجمعة إلى منزل والدتها بعد أن ضربها زوجها. وجدت والدتها وقد عادت من السوق بلحمة طازجة، ومزنة تقشّر البصل والطماطم، ومتعب أخوها الكبير يتأهّب

للخروج لصلاة الجمعة. عندما شاهدتها وضحى سألتها إن كانت ستتغدى معهم اليوم؟ لم تجب وأخذت تبكي، وكشفت لأمّها عن يديها المبقّعتين ببقع حمراء، وشكت:

- سعد ضربني.

دخل متعب وهو يساوي غترته على رأسه، ويستعجل ضاري للخروج من الحمّام، فرأى الجازي وهي تكشف عن يديها وساقيها وتعرض أمام والدتها آثار الضرب. سألها غاضباً:

- وليش يضربك ولد إبليس؟

طلبت منه وضحى أن يهدأ، ويتعوّذ من الشيطان، لكنّ الغضب اشتعل في رأسه وهو يرى ذراعي أخته مبقّعتين. نزع غترته التي استوت على رأسه ثم خرج غاضباً.

انتظر متعب عند بيت سعد حتى خرج من المسجد. رآه عائداً ببيك آبه، ما إن رأى قدمي سعد تهبطان من بيك آب بثوبه القصير حتى أمسكه من جيبه، وصاح فيه:

- تضرب أختي يا قليل المرجلة؟

صاح فيه سعد:

- زوجتي وأربّيها وش دخلك؟

لم يكمل ردّه حتى هجم عليه بشراسة وأوسعه ضربا إلى أن سواها بالأرض...

(١٢)

هبّت تلك الليلة عاصفة محمّلة بالغبار جعلت وجه السماء أحمر، وفي المساء، وأنا أفرش الفرش بمساعدة علياء وعفاف، كانت عيناي تسكبان ماءً غزيراً، كلّما مسحته عادتا تصبّانه مرّة أخرى.

استيقظت في الصباح على صوت والدتي:

- عزيزة، قومي صلّي وسخّني الحليب وسوّي الساندويش.

فتحت عينيّ لكنهما ظلّتا ملتصقتين بجفنيّ، فتحتهما رغم مقاومتها، صحت بفزع:

- ما أقدر أشوف.

هرع أبي ممسكاً بيدي وأنا أبكي.

وضعت أمّي كمّادة من الماء الدافئ على عينيّ وتركتها. أفطر والدي على عجل ثم أخذني بسيّارته واتّجه إلى المستشفى المركزيّ العامّ، لكنّ طبيب العيون لم يكن موجوداً، كان في إجازة، فأعطته الممرّضة المصريّة بطاقة طبيب عيون آخر قالت عنه: "ده ممتاز، عيادته في شارع الخزّان قريباً من المستشفى". خرجنا أنا ووالدي، وركبنا السيّارة مرّة أخرى نفتّش عن عيادة طبيب عيون على شارع عامّ.

عيناي مغبّشتان، ووالدي يضع كفّه تحت كفّي لأهتدي للطريق ونمشي الهوينا حتى لا أقع. حين دخلت عيادة الطبيب، سمعت والدي يتحدّث مع الممرّضة التي قادتنا إلى غرفة كشف صغيرة، ثم عادت وأخذتنا إلى غرفة أخرى هي غرفة الطبيب. نهض صوت رجل بالكاد ألمح هيكله يتوشّح رداء أبيض. حيّا الصوت والدي بلهجة مصريّة، وأبي منذ سافر إبراهيم إلى مصر وهو يحبّ المصريّين. فرح الطبيب بهذه العلاقة المشتركة، فطال الحديث بينهما. تحدّث الطبيب معه طويلاً عن مصر وأخبار مصر. أخبره والدي عن إبراهيم الذي يدرس في مصر. أخذ الطبيب يدي وأجلسني على كرسيّ صغير، طلب منّي أن أفتح عينيّ، لكنّ الضوء كان يزعجني كلّما فتحتهما. أخذ يلاطفني:

- اسمك إيه يا شاطرة؟

قلت له:

- اسمي عزيزة.

- أهلاً بالسفيرة عزيزة.

ابتسمت، وسمعت والدي يضحك.

فتحت عينيّ أمام جهاز كبير، وأخذ الطبيب المصريّ يفحصهما، ويطلب منّي أن أحدّق في العيون الكبيرة التي يحملها الجهاز، ثم يضع قطرة في عينيّ، ويمسحهما. صوت الطبيب يشبه الأصوات التي تتحدّث في أحلامي وفي أحلام شخصيّاتي التي أمثّلها فوق السطوح، ومن كثرة ما حدّثتني وحدّثتها شعرت أنّ هذا الطبيب قريب إليّ وأعرفه.

سألني:

- أنت بتفهمي الكلام المصريّ؟

ضحك أبي وقال:

- عزيزة تحبّ الأفلام المصريّة.

شعرت بالطبيب وهو ينهض من مكانه، لكني لم أتمكّن من رؤية وجهه، فقط صوته الذي راح يحوم فوق رأسي مثل أغنية مصريّة في فيلم سهرة خميس. أصغيت إلى كلماته وهو يطمئن والدي:

- هتخفّ إن شاء الله يا عمّ.

أمسك رأسي بيديه، شممت رائحة الليمون المنعشة في عطره، ثم شعرت بصدغي يسري إليه دفء راحته وهي تحضن وجهي وترفعه للأعلى، ثم يضع في عينيّ مرهماً ويلفّ على عينيّ لبّادة قطن، وقبل أن ينهي آخر الشريط على رأسي ضغط بيديه وربّت على رأسي بحنان، وقال:

- أشوفك بعد عشرة أيّام.

سمعت صوته يتّجه نحوي:

- ماشي يا سفيرة عزيزة؟

التقطت الحنان الذي يرشح في صوته، فلأوّل مرّة أقابل رجلاً رقيقاً ودافئاً يسألني ويصغي إلى أجوبتي، ويربّت على وجهي. لأوّل مرّة يسألني رجل إن كنت أفهم كلماته أو لا أفهمها. ولأوّل مرّة أسمع كلمات تنبعث قوّتها من الحنجرة وتبعث في نفسي الأمل حين قال لأبي:

- ستخفّ يا عمّ.

صدّقته تماماً، لهجته صادقة ومطمئنة، وقد قال:

- لا تخافي ستشفين.

بعد أذان العصر دخلت علينا النسوة، فلا تترك الجارات أمّي في محنة مثل هذه، يأتين لتسليتنا وشرب القهوة معنا، لكنهنّ يحرصن على أن لا يكنّ ثقيلات، فلا تدخل الجارة البيت إلاّ وهي تحمل معها إبريق الشاي ودلّة القهوة، وبدورها تقوم أمّي بالاتّصال بالأخريات لتخبرهنّ أنّ قهوة فلانة جاهزة في بيتنا. هذه المرّة كانت القهوة قهوة جارتنا الحضرميّة حسينة التي لم تستسغها جارات أمّي، شربت كلّ واحدة فنجانها على مضض، ثم أشعلت أمّي نار موقدها لتفوح قهوتها المحبوكة بالهيل والزعفران. سمعت صوت مزنة بنت وضحى تسلّم على أمّي. عرفت من صوتها أنها كبرت أكثر ممّا كانت عليه يوم كنت مبصرة، إذ غادر ذلك الصوت طفولتها، صار عمرها ستّ عشرة سنة، وأصبحت ساعد أمّها الأيمن وحارستها ومستودع أسرارها. قالت مزنة إنّ وضحى -هكذا تنادي أمّها باسمها مجرّداً- طلبت منها أن تمسح جميع العتبات في منزلنا، وعلى الأخصّ عتبات دورات المياه وعتبات درج السطح، وحين تأتي والدتها ستخبرنا لماذا فعلت ذلك؟ أعطت أمّي مزنة إناءً من النحاس ومنشفة وقالت:

- الله يحفظك يا بنتي.

أجلس مع جارات أمّي معصوبة العينين، أستمع إلى أصواتهنّ، قلبي يصغي جيّداً لكلّ صوت، يفحصه، يتعرّف على من بداخله. صوت أمّي خجول مبطّن ويفوح بالزجر أحياناً. صوت أمّ سعد يشبه صوت قرطاسة تتكسّر في فمها الحروف. صوت الجازي الدقيق النظيف

المسنون مثل رأس قلم رصاص ينزلق على ورقة. صوت مزنة الفرح يشبه صوت فأرة تقضم بسكويتاً. لا أستطيع أن أخفي ضحكي كلما سمعت صوتاً أعرفه، لا أشاهد صاحبه بل صورته التي في مخيّلتي. أصبحت الأصوات كالمفاجأة تطلق في قلبي ضحكاً، وأحياناً أبادر من يحدّثني بالتعليق على صوته قائلةً:

- أول مرّة أعرف أنّ صوتك كذا.

قلت لمزنة:

- صوتك يشبه صوت فأرة.

فضحكت وقالت:

- وهل للفأرة صوت؟

قلت لها:

- طبعاً لها صوت تسمعينه في أفلام الكارتون.

ورحت أضحك.

وبدلاً من أن أشعر بالضيق من عينيّ المعصوبتين صرت أكثر مرحاً، وأنا أقلّد دور الأعمى الذي يعيش مع الأصوات. على الأقلّ، أصبح الكلّ يخدمني.

أظهرت جارات والدتي جزعهنّ حين رأينني وقد غطّت اللبّادتان عينيّ، أشعر بجزعهنّ في أصواتهنّ لكنني أضحك منهنّ قائلةً:

- ما حدّ يحسّ في عمّ مقيرن هالحين غيري.

تضحك أمّي وتقول:

- مدّي يدك خذي فنجان القهوة يا عمّ مقيرن.

تضحك الجارات وتأخذ مزنة الفنجان ثم تمسك يدي وتضعه فيها.

يمرّ الوقت ويغادر الجزع حكايات الجارات، ويبدأن في النميمة، حتى النميمة صوتها مختلف، أصغي إليها فأسمع صوت الشرّ فيها، مثل صوت ساحر، فتنتشر في الفضاء وتطلق رائحة كريهة. أسمع صوت أمّ عزّوز وهي تشكو أخت زوجها لأنها تبالغ في حديثها أمام أبي عزّوز بوصف نساء جميلات، وكأنها تلمّح له بالزواج من أخرى. وأسمع جارتنا حسينة الحضرميّة تشرح كيف تغشّها جارتها الخيّاطة ثريّا، وتبيعها أقمشة تدّعي أنها بسعر الجملة، فتكتشف أنّ الأسعار التي باعتها بها أغلى من سعر السوق.

دخلت وضحى، وألقت التحيّة وقالت:

– ما تشوفين شرّ يا بنتي يا عزيزة.

لأوّل مرّة أستقبل صوت وضحى دون صورتها، يشبه صوتها ليلاً ساكناً، مستوي الحروف، دقيق الكلمات، ولا يعلوه أيّ كدر، على عكس صورتها التي امتزجت بالألم في عقلي منذ رأيتها أوّل مرّة. قالت وضحى لأمّي إنها تعرف علاجاً جرّبته للعيون ستحضره لي. وضحى أصبحت خبيرة بالأعشاب الطبّيّة لكنها قبل العلاج لا بدّ وأن تعالج الشرّ الذي ربّما قد تسبّبه عزيزة للمسلمين الساكنين تحتنا بمسح أعتاب الأبواب، فقد تكون عزيزة قد تعثّرت بأحدهم وأضرّته.

في صباح اليوم التالي دقّت وضحى الباب. فتح لها أبي، فأعطته حزمة صغيرة من أعشاب مطحونة، وطلبت منه أن يهدي أمّي السلام ثم انصرفت. شرحت أمّي له بأنه مسحوق عشبة أعدّتها وضحى لعينيّ، وسمعت صوت أبي المتوتّر، وقلّما سمعته غاضباً وهو يصرّ على أسنانه قائلاً:

- هذه الخرقة.

ثم اتّجه مسرعاً نحو الحمّام، وقذفها في جوفه، وعاد قائلاً:

- إيّاك تحطّين في عيون بنتي شي من ها الخرابيط.

في المساء جلسنا أمام التلفزيون، وسمعت صوت أبي الملفوف بالمحبّة والثقة، بينما صوت أمّي اكتفى بتوجيه الأوامر.

سألت والدي عن اسم طبيب العيون فقال:

- أحمد.

أحمد، تماماً كما في الأفلام، لا أعرف كيف هو وجه الدكتور أحمد، لكنني أعرف صوته، صوته يشبه صوت حسين فهمي، وهو يناديني بالسفيرة عزيزة. سألت والدي:

- ماذا يعني السفيرة؟

قال:

- سفيرة مثل أميرة.

ثم ضحك عليّ.

أدخل في زرقة حلمي بعينين مغلقتين، وأفكّر بالدكتور أحمد الذي أعطاني لقب السفيرة منذ أن قابلته، وأتساءل وعيناي مغمضتان: ما هو شكله؟ يغرق قلبي في حبّ متخيّل تتناوب فيه الصور بين الطبيب الذي لا أعرف شكله ووجوه عرفتها كان لها اسم أحمد، قد مرّت في ذاكرتي على شاشة التلفزيون. أتخيّل نفسي وأنا أركب باصاً، وأشاهد أحمد الذي يخصّني، لكن لا أرى نفسي في الرياض بل مع أناس يشبهون أناس القاهرة، نساء أنيقات، ورجالاً ببذلات، وأحمد يتبعني بعينيه.

شقّ هذا الحديث الطويل على قلبي. لم أعتد الحديث الطويل مع نفسي، تمنّيت أن يحمله معي أحد، لو كانت عواطف معي لكنت حدّثتها به. عرفت أنّ حمل الأسرار في القلب عمل شاقّ يشبه ماءً يتكوّم في ساقية، كلّما زاد دفع جدار الطين وجعله يتصدّع.

رمى أبي صرّة الدواء الشعبيّ، لكن بقيت المعالجات السطحيّة لوضحى مستمرّة، ووالدتي تقبلها بحبّ على أمل أن تشفيني. جاءتنا مزنة في اليوم التالي، سمعت صوتها يسلّم على والدتي، ثم صوت الماء وهي تسكبه في الآنية. مرّت بي وقبّلتني. طلبت منها أن تجلس لكنها قالت يجب أن تمسح العتبات بالماء ثم تعود إليّ. مسحت بالمنشفة عتبات دورات المياه ودرجات السلّم، ثم عصرت الثوب في طاسة كبيرة وتركت الماء وجلست بجانبي.

سألتها:

- فيك من يحفظ السرّ؟

ردت:

- سرّك في بير.

قلت:

- صوت الدكتور حلو.

- وش اسمه؟

- أحمد.

- وشكله؟ انتبهي، كلّ واحد اسمه أحمد يصير خشمه كبير.

ثم سألتني:

- تحبّينه؟

- قلبي أحبّ صوته، لأوّل مرّة أعرف أنّ للصوت طريقاً إلى الروح، وروحه هو كانت طيّبة و...

قاطعتني مزنة:

- تظنّين أنه يحبّ واحدة عمياء.

أعقب جملتها صمت مفاجئ. ندمت مزنة لتسرّعها، لكنني ضحكت عليها، وقلت:

- يا غبيّة أنا مو عمياء.

نسجت قصّتي السرّيّة خيوطها بين قلبي وبين مزنة. قلبي أراد أن يفرغ حمولته، فوجد قلباً فارغاً مثل قلب مزنة ليحمل عنّي دفق المياه التي يصبّها الحبّ كل ليلة في قلبي وفي الأخيلة. دخلت خالة وضحى وسمعتها تسأل مزنة:

- هل مسحت العتبات؟

ثم مدّت يدها وأمسكت رأسي وقالت:

- اشربي.

شممت رائحة زعفران قويّة، قالت:

- ماء مذوّبة فيه آيات كتبت بالزعفران. اشربي بالشفاء إن شاء الله.

وهمست أمّي في أذني:

- لا تقولين لأبوك شيئ، تعرفين، أبوك رجّال ما يفهم هذي الأمور.

أخبرت والدي بكلّ شي حالما ركبت معه السيّارة لوحدي بعد عشرة أيّام. أمسك يدي وأدخلني السيّارة، ورفع طرف ثوبي الذي تدلّى خارجاً حين ركبت، ثم أغلق الباب واستدار نحو الباب الآخر.

ابتسم والدي، وقال: هذا دواء إن ما نفع ما ضرّ. وأدار الراديو على قناة بثّت أغنية لسلامة العبد الله، فطلبت منه أن يتوقّف عندها لأسمع هذه الأغنية. حرّكت أغنية سلامة العبد الله حنيناً في قلبي وتذكّرت معه أختي عواطف، وكذلك فعلت مع أبي الذي قال لي بعد أن انتهت الأغنية:

- عزيزة، يقال إنّ أعرابيّة سئلت من أحبّ أولادك عندك؟ فقالت: المسافر حتى يعود، والصغير حتى يكبر، والمريض حتى يشفى. أنت وإبراهيم اليوم أحبّ أولادي عندي. إبراهيم حتى يعود، وأنتِ حتى تشفين، حين تكبرين يا عزيزة ويصبح لديك أولاد ستعرفين ماذا عنيت.

ابتسمت لوالدي الذي صار صوته أحبّ الأصوات عندي.

دخلنا عيادة الطبيب. أمسكت الممرّضة يدي وأجلستني على المقعد، خلف ظهري سمعت صوتاً يحيّي والدي، ثم اتّجه إليّ وقال:

- إزيّك سفيرة عزيزة؟

ولمس رأسي، وشممت رائحة عطر الليمون مرّة أخرى. نزع عن عينيّ اللبّاد برفق، وحين انتهى مسح عينيّ بمحلول بارد، ثم صبّ قطرة في كلّ واحدة. كنت أصغي لصوته لأعرف صوت من يشبه في أحلامي: حسين فهمي، رشدي أباظة، شكري سرحان؟

سمعته يقول:

- افتحي عينيك يا عزيزة.

فتحتهما ببطء، رأيت نوراً آذى عينيّ لوهلة، ثم رأيت وجهه الذي يقابلني، عيناه مسحوبتان للأعلى قليلاً، بنظرات قويّة وواثقة، يضع عليهما نظّارات طبيّة، يحرّك أنفه كلما أراد أن يرفعهما للأعلى. ثم

رأيت شعره أسود مسرَّحاً بعناية، ثم أخيراً رأيت ابتسامة تعلو أسنانه المتّسقة. ابتسامته تلك البوّابة التي دفعت قلبي نحو الأمام، لكنه اصطدم بحضور أبي، فعاد يختبئ وينظر خلف ستارته الخجلى. بادرت وجه الطبيب بمقدّمة ابتسامة تراجعت حياء، ثم أطرقت أنظر إلى الأرض خوفاً من أن يسمع أبي قلبي الذي دقّ بوجل. سأل:

- بتشوفي كويّس؟

ضحكت وقلت:

- آه.

قال:

- خلّينا نعمل اختبار، بصّي للوحة دي.

أخذت أقلّد فتاة تخجل أمام رجل غريب، حتى يشغلني التقليد عمّا أشعر به. أمسكت طرف عباءتي ووضعتها في فمي، وأخذت أجيب عن السؤال:

- الفتحة فوق، ثم تحت، ثم يمين.

ثم أطرق برأسي للأسفل.

يعرف الطبيب أحمد أنّ فتيات الرياض خجولات، ويعرف والدي أنّ ابنته تخجل لأنها تجلس لأوّل مرّة أمام رجل غريب، لكنني كنت أمثّل أنني أجلس مع رجل اسمه أحمد في أتوبيس أو لجنة امتحان، لا أقلّ ولا أكثر.

هرعت جارات أمّي إلى منزلنا عصر ذلك اليوم، حين سمعن أني استعدت بصري، وحين مرّت بنا وضحى قبل أن تخرج إلى السوق قالت:

- قلت لكم، لقد أطفأ مسح العتبات غضبهم.

ركضت مزنة نحوي ودخلت غرفتي، ثم ارتمت فوق سريري تسألني:

- شفتيه؟ سمين؟ طويل؟ وسيم؟ متزوّج؟ له لحية؟

كي تفهم مزنة ماذا يعني أن تقع فتاة نجديّة في حبّ رجل مصريّ كان يجب أن أبقيها معي طوال الوقت، أحدّثها بكلّ الأحاديث التي لا يقوى قلبي على حملها، فمزنة كانت صفحة بيضاء أستطيع أن أرسم فيها ما أشاء، فأنظر إليها لأجدها كما رسمت.

أقنعت مزنة أن تسهر عندي أماسي الخميس لنشاهد سويّاً أفلام المساء والسهرة، وتنام عندي بعض الأيّام لأنّ وضحى لا تمانع، ويبدو أنّ عدوى حبّ المختلفين قد تسلّل إلى قلب مزنة، فقد أصبحت هي الأخرى لا تحدثني إلاّ عن الذين يتحدّثون بلهجة تختلف عن لهجتنا، والذين تراهم في السوق حين تذهب مع والدتها، وقد قالت لي مرّة إنّ شابّاً اسمه رياض قد رمى عليها رقم هاتفه فأهملته، تخاف أن تحدّثه فيسرق قلبها كما فعل معي الدكتور أحمد، ونبقى عالقتين في قصّتين متشابهتين، بلهجات مختلفة، لكن بلا أمل. قلت لها إننا لا نحبّ اللهجة يا غبيّة، بل نحبّ الحنان الذي تسكبه اللهجة، خاصّة حين تخلو من الأوامر وتصبح حديثاً مرسلاً يطفح بالودّ والمداراة.

استعدت نظري، لكنني فقدت مقدّمات الحبّ الذي بدأ، و لم أعد لزيارة الطبيب. عرفت أنّ حبّ الغرباء رغم قصر عمره أجمل من حبّ أبناء الجيران الذي يعذّب طويلاً، ويملي على صاحبته الأوامر كما يفعل الإخوة، ثم يتركها تتزوج آخر.

(١٣)

دخلت مزنة بنت وضحى، كما ينادونها في السوق، بجسدها الطويل الناحل، سوق النساء الذي توسّع وامتدّ، تغطّي جسدها عباءة قصيرة تشفّ عن ثوب أحمر ملوّن، وتضع على وجهها برقعاً، كما نساء السوق، يظهر عينيها الواسعتين، تحيط بهما حلقة من الكحل الواسع الذي يجعل لبياض عينيها نصاعة فاتنة. مشت مزنة بشباب طافر، وملاحة تتثنّى في أطرافها الناعمة، تنبّه البائعات الساهمات لمرورها الحيّ بينهنّ، فحيّينها وطلبن منها أن تحيد جانباً لتشرب قهوتهنّ، لكنّ مزنة جاملتهنّ بقولها:

- قهوتكم مشروبة يا عيوني.

وصلت مزنة إلى فتحة دكّان والدتها، فوجدتها ترتّب بضائعها، تساعدها عاملة أحضرتها من سيرلنكا في البيع وحمل الأغراض، اسمها سونيا، رقيقة الحال، نحيلة القوام، تتدلّى على رقبتها ضفيرة طويلة، لا تجيد العربيّة، لكن تفهم الإشارة وبضع كلمات مختصرة. ما إن وصلت مزنة حتى قامت وضحى تاركة المحلّ في عهدة ابنتها ومساعدتها السرلنكيّة.

مضت وضحى في غياهب السوق بعباءة تتدلّى بجناحين على جانبي قامتها، وغابت في الدهاليز.

أمضت مزنة معظم وقتها في السوق الذي تفتّحت مداركها في جنباته وكبرت على لغطه، ونمت بينها وبين نسائه أخوّة غامرة، كفلت رعايتها حتى أصبحت شابّة أنهت دراستها الثانويّة، وتفرّغت للسوق ومساعدة أمّها. النساء يتقرّبن منها لأنها ابنة وضحى التاجرة الناجزة، وهي تحبّ قربهنّ لأنها تحبّ أخوّتهنّ التي عرفتها صغيرة.

حين عادت وضحى تململت مزنة، ثم نفضت ثيابها واقفة، وقالت إنها ستخرج تتسكّع قليلاً وتسرّي عن روحها التي ضجرت من طول البقاء حبيسة الدكان. لم تكن عطوى في دكّانها، فقد ذهبت في رحلة مع أمّ عبد العزيز. مشت وحدها من الشارع المقابل للسوق حتى وصلت إلى المسجد الجامع الكبير عند الركن، ثم انعطفت يميناً حيث سوق سويقة، وقبل أن تصل إلى بوّابة القصر الأثريّ القديم انعطفت نحو محلّ بيع الأشرطة.

شاهدت حلقة من الشباب تقف عنده وضاري معهم يدخّنون.

- وش جابك يا مزنة؟

ضحكت مزنة من فورة دم ضاري، تعرف أنه أصبح رجل مدينة، يشعر بالخجل من ظهورها أمام أصدقائه، على عكس أخيها الأكبر متعب الذي ينتمي لعالم وضحى البدويّ، وفكّرت لو أنها ذهبت إليه الآن إلى محلّه لرحّب بها وأجلسها بقربه وسكب لها شاياً وفاخر بها عند من يدخل من معارفه الرجال قائلاً:

- هذي أختي مزنة فديتها.

قالت له كي تطفئ غضبه:

- عزيزة تبي شرطان.

حين عادت مزنة من جولتها كان صوت المؤذّن قد علا بأذان صلاة المغرب، وتتابع أصوات أبواب الدكاكين وصرير صفيح أبوابها الزلقة، شعرت بقامة تتبعها، أيقنت مزنة أنه أحد المراهقين الذين يتجمّعون في زوايا السوق بانتظار أيّ فتاة تمرّ ليطلقوا سهامهم ومطاردتها، لكنها لم تلتفت. فمن قواعد الحشمة أن تبقى الفتاة متجاهلة ما حولها. القامة التي تسمع حفيف ثوبها تمشي خلفها، لا تتقدّم بموازاتها ولا أمامها. ظلّت محتفظة بمسافة بعيدة عن رؤيتها، و لم تتغيّر المسافة ذاتها. ستعرف لاحقاً أنه رياض حين اعترف لها أوّل مرّة رآها فيها، لكنها لم تره. اعترف لها أنه أصيب بلحظ عينيها قبل أن يعرف معنى جرح العيون، وأنّ مجروح العين لا يبرأ أبداً، سمعت هذا المعنى نفسه في الشريط الذي مرّ ورماه في حضنها يوماً ومضى. وضعته في المسجّلة فسمعت محمّد عبده يغنّي: "الله أكبر كيف يجرحن العيون... كيف ما يبرى صويب العين أبد" مراراً وتكراراً غنّاها رياض لمزنة وهو يقول:

- حسبي الله عليك.

مزنة، التي ارتبطت في ذهني بصورة شادية، الفتاة الصغيرة الشقيّة التي تحبّ الغناء والحياة، جاءت إلى حيّنا صغيرة، ورغم أنها لم تعرف شيئاً عن البرّ الذي قدمت مع والدتها منه، إلاّ أنها أكثر إخوتها تشبّثاً ببداوتها، ولأنها لا تعرف شيئاً عن جذورها اعتبرت والدتها وضحى هي الشجرة الكبيرة التي خرجت من نسغها. تعلّقت بلباس البرقع الذي لبسته وضحى، كما هو عند نساء سوق

الحريم والبائعات الأخريات، تشتهر به البدويّات ويميّزهن عن نساء المدينة. تعلّقت به مزنة ليس فقط لأنه لا يسدّ الرؤية من خلال عينيه المفتوحتين اللتين لا تحجبان الفضاء كما يفعل غطاء نساء المدينة في الرياض، بل لأنه أيضاً يظهر عينيها الفاتنتين المدعوجتين بالكحل العربيّ، وترى النساء البدويّات أنهما مركز الفتنة في وجه المرأة. ومثلما تخفّف غطاء فتيات المدينة فصار مجرّد غطاء حتى ليظهر منه الذقن، غطاء أصغر ممّا كان عليه في الماضي، تخفّف برقع البدويّات الجديد فأصبح أكثر حداثة وإغواء.

مزنة التي كبرت مع والدتها في سوق الحريم شغُفَتْ بالبرقع، وقد تطوّر في هيئة شبابيّة وأدخل عليه نسيج من حرير مخيط بعناية فائقة فوق الجبين. وحين لبسته مزنة في مدرستها لفتت غواية برقعها أنظار الفتيات، فقام بعضهنّ بتقليدها، لكنهنّ وضعن فوقه غطاءً خفيفاً من الحرير يشفّ عن بياض أعينهنّ، وهنّ يتابعن الشارع خلفها، وإن كان مولد الجازي في الشتاء قد غطّى جلدها وقلبها ببرود ملموس، فإنّ مزنة، على عكسها، خرجت من أماسي الصيف الحارّة التي جعلت منها فتاة تفور بالملاحة والطرافة والشغف بالحياة وعدم الوقوف كثيراً أمام تفاصيلها المعطّلة. أحبّت مزنة صحبة أمّها في عملها في سوق الحريم، واستمتعت بالأوقات التي قضتها هناك، وساعدتها رحابة صدرها وتواضع طبعها على أن تتعايش مع نساء السوق، وكأنهنّ عائلتها. ووفّر لها موقع أمّها المتنامي في السوق المحبّة والتعاطف، بل الإعجاب أحياناً، واكتسبت مزنة من عيشها الطويل في السوق شخصيّة حيويّة واجتماعيّة، وخبثاً لم تمتلكه شخصيّة الجازي الباردة واللّيّنة المنصاعة، حتى غدت عجينة

سهلة يشكّلها الجميع حسب الهوى.

حين تمشي مزنة في السوق تتحوّل إلى فتنة متحرّكة. هيئتها المختلطة بين البداوة الظاهرة في برقعها ولهجتها، والمدنيّة الظاهرة في ثيابها الأنيقة وكعبها العالي وأصباغ يديها وطلاء الماسكرا الذي تضعه على رمشيها لتمنح عينيها وسعاً وألقاً ساحرين، فإنّ الطريق الذي تمرّ فيه مزنة يحتشد بالشباب الذين جاء بعضهم للتمرّن على الغزل العذريّ، وبعضهم جاء للبحث عن هوى قد يطول بصبره لكنه يقوده لاحقاً إلى دخول عالم الحبّ الذي يسمع عنه من زملائه، ويريد أن يجرّبه بشيء من الصبر. مزنة، التي تمتلئ فخراً بنتائج ظهور قامتها في السوق وعدد الطالبين ودّها والمتحرّشين بها، لا تتردّد أبداً بقذفهم بأقذع العبارات، كما تفعل النساء الرفيعات، وتجعل رصيدها من المعجبين يرتفع أكثر، فلا يبقى إلاّ الصادقين الصامدين بودٍّ عفيف، وبعضهم ينتهي به اليأس من ردّها إلى أحد طريقين: إما أن يتركها ويمضي للبحث عن صيدٍ أسهل وآمن، أو التوجّه إلى والدتها في السوق واقفاً فوق رأسها بصوت مرتفع:

- يا خالة وضحى، أنا طلبتك مزنة على سُنَّة الله ورسوله.

فتردّ عليه وضحى قائلةً:

- أخوها متعب في دكّانه رح وحاكه، وأنا أمّك.

عاتبت النساء اللاتي تنهش قلوبهنّ الغيرة مزنة المعتدّة بنفسها. قالت لها البائعة أمّ عبد الله:

- يا مزنة، ترى المثل يقول: من تغلّى تخلّى ولو كان بالحيل غالي.

فتردّ عليها مزنة:

- اللّي يبينا عيت النفس تبغيه، واللّي نبيه عيا البخت لا يجيبه.

لكنّ مزنة عرفت في ذلك اليوم الذي وقف فيه رياض فوق رأسها في السوق أنّ الحظّ قد سمع عتابها أخيراً.

ظنّت مزنة أنّ هذا الشابّ الذي بدا غريباً في سوق شعبيّ قد جاءت به الصدفة المحضة ليقف فوق رأسها دون أن ينتبه إليها، و لم تدرك أنه هو ذلك الشابّ الذي كانت تسمع حفيف ثوبه قبل أذان المغرب، وقد انتظرها حتى استقرّت في مكانها، فجاء متردّداً حائراً يستكشف أيّ نوع من النساء هذه التي تمشي على الأرض بدلال غاوٍ، ولا تعير أحداً اهتماماً. رفع رياض مسبحة يمكن للرجل أن يقلّبها بين يديه:

- بكم هالمسبحة يا خالة؟

رفعت مزنة عينيها نحوه فقال:

- آسف ظنّيتك الخالة!

لم تردّ مزنة، لكنها انتبهت أنّ لهجته خفيفة، لا توحي بجذور هذه المدينة، لكنها لم تتعرّف بقايا لهجته الخفيفة العالقة في حديثه النجديّ. هي تعرف لهجة اليمنيّين والمصريّين، ولهجته ليست من هاتين اللهجتين:

- لو سمحت، أنا أبغي أشتري هذه المسبحة.

قالت له:

- بعشرة ريال.

مدّ يده بالنقود، وأطال النظر في عينيها، لكنها أشاحت بوجهها هرباً منه وتشاغلت بزبائن آخرين.

زارتني مزنة، وألقت بنفسها عليّ، وهي تقول:

- داخلة على الله ثم عليك يا عزيزة.

قصّت عليّ قصّة ذلك الشابّ الذي حفر نفسه في خيالها، وقلبها يدقّ كلّما تذكّرته. قلت لها وقد أصبحت الخبيرة:

- هذا هو، أوّله دلع وآخره ولع.

حرصت طوال أسبوع كامل على التواجد في السوق. كانت تتأخّر عن إقفال المحلّ حتى آخر وقت. كانت تعرف أنّ هذا الشابّ الذي شاهدته لم يكن من روّاد السوق، ولا يبدو من زبائن السوق وبضائعه. فهو نظيف بما لا يدع لأمثاله حاجة في سوق قديم، مترفّع عمّا يجعل بضائع السوق من ضمن حاجاته. تمنّت من كلّ قلبها أن يعود لتختبر هذا الشعور الغريب، وقد بدأ يخفت مع الأيّام، وحرقته تخفّ مثل لسعة حريق تتشافى بمرور الوقت وتتلاشى، حتى كادت في آخر أيّام الأسبوع تشكّ في وجوده، بل راحت تتفرّج على قشرته الأخيرة وهي تقع، وتسمع قلبها يقول: يا خسارة!

لكنه جاء أخيراً، رأته وهي تقبل على دكّان والدتها. الشابّ نفسه صاحب الحريق الذي يدبّ في القلب، رأته يتمطّى ويعبث بالمسبحة في يده، يقلّب البضاعة ببرود ثم يتركها، ويلتفت للحديث مع صاحب له يقف على مبعدة منه. وحين دخلت الدكّان عاد الشابّ يقترب من محلّها وينظر إليها بحماس، ثم سرت في وجهه بشاشةٌ حرص أن يخفيها وقال:

- مرحباً يا خالة.

قالها هذه المرّة وهو يضحك. كان يقصدها.

ابتسمت هي الأخرى وقالت:

- وش طلبك يا الأخو؟

قال:

- ألقى عندكم مسبحة وسجّادة؟

أشارت ناحية المسابح والسجّاد وهي تنظر إليه، ثم قاطعها زبائن آخرون، ذهبت إليهم، بينما بقي هو ينتظر على غير عجل. ظلّ واقفاً يراقب مزنة، وبقايا عطره تحمله هبّات النسائم من جهته إليها. هو يفكّر في حيلة تخرجها من هذا المكان ليحظى بحديث أطول معها، لكنه لم يجد من ردودها ما يشجّعه. انتبهت إلى أنه أخرج قلماً من جيبه العلويّ، وكتب على ورقة النقود التي معه، وحرص أن تنتبه إليه وهو يكتبها، ثم أخذ مسبحة حمراء ومدّ لها الورقة النقديّة في يدها، ونظر في عينيها وهو يمدّها لها قائلاً:

- كلّميني.

قالت لي مزنة، وهي تحتفظ بورقة العشرة ريالات في حقيبتها:

- والله لو يموت ما كلّمته.

قلت:

- طيّب وش تسوّين؟

قالت:

- لازم يعرف أني ما نيب مثل هاللي يعرفهنّ.

منحتها تلك الورقة وقتاً آخر ليلتهب حريق قلبها من جديد، أيّاماً أخرى أطعمتها الخيالات، لكنّ الحذر أطفأ الأمل في قلبها، وحذّرها من صيّادي الأسواق وطالبي المتع العاجلة، فهؤلاء لا يعرف الحبّ قلوبهم، لهذا وعدت نفسها بأن تكتفي بهذه الحرقة البسيطة في

القلب، لا أن تكون صيداً سريع العطب.

بعد عشرة أيّام جاء الشابّ نفسه، لكن مبكراً في العصر، حيث كانت مزنة قد بدأت تفتح المحلّ وترتّب بضاعته، وغاب عن السوق ازدحامه. جاء وعلى وجهه عتب وخيبة أمل. وقف فوق رأسها، وهو يتلفّت في السوق وقال:

- أنا اسمي رياض.

التفتت إليه مزنة، وقالت:

- آمر تفضّل.

- ليش ما كلّمتيني؟

شعرت مزنة أنه قد تمادى بسؤاله، فأعلنت أمامه مخاوفها قائلةً:

- وأنت وش تحسبني كل من مرّ في السوق حطّ رقمه كلّمته، امش يلّلا مالك صلاح.

ابتسم رياض، وقال:

- كلّميني مرّة وحدة، ولن تندمي أبداً.

لم تجد مزنة في حديثه ما يوحي بما يشبه حديث الشباب الهازلين الذين يقولون كلمات بلا معنى أو هدف، أو هكذا طمأنت نفسها.

كانت تتوق إلى الحديث معه، لكنها تحتاج إلى كلمة شرف أو وعدٍ بالاحترام.

جاءتني قائلةً:

- قلبي يقول كلّميه.

قلت لها:

- طيّب كلّميه، وإذا ما عجبك كلامه مثل ما قال يا دار ما دخلك شرّ.

رفعت مزنة الهاتف وضغطت على الأرقام. رنّ الهاتف طويلاً فلم يجب أحد. انتظرت معي ذلك المساء وأعادت الاتّصال و لم يردّ أحد، وحمدت الله أنّ رياض لم يردّ عليها، فقد أنقذها هذا من أن يفضح لهفتها على الحديث معه، وقالت في نفسها: "إنه لن يعلم أنني قد اتّصلت به".

حين كانت مزنة تتّجه في المساء نحو موقف السيّارات المستأجرة لتعود إلى منزلها رأته متّجهاً نحوها، وكأنه كان ينتظرها. اقترب منها وقال لها:

- لم تتّصلي؟

فقالت:

- ولن أتّصل، ماذا تحسبني؟ بنت من بنات الشارع؟!

قال:

- يا بنت الناس أنا والله نيّتي صافية.

صمتت مزنة فأدرك أنها على حافّة الموافقة. قال لها:

- أنتظرك، إذا وصلت البيت كلّميني.

فتحتُ لها باب المجلس، وأدرت المكيّف، ثم ذهبت لأعدّ الشاي. رفعت مزنة سمّاعة الهاتف وأدارت الأرقام، وما كاد الرنين يبعث أوّل نغماته في أذنها حتى جاء صوته أكثر هدوءاً وثقة من صوته في السوق. قال بفرح غامر:

- يا حيّ الله الشيخة.

سمعتها تقول له، وأنا أحمل الشاي:

- اخلص هات وش عندك.

سكبت الشاي ومددته ناحيتها، لكنها أعادت الكاسة إلى الصينيّة، وأشارت بنفور أن اصبري قليلاً؛ ليس هذا وقت الشاي.

مرّة كانت ملامحها تغضب، ومرّة تضحك، لكنها بعد عشر دقائق مدّت يدها نحو كاسة الشاي وأخذت تشرب، وهي تماحكه بكلام مثل: أنت كذّاب... وش تحسب نفسك... لا يا شيخ. حينها عرفت أنّ مزنة قد أدركتها حمّى الحديث، لكنني لم أعرف أبداً أنّ مزنة حين تقع في الحبّ تتحوّل إلى مقاتل شرس في حرب زعامة لا تبقي ولا تذر.

بعد شهر جاءتني مزنة وهي تقول:

- رياض خطبني أمس من أخوي متعب، ومتعب قال لأمّي إن رياض ما هوب من مواخذينا.

انتبهت لأوّل مرّة لاسم رياض وقلت:

- ليه رياض، وش فيه عيب؟

قالت:

- يقول أخوي إن أصله ماهوب سعودي.

- وش قالت أمّك؟

أمّي قالت:

- يا ولدي ما خبرنا الأصل في بلادنا بس، كل بلاد فيها رجاجيل وقبايل.

لكنّ متعب رفض لأنه حائر في معرفة رجل جاء من بعيد، ولا يعرف عنه شيئاً.

سكتت وضحى لأنها تعرف أنّ الفتيات يحظين دائماً بفرص زواج عديدة، وأنّ نصيب كلّ فتاة وعد مكتوب في السماء، ومتى ما جاء هذا الوعد فلن يردّه أحد. قرّرت مزنة أن تناضل كي تنال موافقة متعب. هي تعرف أنّ متعب طيّب ودود وأنه يحبّها. تجلس معه في المساء تكلّمه. وعلى العكس من الجازي، حين تقرّر مزنة شيئاً فإنها لا تتراجع أبداً:

- متعب يا خوي يا جعل يومي قبل يومك.

- يا مزنة، موضوع ذا الفلسطيني لا عاد تحاكيني فيه، تراي ملّيت.

- بس أبيك تعلّمني هو في شرع الله حرام أني أتزوّج رياض؟

- لا ياختي ما فيه ما يمنع، لكن في أشياء جات قبل الدين. هذا دم ما يختلط مع دم، وأنساب محفوظة من يوم أبونا آدم، واللّي يضيع نسبه بين الناس لا أحد يزوّجه ولا ياخذ منه.

- طيّب وإذا قلت لك: إني ما بي من الرجاجيل إلاّ هو.

قال متعب:

- بيعوّضك الله بأحسن منه يا مزنة.

التفت ضاري الأخ الأصغر نحو مزنة وقال:

- أقول قومي يلّلا روحي عن وجهي، ما عاد إلاّ هي، والله أن أدبحك أنتي وإيّاه.

كانت وضحى تراقب وتسمع، وهي صامتة، ولم تقل كلمة واحدة، لكنها خافت أن تستمرّ ابنتها في عنادها. أبقت عينيها تراقبانها، لأنّ سلامة ابنتها مسؤوليّتها وحدها، منذ أن قبلت أن

تأتي إلى هذه المدينة التي لا تعرف فيها أحداً.

حاول متعب أن يصرف مزنة عن رياض بعروض زواج من شباب خطبوها منه. صفيران سائق السيّارة التي تحمل طلبات المطعم، ومشبّب الشابّ الذي يجلس خلف طاولة محلّ الحفلات يسجّل الطلبات والفواتير، لكنّ مزنة كانت تنتقم من متعب برفضها السريع، وإصرارها على أنها لن تعرف رجلاً غير رياض.

في السوق كانت وضحى ترى مزنة، وهي تتسلّل من دكّانها وتخرج، ثم تعود فتعرف أنّ مزنة لم تتنازل عمّا خطّطت له وقالته لمتعب، وأنها باقية على محبّة ذلك الشابّ الفلسطينيّ، لكنها كانت لا تزال تأمل بمنافس يحلّ محلّ هذا الشابّ الذي صوّر لعناد مزنة أن لا شبيه له على الأرض.

قالت مزنة مرّة وهي تقنع والدتها وضحى:

- يمه أنا بغيته وهو بغاني على سُنَّة الله ورسوله.

قالت وضحى:

- يا بنتي ما يصلح لنا ولا نصلح له.

- ليه، فهّموني؟

- عجزنا نفهّمك يا بنتي، هذه أمور ما هيب في يدنا، حطّها جدودنا وجدود جدودنا واللّي يعاندها يا بنتي يصير ما عاد له قيمة بين الناس، وحتى عياله يضيعون لا عاد خوال ولا عمام.

قالت مزنة بحزم:

- حتى ولو قتلت نفسي.

قالت لها وضحى، وقد ضعف صوتها وشعرت بالعجز:

- تعوّذي من إبليس يا بنتي، أنت عيوني اللّي أشوف فيها، تبيني عميا عقبك وأموت؟

ظلّت مزنة تفكّر بأنّ الحياة لم تعد تمنحها إلاّ أحد طريقين: الهرب أو الموت. هي تحبّ الحياة، وتحبّ رياض، فلماذا يجب أن تفكّر في الموت، ألم يبقَ لها سوى الحلّ الآخر: الهروب؟

الجازي مشغولة في تربية طفلتها وقد أصبحت ربّة البيت الجديدة، تنظّف وتطبخ الطعام، وحين يتبقّى لها وقت، ونادراً ما يبقى، تصلّي أو تقرأ القرآن. فيما يتفرّق التجّار الأربعة، متعب وضاري ووضحى ومزنة، كلّ يوم إلى أعمالهم حتى المساء. لكن حتى الجازي الباردة بدأت تقلق على مزنة وعنادها الذي تزيده الأيّام تحجّراً بدلاً من أن تذيبه. زارتني الجازي، جلست مع جارات والدتي هي وأولادها الصغار تشرب القهوة، ثم حدّقت بي وأومأت بعينيها إلى الخارج ففهمت أنها تريد الحديث معي. عند أذان المغرب قامت الجارات يصلّين المغرب، وخرجت الجازي لتتوضّأ فتبعتها، ومشينا إلى المغسلة. أمسكتني من يدي ورجتني:

- عزيزة، أقنعي مزنة أن تعقل، كل يوم تهدّد، مرّة بتقتل نفسها، مرّة بتنحاش.

قلت لها:

- لا تخافين يا الجازي، مزنة تعزّي نفسها بالكلام.

وشعرت بأحدهم خلفي يجرّ ثوبي، التفت فوجدت الطفلة عائشة ابنة الجازي خلفي وتقول:

- أنت ما عندك عيال؟

حين زارتني مزنة في مساء اليوم نفسه قالت إنها قررت الهرب مع رياض. وعلى الرغم من أنني أتخيّل كلّ يوم أنني أحزم حقيبتي وأركب الطائرة مع أحمد، وأتحوّل مع الوقت إلى سيّدة مصريّة تعيش في شقّة على النيل، ولا أفتح الباب إلاّ حين أنظر من عدسة الباب خوفاً من أن يلحق بي إخوتي ويقتلوني، لأني هربت، إلاّ أنّ هذه الكلمة التي أسمعها منطوقة تبدو أكثر رعباً من الخيال الذي عشته. ضرب قلبي بدمه المندفع ضربتين متتاليتين كإيقاع حربيّ، ثم قلت لها:

- أنتي مجنونة؟

لم تردّ مزنة عليّ، أخذت تنظر في الأفق المفتوح أمامها، كأنها كانت تقرأ التعليمات المطلوبة لإعداد خطّتها. هززتها:

- مزنة، بماذا فكّرت؟ قولي لي.

نهضت وقالت لي:

- بعدين بعدين، كل شيء بتعرفينه، بسّ بعدين.

في الليل تظاهرت مزنة بالنوم في الروشن، الغرفة التي تتوّسط سلّم السطح مع الجازي وطفلتها، بينما ينام متعب وضاري في مجلس الرجال عند نسائم المكيّف الصحراويّ. سمعت وضحى التي كانت تصلّي وسط ظلام دامس صوت سيّارة تصدر فحيحاً كفحيح الأفعى، تقترب من الباب ثم تتوقّف، تسلّلت أضواءُها الحمراء والصفراء من شقوق الباب الخارجيّ على أرض مقدّمة الباب. استدارت وضحى، ألصقت ظهرها إلى الجدار، وأخذت تنظر إلى الباب، وقد غطّى الظلام كلّ ما حولها. سمعت صوت حفيف ثوب مزنة، وقدميها تلمسان الأرض لمساً خفيفاً مكتوماً يمشي بحذر، توقّفت عند الباب، ثم

وضعت حقيبة قطنيّة في يدها على الأرض، ووضعت رأس العباءة على هامتها، وهي تقف قرب الباب. سمعت مزنة صوت وضحى قادماً من الظلام يقول:

– لا تغسلي وجه إخوانك بالعار. وقولي له يجي باكر ومعه الشيخ.

كادت مزنة أن تقع على الأرض، فهي لم تعرف للوهلة الأولى مصدر هذا الصوت ولا من أين جاء، ظنّته صوتاً من الظلمات لجنيٍّ أو شبح، وحين أدركت أنه صوت أمّها، وأن أمّها قد عرفت بأمرها، شعرت بدفقٍ من النار يندفع في عينيها، خجلاً لم تتخيّله مطلقاً. عار غدرها بأمّها التي لم تفكّر أبداً بها حين تكتشف غيابها في الصباح. لم تتحرّك مزنة. جمدت في مكانها، لكنها سمعت أمّها وهي تعود إلى الصلاة وتقول بصوت عالٍ:

– الله أكبر.

جاء رياض بعد العصر ومعه رجل عجوز هو والده وشيخ يلبس مشلحاً بنّيّ اللون يحمل دفتراً. كان أخوها متعب واجماً ينظر إلى الأرض، وكانت وضحى هي التي تجلس في صدر المجلس ببرقعها تتحدّث إلى الشابّ ووالده، وتجيب عن أسئلة الشيخ حتى خرجوا. تجهّم الأخوان متعب وضاري لكنّ وضحى كانت كمن قيّدهما بحبلٍ خشن من صوف مثلما كانت تعاقبهما في صغرهما. كانت وضحى هي من يقول الكلمة الأخيرة، ومتعب وضاري مذعنان لا يتسمان ولم يباركا لرياض. دخل متعب الغرفة الداخليّة، وعاد ومعه مزنة تلبس عباءتها، وتغطّي وجهها. تقدّمت بوجل قرب الشيخ الذي سألها وهو يضع عينيه وسط دفتر كبير مجلّد بجلد بنّيّ متشقّق:

- هل توافقين على رياض زوجاً؟

هزّت مزنة رأسها بصمت، لم ينتبه الشيخ إلى ردّها الصامت. عاد ورفع صوته قائلاً:

- ما سمعتك يا بنتي. هل تقبلين رياض زوجاً؟

قالت مزنة بصوت تقطعه حشرجة الخوف والرضا:

- نعم يا شيخ.

قالت وضحى:

- الخميس الجاي الله يحيّيكم على العشا، أنتو وأهلكم تعشّوا وخذوا عروسكم في حفظ الله.

ما إن خرج الرجال الثلاثة، وسمع ضاري صوت الباب ينطبق في مزلاجه حتى قفز من مكانه مندفعاً. ركضت مزنة هاربة، وركض ضاري خلفها ثم ركض متعب ووضحى خلفهما. أمسك ضاري بشعر مزنة من الخلف، ثم دفعها نحو الأرض فسقطت، أطبق ضاري بيديه على عنق مزنة وراح يضغط عليها صائحاً:

- يا بنت الكلب والله لأقتلك.

احتاج ضاري إلى سلاح ليقتلها، فركض إلى المطبخ وعاد يحمل سكّيناً. شاهده متعب فوقف في وجهه ثم قبض على ذراعه، وشدّها فوق رأسه ثم أسنده إلى الجدار بعنف وسحب السكّين من يده قائلاً:

- أنت مهبول؟

قالت مزنة:

- ليش تقتلني، وش سوّيت؟ تزوّجت على سُنَّة الله ورسوله!

التفت إليها متعب قائلاً:

- وخّري عن وجهنا، خلّينا نعرف نتفاهم.

جلس متعب ووالدته وضاري، قالت وضحى:

- يا ولدي أمر الله وتمّ بالحلال، ولا الفضيحة.

قال لها متعب:

- لكن يا يمّه وين نودّي وجوهنا من الناس؟

قالت له:

- يا ولدي، حنّا ناسنا راحوا ولا عاد بقي منهم أحد، لا تركّب نفسك هموم ما لها داعي، ولكل زمان أهله وناسه، والولد ولد ناس أجاويد.

عندما سمع ضاري هذا الكلام خرج غاضباً إلى الشارع، وقد قرّر أن لا يعود إلى هذا المنزل الذي طحن شرفه وكرامته.

ضاري لا يريد أن يصبح مثل متعب الذي لم يجد من يتمثّله في القوّة سوى وضحى، فوضحى، مهما بلغت من قوّتها وحكمتها، تظلّ امرأة، وضاري يريد أن يصبح رجلاً ساطياً بقوّته، وبقلب أسد هصور، يقتل النساء اللاتي يتمرّدن على تقاليد العائلة، بطلاً كما حكاياته مع شباب الحارة، لا يريد أن يتشبّه بامرأة حتى ولو كانت والدته، لكنه يحتار فيمن يجب أن يكون، فهو لم يعرف والده أبداً، وحين جاء إلى هذه المدينة كانت والدته هي الأمّ والأب، وحتى حين صار متعب بعد سنوات محلّ الأب لم يستطع أن ينتزع إعجاب ضاري. فأخوه يشبه والدته، مسالم وهادئ، يستطيع أن يعرف ما في قعر البئر، بغريزته يتبع الحكمة دون ضجيج، فقد كان شابّاً صغيراً تائهاً لا يتّخذ قراراً إلاّ حين يعود إلى والدته، لكنّ ضاري يحب أن يكون

مستقلاً، جبّاراً، قويّاً، مثل رجال هذه المدينة، مع أنّ قسوةً ما تنقصه، قد يجدها في دمائه، عرف بوجودها حين شعر برغبة قويّة في أن يقتل أخته مزنة، لأنها استطاعت أن تعتلي أسوار أمّه وأخيه المسالمين. أراد أن يبرهن لها أنّ متعب قد لا يكون رجلاً جديراً بحماية عائلته، وأنه هو من سيتصدّى لها وبيرهن لها أنّ في عائلته رجالاً أشاوس قادرين على قتل النساء المتمرّدات.

الشيخ الذي عقد قرانهما جعل مزنة تفلت من العقاب، لكنها لن تفلت من الطرد والنبذ. فقد قرّر ضاري أن يحرمها من دخول منزلهم، وسيطرد أولادها ويتبرّأ منهم، وسيخبر كلّ من يسأله عنها أنها ماتت. قال لها، وهي تخرج مع رياض إلى منزل أهل رياض:

– أنت خلاص ميتة، ميتة لا ترجعين لهذا البيت أبداً.

(١٤)

أخبرتني أمّي أنّ جارنا أبا فهد -صديق أبي- قد تزوّج، وأننا سنذهب لنسلّم على عروسه، وطلبت منّي أن أحمل لهم إبريقاً من الشاي ودلّة من القهوة. شاهدت أبا فهد مرّتين يدخل مجلس والدي ويشرب القهوة، وصادف أن رآني وأنا صغيرة، ففي المرّات التي بدأتُ فيها بلبس العباءة كنت أنسى وأخرج إلى الشارع دون غطاء، وكنت مرّات أتصادم مع ضيوف والدي، فينظرون إليّ وأنا أهرب من وجوههم. لم يكن أحد يُعيرني انتباهاً لأنني كنت صغيرة، لكنّ شعوراً بالخجل يعتريني ويجعلني أقفز مثل طريدة باغتها وحش، حتى لو كان من يراني رجلاً كبيراً في سنّ أبي. كان أبو فهد يمازحنا ونحن صغار بجملة يكرّرها دائماً كلما رأى فتاة صغيرة حتى صارت لا تعني لنا شيئاً، وهي "تتزوّجيني يا بنت؟"، فقد كان أبو فهد عازباً لوقت طويل. ماتت زوجته المريضة وأنا طفلة، لم أسمع عنها سوى أنها كانت مريضة. ماتت وتركت ابنه فهد في السابعة من عمره. بعثه أبوه إلى مدرسة داخليّة في مصر، و لم نسمع عنه شيئاً بعد ذلك. حين يدقّ جرس الهاتف ونرفع، أنا أو أختي، السمّاعة ويكون المتحدّث

أبو فهد نشعر بأننا قد وقعنا في فخّ، فهو لا يُفلتنا من قبضته، ويسألنا مطوّلاً عن صحّة والدي وصحّة والدتي وصحّة الحيّ كله. يسألني عن دراستي. يسألني عن مدرّساتي، ثم يمزح قائلاً:

- ما فيهن وحدة حلوة في مدرستكم تخطبينها لي؟

أضحك. أبو فهد لا يشبه أبي حين يحادث النساء. فهو يحتال كثيراً على النساء ليبقيهنّ في مجال نظره وحديثه دون أن يجرُؤن على صدّه، لأنه يوهمهنّ أنه يتحدّث إليهنّ في حدود الأخوّة والأبوّة. لحيته شديدة السواد، وهندامه مرتّب أكثر ممّا يوحي بأنه رجل عاديّ. قلمه الباركر الثمين معلّق دائماً في جيبه. يلبس الصديريّ الأسود فوق ثوب أبيض، ممّا يعطي هندامه أناقة نادرة بين الرجال. رجل خمسينيّ، لكنه يتصرّف مثل شابّ يتمتّع بغواية المجرّب والخبير، ربّما لأنه عاش عقداً من الزمن دون امرأة، يحدّث نفسه بها وينتظرها ويفتّش عنها.

دخلت منزل أبي فهد فهالني ما رأيت. كانت غمامة الحزن تخيّم فوق جدرانه رغم رائحة البخور المبتهج بزوّاره، ورغم رسوم الحنّاء الطازجة في يدي العروس ووالدتها، ولمعة الذهب في أساورها ووهج قرطيها الساطعين. قفز أبو فهد حين رآني أدخل مسربلةً بعباءتي وغطاء وجهي. دققت الباب الخشبيّ المتوسّط بين رواق المنزل وباحته. أدار ظهره ليتركني أدخل ثم خرج. شاهدت عبوساً يكمن في ملامحه على غير عادته. رفعت أمّ العروس رأسها ثم وقفت تحيّيني وتساعدني على إنزال القهوة والشاي، ثم سلّمت عليها وقبّلت رأسها وأخبرتها أنّ والدتي قادمة في الطريق، لكنها بالكاد قالت لي:

- الله يحيّيكم.

خطفت نظرة سريعة نحو فتاة التي كانت تجلس في الركن القصيّ وعلى محيّاها ملامح من الحنق. ما إن رأتني أبتسم لها حتى قامت ودخلت غرفتها وتركتني أقرض شفتي حَرَجاً.

عدتُ إلى أمّي مهرولةً لأخبرها أنّ بيت أبي فهد يشهد مزاجاً غريباً، لكنها زجرتني آمرةً أن أدع عنّي التلصّص على حياة الناس، ثم دفعتنا، أنا وأخواتي، أمامها لنمضي لإتمام الزيارة. لم نكن وحدنا، فقد جاءت الجارة حسينة وأمّ عزّوز وأمّ فليحان ووضحى وبنات الجيران. جلسنا نحن الفتيات نراقب العروس. كانت تكبرنا بسنوات قليلة. بعد قليل تغيّر وجهها ومزاجها بعض الشيء، لكنها ظلّت تأكل شفتها وتسبح في مزاجٍ معطوب. كنّا نطمح بالحديث معها، لكنّ نظراتها لم تمنحنا سوى سرقات صغيرة. تفحّصتنا وتفحّصناها. جارتنا الجديدة نحيلة، طويلة، ممتلئة الجذع والأرداف، ولها عينان واسعتان يزيد الكحل من غموضهما مثل غابة تتشابك أشجارها وتثير أصوات الأنهار بداخلها البهجة والفضول في آنٍ واحد، لكنّ موضي التقطت نظرة مسروقة من تلك العروس الصغيرة وهي تنظر إلينا وسألتها:

– ما اسمك؟

قالت:

– فلوة.

حين تزوّجت أختي عواطف جاءت فلوة إلى عرسها مع أمّها. بدت في ثيابها مثل زائرة غريبة عن الحيّ، ثيابها حديثة ومصاغها أنيق، ولوجهها سحر الجميلات اللاتي يزيدهنّ الغموض جمالاً. مشت فلوة على سطحنا بحذائها المنقّش وبغرّتها السوداء على وجهها تخفي

شكل عينيها الواسعتين الرافضتين. طوال العرس لم تبتسم و لم تتحدّث إلى أحد. وجلست والدتها مع النساء تتحدّث في كل شيء. إلا أنني في ذلك العرس، وبحكم أنني أخت العروس، فقد حظيت منها بابتسامة. اقتربت منها وحصّة القرويّة واقفة في ساحة الرقص تتفرّج وتتطفّل على الراقصات ثم قلت لها:

- تشوفين البنت المعتوهة؟

ضحكت، ورضي قلبي بضحكها، وعرفت أننا قد حظينا بصديقة جديدة في الحيّ، سألتها بإلحاح:

- ليش ما ترقصين؟

ثم شددتها لتقف معي فرفضت، لكن والدتها دفعتها قائلة:

- قومي، لا تفشّلين البنت، عيب.

تقدّمت معي فلوة وأنا أجرّها معي نحو حلبة الرقص، في طريقي دفعت حصّة التي لوت شفتيها ثم طارت عيناها تتفحّص القادمة الجديدة. بدأت فلوة ترقص، غالبت فضولي بالفرجة عليها، وصرت أرقص معها، كان رقصها هادئاً كالنسيم، وحصّة تحاول أن تقترب منها وترقص مثلها، فأتقدّم أنا بجسمي كي أحول بينها وبين حصّة، وتصبح لي وحدي وأمنع هذه الطارئة من الدخول معنا في حلقة الصداقة التي شعرت أنها قد بدأت تنمو وتعدني بتقاسم الأسرار.

لم ترتح أمّي كثيراً لمصادقتنا لفلوة التي راحت تتّصل بي بالهاتف وتدعونا لشرب الشاي، فأمّي لا تفضّل أن تصادق الفتيات نساء متزوّجات لأنهنّ يفهمن أكثر ممّا نفهم، ويلفتن عقولنا إلى أشياء لا تزال من المحظورات. فهؤلاء المتزوّجات قد دخلن مدينة لا تدخلها

العازبات. فلوة لا تتحدّث أبداً عن أبي فهد، وكأنه غير موجود أبداً في حياتها، وقد بدا ذلك مناسباً لي؛ فهو، بلحيته التي تشبه الخنجر ولونها الأسود القاتم، لا يبدو زوجاً يليق بأن يظهر في الصورة حين تتحدّث عنه فلوة كزوج، لأنني حالما أتخيّل أنها متزوّجة فإنني أتخيّل شابّاً وسيماً مثل عيسى الحضرميّ بائع الملابس في سوق الديرة، لهذا حين ذكرت أمامي أنها تريد الذهاب إلى السوق سألتها أن نذهب سويّاً، ثم كذبت على أمّي فقلت إنّ فلوة طلبت منّا ذلك. وافقت على مضض لأنها لا تستطيع أن ترفض طلباً لجارتها، لكنها تحاول أن تكبح جماح اندفاعي لمصاحبة فلوة التي لولا أنها متزوّجة لأصبحت صديقة روحي بعد أن رحلت عواطف مع زوجها وتركتني في فراغ أوجعني حنينه، فرحتُ أكمد غيابها بالتودّد أكثر لفلوة. لكنني لا أعرف كيف تمتلك بسنواتها العشرين كلّ هذا الغموض والصمت والرفض. وما يثير الغرابة هو أن والدتها تصاحبها على الدوام وكأنها لم تتزوّج.

خرجت مع فلوة ومعنا الأمّهات إلى السوق ثم افترقنا عنهنّ، وكان أوّل سرّ أقرّ تقاسمه مع فلوة هو عيسى. قلت لها ونحن نقترب من دكّانه:

- تعالي أورّيك عيسى.

توقّفت قليلاً ثم خفّفت من غطاء وجهها فصار يشفّ عن بياض عينيها وحمرة شفتيها الساطعة من تحت الغطاء، ثم أرخت عباءتها قليلاً لتكشف عن فتحة صدرها الواسعة، فظهرت من فتحة صدرها رمّانتان متجاورتان في ثوب الدانتيل الأحمر اللامع. كانت تترك مساحة قليلة من ثيابها الملوّنة تتقدّم قليلاً على عباءتها السوداء. أصابني

الرعب فشددت من عباءتي على جسدي وزدت من اختبائي فيها. حذّثني قلبي بأن أنسحب وأعيد سرّي إلى كهفه، لكن هيهات، فقد فات الأوان.

وصلنا دكّان عيسى الذي كان مزدحماً بالنساء يقلّبن الثياب. أتباطأ، فتدفعني فلوة بحماس. وقفت عند الطاولة كالمشلولة خائفة ومرتبكة تأكلني حسرات الندم. تركتني فلوة وذهبت تتفرّج على الملابس المشدودة في علاّقات، ثم اختارت مشدّاً صدريّاً ورداءً سفليّاً من اللون نفسه والقماشة نفسها وطرحته بين يدي عيسى الذي رفع نظره سريعاً وقال لها سعراً لم أسمعه، ثم هبط به في وسط صندوق النقود يشدّ أوراقها ثم يلوي بطنها بخيط مطّاطي، كأنه يتباهى بحصيلة يومه. لم يرفع عينيه عن الأرض إلاّ رغماً عنه كلّما فتحت فلوة صدر عباءتها وانكشف دانتيلها عن حمرة الرمّان. خرجنا من دكّان عيسى وفلوة تضحك وتثرثر. أوّل مرّة أشاهد فلوة تضحك وتقول كلاماً فائضاً عن الحاجة، فقد كانت عادتها أن تتحدّث بلغة بخيلة لا ترمي إلاّ إلى معنى قصير، وأحياناً لا تزيد عن نعم ولا. عدت إلى منزلنا في ذلك المساء منهكة. أشعر بأنّ سرّي قد تبخّر وأن كهفي قد دنّس بحضور غريب وفقد سحره، حتى أنّ عيسى بدا لي ذلك اليوم مجرّد بائع حضرميّ في سوق الديرة، ورحت أداري خجلي من تلك القصّة التي عرفتها فلوة، وقلت في نفسي إنها لا بدّ أنها تضحك منّي الآن.

تفتّحت فلوة في منزل أبي فهد مثل وردة، نشرت ثياب عرسها الجديدة، وصارت تدخل المطبخ وتعدّ الطعام وتهدل مثل حمامة. تكنس البيت وهي تغنّي بمرح مثلما تفعل ممثّلات السينما اللواتي

رأتهنّ في التلفاز، فظنّ أبو فهد أنّ الطير قد ألف أسره وظنّت أمّ فلوة أنّ فلوة قد توطّنت في منزلها مثل رحم تنسج خيوطاً مع الجنين الجديد. وكما يحدث مع كلّ النساء الصغيرات، حتى أنّ والدتها تركت منزل أبي فهد وعادت إلى منزلها. وقد عرفت فيما بعد أنّ والدتها كنت تجلس عندها كي تمنعها من الفرار، فقد هدّدت زوجها منذ أوّل ليلة عرس بأنها ستفرّ وتتركه، وقد فعلت، فحين عاد في اليوم الأوّل من زواجه منها، حاملاً معه بطّيخة وجريدة، وجد المنزل خالياً، وحين جاء المغرب ذهب إلى منزل أهلها فوجدها تبكي وتطلب الطلاق. نصحته والدتها أن يتفهّم جهل الصغيرات؛ فهو رجل خبير ويعرف أنّ الفتيات يظهرن العزوف عن رجلهنّ في البداية لأنهنّ يتوجّسن خيفةً حين يتركن منزل آبائهنّ، وقد حدث الشيء نفسه لها حين تزوّجت "أبو فلوة"، قالتها وهي تضحك، ثم زادت: ويبدو أنّ الفتيات يرثن طباع أمّهاتهنّ حتى لو لم يعايشن منها إلاّ القليل، لهذا فهي ستنتقل للعيش معهم في منزل أبي فهد حتى تعتاد ابنتها عشّها الجديد.

لم تكن والدة فلوة صادقة في ما قالت، فزوجها قد هدّدها بأنه لو عاد ووجد فلوة في منزله فسيطلّقها ويكسر ظهر الفتاة. لا يصدّق أحد طباع زوجها الحادّة، فهو يحسن التباهي بكرمه وجوده وفروسيّته في مجالس الرجال، ويظنّ أنّ هذا كلّ ما يحتاجه الرجال، ولا يفهم ما معنى أن تتزوّج فتاة من رجل يختاره لها أبوها فتعود إليه في اليوم التالي، ولولا سعة صدر أمّ فلوة وحكمتها لكانت ابنتها قد اقتيدت إلى منزل أبي فهد بالعصا.

خرجت أمّ فلوة مع ابنتها إلى منزلها وتظاهرت أمام أبيها بأنها

ذاهبة فقط لتعلّم ابنتها قواعد الحياة الجديدة، لكنها كانت في الطرف الآخر تتحايل على أبي فهد أن يمنح فلوة قليلاً من الوقت كي تقبل على حياتها معه. بقيت أمّ فلوة حارساً بين الزوجين، وكانت تدفع ابنتها في الليل إلى غرفته، لكنّ فلوة طوال النهار كانت تبكي مصيرها في حضن والدتها، كانت لا تقول سوى كلمة واحدة: "ما بيه، ما بيه".

لم تنفع الكلمات الكثيرة التي كانت أمّ فلوة تداوي بها جهل ابنتها، ولم تفلح أيضاً في أن تجعل قدر المرارة أقلّ بالحكايات التي قصّتها في نهارات فلوة الطويلة. وحين وجدتْ أنّ كلّ ما فعلته غير كافٍ اضطرّت أن تقول لها الحقيقة وهي أنّ عودتها إلى منزل أهلها مستحيلة وأنّ والدها قد ربط طلاقها بطلاقها هي من أبي فهد. حينها شعرت فلوة بأنها مثل طفلة صغيرة تُركت في الشارع، وأنّ بيت أبي فهد هو البيت الوحيد الذي قبل أن يؤويها، قرّرت أن تجلس فيه تنتظر حلاً من السماء، وأخذت تصنع لها أحلاماً تقتل فيها أبا فهد كلّ يوم وتضع مكانه شابّاً صغيراً يجيد اللعب معها والحديث والغناء، لا رجلاً كلّما دنا منها اشتمّت رائحة والدها، فشعرت بمعدتها تمور وتضطرب. وهكذا حتى شاهدت عيسى فأصبحت تضع صوره بدلاً من أبي فهد.

حين اتّصلت فلوة كي تخبرني أنها ذاهبة للسوق كنت أضع لبّادة على عينيّ، فسألتني بدلال:

– هل تريدين أن أمرّ على دكّان الحبيب لأبلغه السلام؟

فسارعت بالجواب بلا. عضّ قلبي فكّ الغيرة المفترس، وذهبت خيالاتي تطلق حسراتها وأنا أراها تقلّب الثياب القصيرة بيديها أمام

عيسى الذي سيضحك لها كما ضحك مع السيّدات البدينات. وحين عادت تزورني سألتها:

- مررت بدكّان عيسى؟

قالت بسرعة وحزم:

- لا.

تغيّرت فلوة، فقد كبرت كثيراً في الأشهر اللاحقة، وكنت كلما طلبتها في الهاتف وجدت طنيناً متسارعاً يخبرني أنّ أحداً ما يتحدّث فيه مع طرف آخر.

جاءت أمّ فلوة بعد شهر تودّع أمّي، فقد حان وقت عودتها إلى منزلها، نظرت إلى فلوة فوجدت أنّ زينتها قد تمدّدت على شفتيها وخدّيها، وفتحة صدرها الواسعة كما هي تكشف عن دانتيل الرمّان الأحمر. ذهبت أمّ فلوة إلى منزلها وبقيت فلوة وحدها مع أبي فهد. ظننت أنّ هذا هو الوقت الذي ستكبر فيه صداقتنا أكثر، وسيكون فيه متّسع لأسمع فيه حكاية فلوة، وكيف تزوّجت بأبي فهد، لكنها ظلّت تبتلع أسرارها ولا تسمح لأحد أن يعرف مكمن جمالها ودخيلتها. كانت ماضية في غموضها مثل غابة.

في أحد صباحات العطلة، أخذت أعاتب أمّي بأنّ الحياة تتغيّر وأنها لا تزال مثل الأمّهات القديمات اللاتي لا يعرفن شيئاً عن قوانين التطوّر، وأنه يجب عليها أن تنظر بعين جديدة إلى بناتها وقد كبرن، وأن تصادقهنّ. أخذت أمّي تستمع إلى محاضرتي الطويلة في التربية، وحين انتهيت قالت لي:

- خلصتي؟

قلت:

- نعم.

قالت:

- قومي اغسلي الصحون. لا تطوّلينها وهي قصيرة.

سمعت صوت والدي وهو يضع صناديق الرمّان على الأرض، ويعلن أنّ رمّان الطائف قد وصل السوق، ثم طلب من أمّي أن توزّع بعضاً منه على جاراتها. ملأت أمّي بضع قدورٍ من قدورها الصغيرة بالرمّان وطلبت من كلّ واحدة منّا أن تحمل قدراً وتذهب بها إلى جارة من جاراتها. ركضت وحملت قدر فلوة وقلت: "أنا أذهب". ركضت إلى غرفتي لأحضر عباءتي فسمعت أمّي تقول:

- لا يؤذّن الظهر إلاّ وأنت في البيت.

بالكاد لمست يدي الباب، كنت أمسك عباءتي بيد وبالأخرى أمسك القدر. سمعت دمدمة أقدام تهبط الدرج قرب باب المنزل من الداخل، ثم سمعت صراخ رجل يركض، ثم فُتح الباب وقفزت منه قامة شابّ أسمر ضربت كتفه قدري، فتناثر الرمّان على الأرض، وانفتح الباب على مصراعيه مثل سرّ هُتكت أقفاله. شاهدت رجلاً آخر تعثّرت قدمه في السلّم، لكنه نهض مسرعاً ولحق بفلوة التي ركضت هي الأخرى في رواق المنزل الطويل. أمسك بها وأخذ يجرّها من قدمها إلى المطبخ وهو يصرخ فيها:

- مَن هو ملعون الوالدين هذا؟ تدخلين رجّال لبيتي! والله أن أذبحك.

صوت فلوة يصلني وهو يقول:

- ما بيك، ما بيك!

تركت الرمّان على الأرض وحملت قدري ورحت أركض. دخلت البيت ورميت بالقدر عند باب المطبخ. سألتني أمّي إن كنت قد أوصلت الرمّان؟

قلت:

- تبعثر الرمان.

دفنت رأسي في الفراش وجسدي ينتفض رعباً وخوفاً، والحزن يطوي قلبي على يده مثل طيّ قماش. لم تكن فلوة هي ما أرعبني فقط، بل عيسى، بائع السوق، الذي خرج من منزلها هارباً.

(١٥)

دوّى صوت الرعد في جنبات سوق الحريم المسقوف، وتسلّل البرق من شقوقه. انسكب الماء مدراراً على سطح السوق. وبلّل حافات البسطات، فهرعت النساء يطوين أطرافها، ويكوّمن البضائع بعضها فوق بعض. دوّى الرعد مرّات مثل أسد يزمجر ثم هدأ واتّكأ على مرفقيه، وغطّ في النوم.

لمعت جدران السوق مرّة أخرى ببرق خفيف وعادت حبّات المطر تخفق بإيقاع راقص، كقدمي طفل يلعب على الماء، ثم أخذت تتباطأ حتى تحوّل صوتها إلى ما يشبه التنهّدات. سال المطر في دروب السوق مثل دمع خجول على خدّ فتاة نسيت لماذا كانت تبكي.

في الشتاء انكمش سوق الحريم بزبائنه، وتناقص عدد المتفرّجين بلا هدف، فبكّرت النساء البائعات بإقفال بسطاتهنّ، وعدن إلى منازلهنّ عند أذان صلاة المغرب مباشرة، لم يبق منهنّ إلاّ القليل. بعضهنّ انتظرن عودة رجالهنّ ليقلّوهنّ بالسيّارات، وبعضهنّ تأخّرن في السوق لأنّ العودة إلى البيت لا تعني لهنّ الكثير.

بكّرت وضحى بالخروج، فأمّ جزاع لم تحضر إلى السوق اليوم،

وابنة أختها عطوى ذهبت مع مرافقات في القصر منذ نهار الخميس الماضي، ولا يعرف أحد في السوق لماذا لم تحضر أمّ جزاع. قرّرت وضحى أن تذهب للسؤال عنها والاطمئنان عليها، وتصلّي عندها في منزلها. اتّجهت وضحى إلى الشارع العامّ. لوّحت لأوّل سيّارة "بيك آب" بالأجرة، عندما ركبت معه عرفته؛ كان الشاب "شقردي" كما يسمّونه، يوصلها دائماً بالمجّان لأنه يتردّد على السوق كثيراً، ويشتري منها بالدين. وصلت وضحى إلى بيت أمّ جزاع الذي كان قريباً إلى السوق. نزلت من السيّارة ودخلت دهليزاً طويلاً لا يكاد يتّسع لسيّارة. تصطفّ بيوته الطين على الجانبين، المزاريب تقطر بماء المطر، ويسيل ماؤها في تيّار مستقيم يتدحرج في مجرى جانبيّ ضيّق على جانب الطريق، حمل معه غبار الأرض وقشّها وباقي قراطيس مزّقت بطونها الأمطار وعجز الهواء عن حملها. مشت وضحى، وهي ترى أطفالاً يرفعون ثيابهم ويخوضون في بقع الماء، وطفلاً آخر توقّف بفضول وسألها:

- من تبغين يا خالة؟

قالت وهي تمشي:

- بيت أمّ جزاع.

انطلق أمامها ولحقهما بقيّة الصبية.

مشوا معها خمسين متراً ثم توقّفوا أمام بيت كبير تعرفه جيّداً، نصفه حجر ونصفه طين، مزاريبه تصبّ ماءً، ونوافذه الخشبيّة مغلقة، وعلى بابه الحديديّ المطليّ باللون الأخضر ملصقات وفاتورة كهرباء مدسوسة بين قضبانه الصغيرة. دفعت وضحى الباب فانزلق قفله عن

مقبضه وانفتح. وضعت قدمها في أوّل الدهليز المظلم ولطم وجهها تيّار هواء بارد قادم من سلّم السطح. لمحت ضوءاً أصفر ضعيفاً ينبعث من غرفة في أوّل البيت على جانب الدهليز، يقابلها مرحاض مفتوح ضوءُه مشتعل. سمعت وضحى صوت سعال قادم من الغرفة، صاحت:

– أمّ جزاع.

التفتت أمّ جزاع بخوف نحو الصوت القادم، فرأت سيّدة تدخل حيّز الضوء الضعيف، كشفت عن وجهها الذي صعب عليها تبيّن ملامحه، فيما جناحا عباءتها يرفرفان مثل طائر للتوّ أرخى جناحيه وهبط من الجبل.

جحظت عينا أمّ جزاع أكثر تتبيّن القادم، لكنها لم تستطع؛ فقد أوهنتها حمّى اليومين الماضيين والأصوات التي تسمعها بين إغفاءة وأخرى، فظنّت أنّ وضحى شبح الموت جاء ليأخذها، قالت في جزع:

– مَنْ؟

سمعت صوتاً كأنه قادم من بئر:

– أنتِ طيّبة؟

هدأت أمّ جزاع عند سماعها صوت رفيقتها، فخفض جسدها من تهيّبه وهي تصارع لحظة الوعي التي أثارها دخول وضحى. استراحت قليلاً، ثم قالت وقد تبطّن صوتها بالألم:

– والله يا اختي، الحمّى تطبخني مثل جمر في مدخنة.

أشعلت وضحى الضوء، لكنّ أمّ جزاع توجّعت ورفعت صوتها المتعب:

- طفّي النور طفّيه، راسي يعورني.

أطفأت وضحى الضوء، فرسم نور الدهليز درباً واضحة نحو جسد أمّ جزاع المسجّى فوق فراش القطن، وقد أضاءه بياض شرشف صلاتها. جلست وضحى بجانبها تمسح وجهها بالماء البارد، وتدهن قدميها بالفكس لتدفأ. ونامت بجانبها طوال الليل، وحين جاء الصباح دقّ متعب الباب يسأل أمّه عن غيابها الذي أقلقه طوال الليل، فطلبت منه أن يحملها وأمّ جزاع إلى المستشفى، فجسدها لا يحتمل كلّ هذه الحمّى، وأطرافها لم تهدأ أبداً من الانتفاض، وقلبها لم يتوقّف عن النبض السريع.

نامت أمّ جزاع شهراً في المستشفى، وحضرت عطوى من القصر، ولازمت أمّ جزاع طوال الوقت. كانت تستيقظ من غيبوبتها وتسأل ويد عطوىَ في يدها: "مَن؟" فتقول لها: "أنا عطوى يا أمّي". تذوّقت طعم الأمومة أخيراً وهي تموت، تبتسم أمّ جزاع ثم تعود للنوم.

أخبر الأطباء متعب الذي ظنّوه ابنها أنّ مرض والدته لا شفاء منه، ولكن ما يمكنهم فعله هو تخفيف ألمها بالأدوية وبالصبر.

دخل متعب الغرفة فوجد أمّه وضحى تصلّي وعطوى تمسح اللعاب فوق فم أمّ جزاع وتنظّف عينيها اللتين تجمّد إفرازهما على رمشيها، وتسكب في فمها قطرات الماء والدواء.

قال متعب:

- طيّبة، إن شاء الله.

ردّت عليه وضحى وهي تنهي صلاتها:

- أبشّرك أنها بخير.

متعب ووضحى يعرفان أنّ أمّ جزاع تشارف على الموت، لكن ليس من عادتهما التصريح بالشرّ أو مقابلته، بل التخفّي عنه ومداراته. متعب مثل والدته يظنّ أن للخير والشر أذنين كبيرتين تلبّيان النداء سريعاً لمن يذكرهما، لهذا هما يقلبان الحقائق، فلو قالوا: إنّ أمّ جزاع بخير، فإنّ الخير هو الذي سيلبّي نداءهما، ولو قالا: إنّ الألم والحمّى رفيقاهما البارحة، لهرع الألم والحمّى يجيبان من جاء على ذكرهما.

سمعت أمّ جزاع صوت متعب فسألت:

- صوت مَن هذا: جزاع؟

نظرت وضحى إلى متعب وقالت:

- نعم، هذا جزاع، جاء يزورك.

نظر متعب إلى والدته مستغرباً ممّا تفعل، ووضحى عرفت أنّ الدواء الذي تتناوله أمّ جزاع يجعلها تفقد ذاكرتها فتخلط بين الأصوات ولا تدرك الوجوه، غمزت له قائلةً:

- سلّم يا جزاع على أمّك.

اقترب متعب من أمّ جزاع وأمسك بيدها، وقال:

- طيبة يا أمّي، ما فيك إلاّ العافية.

غابت أمّ جزاع مرّة أخرى وكأنها أدركت أنّ هذا الصوت ليس صوت جزاع، وتركت يدها في يد متعب مستسلمةً للكذبة الحنون التي اخترعتها وضحى.

لم تعد أمّ جزاع تسأل عن ابنها مرّةً أخرى، لكنها حرصت أن تخبر وضحى بكلّ ما تمتلكه، فطلبت منها أن تذهب إلى الناس وتطلب منهم نقوداً لها، وتذهب إلى آخرين لتسدّد دينها، ثم طلبت منها

أن تبيع حليها الذهبيّة وتتصدّق بثمنه. كانت أمّ جزاع ترتّب دنياها قبل أن تغادرها. فطلبت في آخر أيّامها أن يحضر إليها كاتب عدل، وأوصت بأن يكون بيتها لابنتها عطوى وكذلك كلّ ما تملكه من مصاغ ونقود، كما أوصتها بأن تذبح لها أضحية بمناسبة كلّ عيد أضحى تزكّي روحها، وطلبت أمّ جزاع من وضحى أن تحملها إلى منزلها.

تفرّغت وضحى لملازمة أمّ جزاع وكي تعين عطوى على العناية بها، فعطوى تسندها إلى المرحاض وتنظّف جسدها، ووضحى تطبخ لها الطعام الذي أصبحت ترفضه مستسلمةً لموتها البطيء.

نامت عطوى عند قدمي أمّ جزاع، وشعرت أنها أمّها التي فارقتها وهي طفلة، وأخذت تبكي لوعة فراقها والدتها في وداع أمّ جزاع. وفي لحظات صفو نادرة تستيقظ أمّ جزاع وتحدّثهما عن ابنها الوحيد الذي لم تعرفه، والذي أخذه والده، وهو في سنّ الخامسة، معه إلى الطائف حين طلّقها، و لم تعرف عنه شيئاً، وكيف وجدت نفسها وحيدة، حتى عوّضها الله بعطوى ابنةً لها لم تلدها. لأوّل مرّة تتحدّث أمّ جزاع عن الحبّ بلفظه الصريح وتهديه لرفيقتيها، في حين ظنّت أنها لم تعرف هذه الكلمة قط.

(١٦)

بدا ضاري مأخوذاً بذلك الجانب الآخر الذي اكتشفه عند نساء المحلّ المحبّات للغناء والطرب، وتمتّع بإغراءاته، أدرك أنّ ما عرفه عند أمّه وضحى ليس سوى كفاح يجد الإنسان فيه نفسه مضطرّاً للعراك مع الحياة، ولا مكان فيه للغناء والفرح. انغمس ضاري بصقل ذكورته مع شباب الحيّ، وتعرّف إلى آخرين يتردّدون على محلّه لشراء الأغاني وشرب الدخان، وقد وفّر له ذلك شابّاً يمتلك سيّارة. نزهات طويلة في شوارع المدينة، حيث يتجمّع أغلب الشباب عند دكاكين بيع السندويشات والعصائر في الجانب الشرقيّ من المدينة، لم تنتج أكثر من دوران باهت المعنى، وفرجة خاوية من الجدّة، منتهية بأعقاب سجائر تملأ الأرض. حتى سهرات عزبة الشباب التي تعرّف فيها على مشروب العرق المحلّيّ لم تمنحه المتعة التي عرفها مع فرقة وردة ورفيقاتها اللاتي يحيين الأفراح، فهنّ يُجدن حقن السرور في دم من يجاورهنّ. عندما دخلت وردة أوّل الأمر إلى محلّ ضاري، وضحكت، انكشفت سنّها الذهبيّة التي زادت عمرها عشر سنوات. ظنّها سيّدة تتجاوز الأربعين بينما لم تكن سوى سيّدة في مطلع الثلاثين، بشفتين ممتلئتين ووجه

مدوّر وسنّ ذهبية ضاحكة على الدوام، في حين لم تجد في ضاري سوى صبيّ نحيل لم يتجاوز العشرين، فعاملته على الدوام كصبيّ صغير دون أن تنتبه إلى شاربه الأسود الذي يزداد كثافة كلّما حلقه رغبةً منه في أن يكبر.

تضحك وردة من مماحكات ضاري، وهو يجتهد في مغازلتها، حتى توقّف عنها ومال لرفيقاتها، فصار الحديث بينهما أسهل.

قالت له وردة وهي تبحث في ألبوم بيع الأشرطة:

- ما عندك إلاّ ذا الأشرطة؟

- عندي كلّ شيء. آمري، اللّي ما هو موجود نجيبه.

قالت إنها تريد حفلات أعراس كويتيّة، فهي تجعل غناءها في الأفراح مفاجئاً، ويطرب الناس أكثر. والكويتيّون أسياد من يفعل ذلك.

فتح ضاري فمه وهو يفكّر من أين يحضر لها هذه الأشرطة، وقال لها:

- تبغين أحد بالاسم.

قالت له:

- عائشة المرطة، محمود الكويتي، الدوخي، ليلى عبد العزيز.

قال لها:

- سمّي. حاضر أجيبهم لك بكره.

راح ضاري يزور المحلاّت الأخرى ويسأل عمّا يحقّق له عند وردة مهارته، فأحضر لها ما أرادت وأخذ يسمع الأشرطة قبل أن ينسخ لها نسخة منها، لكنه جين جاءت لزيارته عاتبها على كلّ هذا الجهد في ما لا ينفع. قال لها:

- ما لقيتي غير ها الأغاني السخيفة؟

ضحكت وردة وقالت:

- السخيف والله أمّ جابتك.

قال لها وهو يضحك:

- ما سمعتي بعبد الكريم عبد القادر مصطفى أحمد؟

قالت:

- الناس تبي ترقص يا حبيب قلبي مهوب تصيح.

فكّر ضاري بطريقة يتفوّق بها على أجوبة وردة الحاضرة ويجعله صاحب الفضل فقال:

- لماذا لا تسجّلين بصوتك أغنياتك؟

فرحت وردة بهذا العرض وسألته:

- كيف؟

قال:

- أسجّل لك غناءك وأبيعه وتصيرين نجمة في غناء الأفراح.

في المجلس وضع ضاري أجهزة تسجيله والمايكرفون والسمّاعات الخاصّة بالأذن، وأعدّت وردة كلّ ما يبعث على الفرح في مجلسها من البهارات، وجلست معه وبنات الفرقة يدقنَ على الدفوف ويغنّين، وهو يضبط التسجيل وكأنه المخرج.

اشتهرت وردة بين الناس وصاروا يطلبونها في أفراحهم وهي ترفع من أجرها، لأنها تضطرّ لإزاحة طالبين قدماء مقابل منافسين جدد يدفعون لها أكثر. وصارت تحفظ لضاري هذا الجميل.

أخذ ضاري يزداد قرباً من أفراح وردة في ليالي الصيف الطويلة التي

تفرغ فيها من الخدمة والأفراح، ويجد عندها كل ما يوفّر لشابّ مثله البهجة: فتيات يرقصن، وغناء جريح في ليالي الصيف التي تتخفّف من نسائمها الحارّة بالجلوس فوق السطح، كما وجد عند وردة مشروبه الذي كان يفتّش عنه في عزبة الأصدقاء الذكور.

عندما دخلت عطوى محلّ ضاري كان سهلاً عليه أن يكبح جماح فضوله، فقد شفاه التعرّف إلى رفيقات وردة من النهم الذي تفتّح في صدره كي يفتّش عن أنثى، وعطوى التي لا تزيده إلاّ عطشاً بدت في نظره فتاة مليحة متمنّعة يحبّها الرجل ويعرف قدرها، لهذا صارت متعة الحديث معها تختلف عن تلك البهجات التي ينتهي مفعولها في صباح اليوم الآخر.

حين تقول له عطوى "وجع" يضحك، فهي المقابل لضحكة وردة ورفيقاتها، لكنّ عطوى الغرّة النافرة لا تعرف من الحديث غير مهاجمة من يحاصرها، فأخذت تهيّج في نفسه غريزة الصيّاد الذي تمتعه المطاردة وتزيد من لذّة الافتراس، لكنّ عطوى لم تكن بالطريدة السهلة، فهي رغم أنها مجرّد غزال نافر متوثّب للقفز والفرار دائماً إلا أنها تمثّل لضاري نصاعة وبراءة تثير في نفسه الرغبة في الحماية والحراسة، أكثر ممّا تثير لديه غريزة الافتراس، لهذا زار يوماً أخاه متعب بعد أن أقفل محلّه فوجده يشرب الشاهي بعد أن تناول عشاءه، وزوجته قد حملت صغارها إلى فرشهم، فيما غابت أمّه في زيارة إلى مكّة، ومزنة في بيت زوجها.

سأله متعب:

- وأنت يا ضاري ما جالك خاطر تعرس؟

قال له ضاري:

– أنا في نفسي بنت أبغاها.

سأل متعب وهو يبتسم فرحاً:

– من؟

قال ضاري:

– عطوى.

ضحك متعب حتى كاد أن يشرق بالشاهي الذي اندلق من فمه بين ضحكاته التي طالت. نظر إليه ضاري متعجّباً ثم بدأ يحنق، لكنه فضّل أن يصمت حتى تخرج كلمات متعب التي لا بدّ أنها قادمة بعد كلّ هذا الضحك. عندما رآه متعب لا يتكلّم أخذ يهدّئ من ضحكه وقال:

– نسيت وش بغيت تسوّي في أختك مزنة يوم خذت الفلسطيني، هالحين تبي تأخذ عطوى اللّي ما نعرف من وين جت ومن هي؟

نهض ضاري عابساً ثم قال:

– أنا رجّال والرجّال ما شي يعيبه!

لم ينتبه ضاري إلى أنه وقع في سخرية متعب بسبب موقفه القديم إلاّ بعد أن خرج وأخذ يمشي متّجهاً ناحية عزبة الشباب. قال لنفسه إنه رجل، والرجال لا يعيبهم بمن يتزوّجون، لكنه تذكّر أيضاً الغضب الذي كاد أن يقتل به أخته، وتساءل في سرّه: "هل كان كلّ ذلك حماقة؟".

التي سلبت ضاري عقله لم تكن سوى الفتاة التي تتردّد على دكّانه في العصاري الخالية من الزبائن أو بعد صلاة العشاء، ويفرح

كلّما جاءت تزوره، كما يحرص كلّما جاءت المحلّ أن يطلب من الصبيّ علي اليماني أن يجلس خارج الدكّان، فيفهم منه أن يحرس خلوتهما. لا تجيد عطوى شيئاً سوى أن تتخاصم مع ضاري بقاموسٍ مليء بالكلمات النابية، وضاري يضحك، فقد تعوّد على عطوى وطريقتها الفريدة التي تدلّ على قلّة خبرة في الحبّ، لكنّها محبّبة عنده ومطلوبة في الفتيات الغرّات، وطالما أنّ زائرات غيرها يشبعن فضوله وعطشه في تبادل الغرام، فقد احتفظت عطوى بمكانة فريدة عنده جعلها تحتلّ قائمة الحبّ الصافي الذي ما مرّ به أبداً.

راقب ضاري يدي عطوى النائمة على طاولة المحلّ، فاقترب منهما ببطء وهدوء يخاف أن تجفلا مثل طير، ومثلما يفعلان في كلّ مرّة، فيضع الأشرطة قرب أصابعها ويتحدّثان، حين تتحدّث عطوى بحماس ينقر بطرف أصبعه طرف أصبعها، وحين تنسى أن تجرّ أصابعها يلمس رأس أصبعها، ثم يجعل يده تلمس أصابعها الأربع. لا ينسى ضاري أن يتحدّث إلى عطوى كي يصرف انتباهها عن يديه اللتين حاصرتا يديها حتى جاء يوم شعر أن يديه قد أحكمتا القبض على أصابعها وشعر بأصابع عطوى مستريحة دون قلق، بل وتنام في دعة.

(١٧)

علّمتها أمّ جزاع طهو الطعام وغسل الثياب وكنس حوش المنزل، لكنّ عطوى لم تُحبّ هذه الحياة الداجنة ولا حتى الجلوس خلف البسطة في سوق الحريم. روحها تطير قبلها حين تأخذها أمّ جزاع إلى زيارة الدكاكين في سوق السجّاد القديم، أو إلى المنازل الكبيرة التي تبيع فيها بضاعتها. وقد فرحت أكثر حين طلبت منها أمّ سعود أن ترافقها إلى الطائف مع حملة الصيف السنويّة. هناك عرفت عطوى نساء كثيرات من بينهنّ لولوة ابنة أمّ سعود التي صارت رفيقة لها حتى تزوّجت ثم سافرت إلى الخارج. صار بين عطوى وبين الحياة التي تركتها مسافات بعيدة حتى ظنّت وهي تتذكّرها أنّ أخرى غيرها قد عاشتها، فهي تذكر ذلك اليوم الذي هربت فيه من قريتها النائية، حين ركبت صحن الشاحنة مع نساء غريبات، وأنّ ما أنقذها هو غرابتها وثياب الصبيّ التي كانت تلبسها.

انزلقت في ركن الصحن القصيّ، خلف سيّدة بمؤخّرة كبيرة، التفتت نحوها وتفحّصتها بعينين باردتين، راقبتها وهي جاثمة تطوي أعضاءها حول جسدها، ثم أدارت رأسها عنها وتركتها لوقت طويل.

خافت عطوى أن تسألها فلا تحر جواباً، فتعمّدت أن تتحاشى نظراتها بالتحديق في القاع. أخذت الشاحنة تهتزّ وهي تعبر ربوة من التراب ثم تتهادى في طريق ممهّد من الحصى، سمعت صوته تحت عجلات السيّارة، ثم هبطت تطوي طريقاً أسودَ طويلاً. شعرت عطوى بتيّار هواءٍ بارد يلفح وجهها، تطايرت على أثره عباءات النسوة؛ فقبضن بأيديهنّ عليها، وانتفخت عباءة المرأة التي تجلس خلفها فغطّتها مثل حضن ناعم حتى غرقت في النوم.

في الليل هبط الرجال والنساء وبقي الأطفال النائمون في صندوق الشاحنة، وبقيت معهم عطوى، رغم الجوع الذي يقرص جدران معدتها والبرد الذي يجمّد أطرافها. سمعت صوت الحطب يطقطق في النار وشمّت رائحة القهوة، وبين غفوة وأخرى تسمع صوت رجل يؤذّن بهم للصلاة. لم تفتح عينيها إلاّ على دفء الشمس الذي عاد من جديد، وأشرقت ليوم تالٍ. مطّت عطوى جذعها ورفعت رقبتها تنظر إلى الطريق، فلكزتها السيّدة ذات المؤخّرة الكبيرة مشيرةً إلى الأسفل، فنظرت عطوى إلى مكان يدها، فوجدتها تضع بجانبها خبزاً ملفوفاً في جوفه خمس تمرات، فأخذت تقضمه. لم تعرف كيف تشكر هذه السيّدة التي لم ترَ وجهها ولم تسمع صوتها طوال الرحلة.

وقفت الشاحنة في سوق مليئة بالشاحنات والناس وزعيق الباعة. زحفت عطوى بين قطيع الأطفال الذين زحفوا مثلها كي يصلوا إلى باب الشاحنة القصير. بدت عطوى للآخرين مجرّد صبيّ ضئيل الحجم أسمر اللون كالح الوجه لا يلتفت إليه أحد، كلٌّ يحسبه بمعيّة الآخر، فالعائلات في صحن الشاحنة ظنّوا أنها تابع لمن في القمرة، والآخرون

ظنّوا أنها مع من في صحن الشاحنة. نجت عطوى من أجرة الطريق، لكنها لم تنج من الجوع الذي داهمها من جديد. مشت في أسواق لا تعرف ما هي وأين تذهب. كسرت جرّتها وأخرجت الريالات الشحيحة منها ووضعتها في جيبها، وفضّلت أن لا تصرفها إلاّ إذا وصلت نهاية طريق مسدود.

لا تدرك عطوى خطر المكان في النهار، ولا تحسب حساب الليل. تتبع جسدها الذي يقودها بخفّة نحو الفرجة والبحث عن طعام. وعندما شاهدت امرأة تجلس في السوق وتضع إناءً مليئاً بقوارير سوداء وعلب ملوّنة تسبح في الماء وتعلوها قطع من الثلج اقتربت منها وجلست بجانب عمود منصوب في وسط السوق المسقوف، وحين قامت السيّدة نحو طفلها الرضيع تلحقه خطفت عطوى علبة برتقاليّة اللون ثم ذهبت تمشي مرّة أخرى. أخذت تقلّب العلبة الباردة، وتمسح بنداها وجهها، ثم فتّشت عن منفذ لشربها، آلمتها أسنانها وهي تشدّ قرطاسها المتين دون جدوى، وحين وجدت قشّة تشبه سكّيناً صغيرة ملصقة بها نزعتها وأخذت تخرق سطحها حتى وجدت منفذاً ليّناً انزلقت منه القشّة وفاضت بعصيرها الذي لم تتذوّق عطوى أطيب منه، وظلّت تذكره عمراً طويلاً وحفظت اسمه "سن توب" وصار مشروبها المفضّل الذي يثير في نفسها فرحاً حين تعود لتذوّقه، ويثير فيها حزناً وحنيناً إلى قريتها البعيدة أحياناً أخرى.

نامت عطوى أوّل ليلة في المسجد المفتوح قرب السوق، لم يفطن أحد إلى شابٍّ صغير الحجم يضع مئزراً وعمامة ينام مع بعض العمّال. تنبّهت حين داهمتها أقدام المصلّين، فقامت إلى دورة المياه وغسلت

وجهها، ثم خرجت تفتّش عن طعام. حين شاهدت طعاماً يقدّم لفرقة من عمّال البناء قرب السوق، اندسّت بينهم وجلست تأكل الطعام. وبعد نصف ساعة جاء رجل يلبس بنطالاً أزرق وقميصاً يحثّهم على العودة إلى العمل. وقفت معهم في الطابور كي لا ينكشف أمرها، ثم استجابت لطلب المراقب الذي أمرها بحمل قفّة ملأى بالإسمنت المعجون إلى عامل البناء وراء جدران المبنى الناقص. تحمّلت عطوى صفعات المعلّم المصريّ، ومزحات العمّال اليمنيّين الساخرة من بنيتها الضعيفة، لكنها رمت بعجينة من الإسمنت في وجه أحدهم عندما صفعها على مؤخّرتها، فهجم عليها ولوى ساعدها حتى صرخت. وتدخّل عامل آخر وخلّصها منه. هربت عطوى وهي تشعر بأنها لن تستطيع العيش مع هؤلاء الرجال، فبنيتها لا تساعدها على التصدّي لهم. قبضت نقود يومها الأوّل، ومضى عمّال البناء على ظهر شاحنة تاركين إيّاها والشمس قد تلوّنت بلونٍ يبعث الحزن في نفسها. شاهدت خيوط شعاع بيضاء تنطفئ في آخر الشارع المفتوح، وسمعت صوت السيّارات الغريب يزعق فيها حين تباطأت بقطع الطريق. مشت فوق الرصيف بمحاذاة دكاكين وقف عند بابها رجال يلبسون قمصاناً ويلفّون حول خصورهم مآزر مثل مئزرها، ويتركون شعورهم الخشنة دون غطاء. ألفت دهاليز السوق الذي لم تبتعد عنه كثيراً، وشوارعه المزدحمة بالناس. تشعر بوحشة أقلّ بينهم، تخاف الدهاليز الخالية من الناس، لذا تبقى دائماً قرب الشارع. تسلّلت إلى أنفها رائحة خبز، مدّت يدها وأخذت خبزة وخرجت. وبعد صلاة العشاء تسلّلت مرّة أخرى إلى المسجد المفروش بسجاجيد، وفي سقفه

تدور مراوح هواء تجعل النسائم أبرد. وضعت يدها تحت رأسها ثم نامت.

لا تذكر عطوى من أحلامها التي داهمتها في الليل سوى وجه أمّها ومناغاة رضيع تعرف أنه أخوها الذي لم تعش معه. تتجنّب عطوى هذه المشاعر التي تؤلمها فتقفل بابها وتنساها. لم تعد عطوى تشعر بالحزن ولا بالخوف ولا بالسعادة، هذه الكهربات العاطفيّة تؤذيها كثيراً، دفنها عقلها بعيداً، لكنها، رغم ذلك، لا تعرف إلى أين هي ماضية وإلى متى؟

في اليوم التالي خرجت تمشي في شوارع المدينة التي أفاقت ونشرت ضوضاءها الغامرة. لا أحد يعيرها انتباهاً؛ فالكلّ ماضٍ نحو هدف لا يعرفه سواه، وقد كان هذا محزناً لها ويمنحها أمناً في الوقت نفسه. مرّ بقربها رجل قصير له لحية بيضاء يضع عباءة بنّيّة من الصوف على رأسه، ويتحدّث بصوت مسموع يذكر الله فيه ويستغفر. لم ينتبه الرجل إلى وجودها قربه. شاهدت نسوة يضعن سلالاً من الخوص فوق رؤوسهنّ بتوازن مدهش بحيث تقف السلال فوق رؤوسهنّ دون أن تقع، كنّ يمشين نحو سوق مسقوف. مرّت في الشارع الكبير شاحنة صفراء تجلس فيها فتيات يلبسن عباءات سود ومن نوافذها تخرج رؤوس صغيرة، تتطاير شرائط بيضاء من شعورهنّ، ويلوّحن للناس بأيدٍ صغيرة ويبتسمن لمن في الطريق. تحسّست عطوى جيبها فوجدت بقايا خبزة البارحة، مدّت يدها إليها وأخذت تأكل منها. دخلت دهليزاً ضيّقاً تصطفّ عليه بيوت طُلي نصف جدرانها بالجبس الأبيض ونصفه الباقي حجر. لمحت رجلاً يحمل طيناً في قفّة فمشت

نحوه، وشاهدته يدخل منزلاً ترك بابه مفتوحاً، قامت بملء القفّة المطروحة على الأرض بالإسمنت ودخلت خلفه فوجدت رجلين يتعاونان على بناء جدار يطلّ على فناء المنزل، وضعت قفّتها قربهما ثم أخذت تراقبهما. لم يعترض البنّاءان على وجود عطوى، بل أخذا يطلبان منها جلب الحجارة والأخشاب من الخارج، فقد ظنّا أنها واحدة من العمّال الذين جلبتهم صاحبة المنزل أمّ جزاع للعمل معهما. لكنّ عطوى في حمّى عملها والهواء الساخن يرفع من حرارة جسدها سقطت مغشيّاً عليها وهي تحمل قفّتها الرابعة. قفز العامل اليمنيّ الذي يجلس خلف الجدار بيديه المتّسختين بالطين، وسحب الصبيّ المجهول نحو بساط الخوص المفروش في فناء المنزل، وتركه مسجّى وهو يحدّق فيه، في حين ذهب الآخر يجلب ماءً من الصنبور في كأس معدنيّة وجدها في المطبخ وراح ينثر بعضه على وجهها، وهي تسمعه يسأل: "قام؟". فيومئ الآخر برأسه أن لا.

دخلت أمّ جزاع من باب منزلها، كانت الشمس قد سخنت فعادت لتفقّد عاملي البناء اللذين طلبت من مقاول في السوق أن يبعثهما كي يبنيا جداراً لمطبخها ويضعا له باباً تستطيع أن تسدّه بوجه القطط التي تداهم قدورها وتفتّش في دقيقها وتنثر أعشابها، فوجدت الرجلين قد كفّا عن البناء، واقفين فوق رأس صبيّ صغير بدأ يتنبّه من غفوته. جلست بجانب الصبيّ وطلبت من الرجلين أن يلحقا بصلاة الظهر في المسجد، خرج الرجلان كي يتمتّعا بفرصة سانحة يرتاحان فيها. وأخرج الأوّل علبة سجائر حمراء وراح يدخّن، بينما استند الآخر على الجدار بانتظار خروج المصلّين ليعودا للعمل.

سقت أمّ جزاع عطوى منقوع الورد الطايفيّ المخلوط بالعسل، لكنها تقيّأت، فعرفت أمّ جزاع أنها تشكو الجوع أكثر ممّا تشكو مرضاً. نظرت إلى تقاسيم الصبيّ النحيل فوجدت آثار فتاة يتفتّح جذعها بمطلع رمّانتين صغيرتين، وشاهدت ضمور أعضائها، وكم كانت دهشتها كبيرة حين شاهدت بقعة دم خلفها. فتّشت قدميها ويديها وظهرها فلم تجد مصدراً لذلك الدم، فأدركت أنّ خلف هذا الفتى سرٌّ يحتاج الحكمة وبعض الحذر، لكنّ شفقة عارمة انتصرت في قلبها وهي تشاهد ذلك الجسد الضئيل ينتفض خوفاً من بقعة الدم، وعطوى تنظر إلى عينيها تسألها تفسيراً.

أخذت يد الفتاة التي أعلنت الطبيعة سرّها، ودخولها دورة الأنثى الكونيّة، دخلت بها غرفة جلوسها الباردة، وتركتها تنام. حين استيقظت عطوى قدّمت لها طعاماً ساخناً لم تتذوّق مثله من قبل. أكلت أقراص عجين سمراء مغموسة بالطماطم والبصل واللحم والخضار، وقد رشّت فوقها حبّات سوداء معطّرة تُذهب تقلّصات الرحم التي تصبّ دفق حياتها وأوجاعها. شهقت روح عطوى وهي تأكل، وعادت القوّة إلى أنفاسها الواهنة، وأضاء نور عينيها قويّاً، فرأت لأوّل مرّة مكاناً جديداً، بل إنها أدركت رعباً يتمدّد في وعيها لأنها عرفت أنها قد فارقت قريتها حقّاً وأنّ عالماً غامضاً يتهدّدها فخافت.

أحبّت أمّ جزاع عطوى وأنست صحبتها، فهي أكثر الناس قدرةً على فهم كيف يجد المرء نفسه مثل ثمرة ألقت بها شجرة، وبقيت وحدها، فلا هي قادرة على العودة إلى الشجرة و لم يحن بعد وقت

عودتها إلى الأرض. رحّبت أمّ جزاع بعطوى دون أن تعرف ماذا تفعل بها، لكنها حرصت أن تعيدها إلى طبيعتها؛ فمنحتها ثوب فتاة وشذّبت شعرها وربطته، واشترت لها عباءة وغطاء.

لم تسعد عطوى بالعودة إلى أنوثتها بقدر ما أسعدتها العودة إلى حضن الناس البشريّ. شعرت أنّ أمّ جزاع هي الروح الأخرى للخالة سعدى في القرية، وها هي تبعث معها هنا لتحميها. علّمتها الصلاة، وأرسلتها إلى سيّدة تعلّمها القرآن، وأخذتها إلى صلاة التراويح في رمضان، وجعلتها تصبّ القهوة للنساء وتسمع حكاياتهنّ التي لا تخصّ غيرهنّ. أحبّت عطوى الحكايات التي تنمو على حافّة الفناجين. فجعلتها تأنس، وروحها النافرة تهدأ، وتشرق بالرضا والسكون. لم تعد تجفل كلّما لمست امرأة شعرها ودعت لها بالهداية والتوفيق، وصارت تترك يدها في يد أمّ جزاع حين تمسّدها وتقصّ عليها قصصها الطويلة التي لا تنتهي إلاّ حين تنام. لمسات الأمومة الجديدة وتراصّ الأخوّة الرطب في صندوق حياتها الصغير خفّفا من تصلّب لسانها ويديها، ومن توتّر جذعها المستعدّ دائماً للهرب، والذي يجفل عند أوّل همسة في الخفاء أو جلبة في السوق. فقد آمنت، دون وعي منها، منذ أن اختارت أن تركب سيّارة نقل لا تعرف أين تذهب، أنها قد تحوّلت إلى قطّ برّيّ عليه أن يدافع دائماً عن نفسه، فإن لم يستطع فعليه أن يركض ما استطاع.

سعدت عطوى بأن وجدت في منزل أمّ جزاع شرشف صلاة وسجّادة حديث وفنجان. قهوة وصحن طعام مشتركاً مع أناس لم يشغلهم السؤال عمّن تكون، وحين يفعلون تخبرهم أمّ جزاع أنها

بنت أختها، وأنها جاءت تزورها من بعيد. صارت تحبّ الأدعية التي تدعوها أمّ جزاع وحين تسمعها تتضرّع: "يا الله"، كلّما قامت وجلست وخرجت من مكان، عرفت أنّ الله لا يظهر لأحد كما كانت تعتقد وهي صغيرة، لكنه يعيش في قلوب الناس وفي ضمائرهم وألسنتهم.

(١٨)

بقي على موسم الامتحانات شهران، وأنا أفتّش عن معلّمة لمادّة اللغة الإنجليزيّة. قالت لي "أبلة" سميحة إنها ستعطي البنات دروساً في الإنجليزيّة في شقّتها وإنني أستطيع أن أحضر معهنّ.

طلبت من والدي أن أذهب إلى بيت "أبلة" سميحة التي تسكن في آخر الحيّ قرب الشارع العامّ، فاشترط أن يأخذني بنفسه أوّل مرّة، وأن يعيدني فوّاز بعد صلاة المغرب إلى المنزل. مشينا داخل حارتنا حتى انتهى الطريق عند شارع الأعشى، حيث تصطفّ عمارات بطوابقها العالية، تملأ الدكاكين طوابقها الأرضيّة. وصلنا إلى عمارة كبيرة من أربعة طوابق، يشغل طابقها الأرضي مطعم كبير يقدّم وجباته في الداخل، وعند واجهته الخارجيّة يقف فرن طويل يحمل سيخَي شاورما يقطران دهناً وتفوح منهما رائحة شهيّة. دخل والدي أمامي يقلّب نظره في رخام العمارة النظيف، وهبّ حارس العمارة، بثوبه الصعيديّ وعمامته على رأسه، واقفاً من كرسيّه وسأل:

- عاوز مين يا حضرة؟

دلّنا على شقّة أبلة سميحة قائلاً:

- الدور الثالث شقّة ثمانية.

دخلنا غرفة صغيرة مصفّحة ثم أغلق بابها الحديديّ علينا، شعرت بالاختناق كأنني في قبر. دقّ قلبي بخوف، وأمسكت طرف ثوب والدي الذي ضغط زرّاً مكتوباً عليه الرقم ثلاثة بالإنجليزيّة، فسحبنا إلى أعلى، وقال:

- هذا مصعد، لا تخافي.

انفتح باب المصعد، وظهرت أمامنا ثلاث شقق مغلقة أبوابها وبجانب كلّ باب اسم صاحبه. لم أنظر إلى الاسم المكتوب، بل فتّشت عن الرقم ٨. ضغط أبي زرّاً صغيراً بجوار الباب، فسمعنا صوت عصفور يزقزق في الداخل. فتح الباب وظهر وجه أبلة سميحة تضع وشاحاً أبيض على شعرها. نظرت إلينا، فملأت ابتسامة عريضة وجهها المشرق بالمحبّة "أهلاً أهلاً يا عزيزة، أهلاً يا أفندم، تفضلوا". سارع أبي بشكرها، ولم يستطع أن يخفي نظرة الإعجاب بها. أبي يحبّ النساء الجسورات، ويطيل الحديث معهنّ إذا كانت أمّي غائبة. رأيت وجه أبي سعيداً وهو يتحدّث إلى أبلة سميحة، ويوصيها بأنها إذا احتاجت شيئاً فما عليها إلاّ أن تطلبه منّي أنا، ثم عاد وأخبرها عن مكان عمله وعن أخي إبراهيم الذي يدرس في مصر، وعاد يؤكّد مرّة أخرى: "إذا احتجتم أيّ شيء نحن حاضرون، نحن وأنتم أهل".

دخلت الشقّة وأغلقت أبلة سميحة الباب، وهي تقول:

- أبوك يا عزيزة عسل مصفّى.

سألتها عن بقيّة الطالبات، فقالت:

- محدش جيه، يمكن كسالى.

انفتحت شقّة أبلة سميحة على صالة صغيرة بمقاعد يغطّيها قماش ملوّن، أحدها طويل يظهر في أعلاه شقّ يكشف عن إسفنجة، فيما مقعدان آخران بمسندي خشب تقشّر سطح لونهما البنّيّ ليظهر لون الخشب الأصليّ. طلبت منّي أبلة سميحة أن نجلس إلى طاولة مستديرة في ركن الصالة، يحيط بها مقعدان، وتفوح من سطحها رائحة طعام قديم، وعلى سطحها بقعة جافّة لم تمسح بعد، عندما رأتها أبلة سميحة ركضت إلى المطبخ، وأحضرت منشفة بيضاء ومسحتها، ثم أعدّت فنجانين من القهوة، وتركتني أحلّ التمارين التي نسختها لي، ودخلت المطبخ تعدّ العشاء. سمعت صوت مفتاح يدور في قفل باب الشقّة، ورجل يحمل كيساً ورقيّاً يدخل. لمحت قامته الطويلة تغلق الباب، ثم تستدير ناحيتي بزيّ من البنطلون الأخضر الداكن وقميص أبيض وربطة عنق صفراء تعلوها جاكتة بنّية اللون. حين وقعت عيناي عليه كانت سميحة تركض وهي تمسح يديها بالفوطة، ثم تقول:

– أهلا يا دكتور. خُش ما فيش حدّ غريب، دي عزيزة.

تعلّقت عيناي بعينيه. نظرت إليه وقلت ببلاهة:

– دكتور أحمد!

ابتسم وهو يقول:

– السفيرة عزيزة.

نظرت أبلة سميحة إلى كلينا، وهي تبتسم.

ضحك الدكتور أحمد ثم دخل غرفته، ولم يخرج منها حتى جاء أخي فوّاز وأخذني، وحين ركبنا المصعد نسي قلبي خوف المصاعد، بل وأطلق زغاريد الأفراح المصريّة. لم أستطع أن أوقف فمي عن الابتسام.

ظلّ قلبي يدقّ دقّات غير منتظمة، ثم داهمتني حالة من البلاهة جعلتني لا أفهم أسئلة فوّاز وهو يسألني عن هذه العمارة وصاحب العمارة وأبلة سميحة، وكلّما سألني سؤالاً قلت: "مدري مدري".

أخذت أتفرّج على الحفلة التي شرع عقلي يطلق صورها في فضاء فرحته العارمة، ويترجمها بمشاهد سينمائيّة. فعلى إيقاعات قلبي خرجت سعاد حسني ترقص، والشابّ حسين فهمي يدور حولها ويلاحقها بالقبل، وفاتن حمامة تفرك يديها في ترقّب وتتبسّم مثل أخت كبيرة، ثم شاهدت جسد سامية جمال يتلوّى ووشاح الحرير يدور في يديها، ثم تخرج ساقيها من فتحات بذلة الرقص تخطو بها يميناً ويساراً، ثم تهزّ وركها الأيسر، وتهزّ حوضها، وفريد الأطرش يلاحقها، ويغنّي "جميل جمال مالوش مثال". أنا في خيالاتي وفوّاز يمشي بجانبي في الحارة حتى وصلنا البيت. سمعت صوت والدي وأنا أركض إلى غرفتي يسأل: هاه يا عزيزة رجعتي؟

دخلت غرفتي وأغلقت الباب وتمدّدت على السرير، وسمعت نفسي تقول لي: "يا محاسن الصدف".

حدّدت لي أبلة سميحة أوقاتاً مختلفة للحضور، وافق عليها أهلي دائماً، لأنّ الامتحانات على الأبواب، وسأنهي شهادة الثانويّة هذا العام. مرّة أزورها بعد العصر، ومرّة بعد العشاء، وهذه المرّة طلبت منّي أن آتيها يوم الجمعة بعد أن أتناول فطور الصباح، وقالت: "تسعة كويس؟" قلت: "كويّس كويّس".

استيقظت في الساعة الثامنة. غسلت وجهي وصلّيت. شممت رائحة البيض المقليّ تنتشر في أنحاء البيت، لكنّ معدتي منقبضة من

التوتّر والفرح. أخذت أتجرّع كأس الحليب غصباً، بينما غصّ حلقي بقضمات خبز الصامولي بالبيض. وقفت أوّل قضمة في حلقي فدفعتها بجرعة حليب، ثم توقّفت عن الأكل. ركضت إلى غرفتي لألبس ثيابي إلاّ أنّ انقباضاً في معدتي جعلني أهرع سريعاً إلى الحمّام. خرجت من الحمّام فسألتني والدتي:

– متى ستذهبين؟ ستتأخّرين على المعلّمة، ما وراها غداء تطبخه!

لبست تنّورتي الحمراء الضيّقة المشقوقة من الخلف بشقّ صغير يظهر شيئاً من ساقيّ وكعب حذائي الطويل، ولبست معه قميصاً أبيض يجعل لون بشرة وجهي فاتحاً، ثم عقصت شعري ذيل حصان، وسحبت خصلة وتركتها تتدلّى على وجهي، ورسمت الكحل حول عينيّ، ووضعت الماسكرا، ثم سحبت لوناً خفيفاً على شفتيّ ليصبح لونهما ورديّاً طبيعيّاً، رششت ثوبي برشّة من عطر إنترنتي الخفيف، ثم وضعت عباءتي على كتفيّ وغطائي الشفّاف على وجهي. قبل أن أخرج سمعت صوت والدي يقول:

– أوصلك يا عزيزة؟

رفعت صوتي قرب الباب كي يسمعني:

– لا.. بمشي.

حين خرجت شاهدت جارنا سعد، انقبض قلبي، سيرى تنّورتي المشقوقة من الخلف. حاولت أن أترك عباءتي تهبط كلها، لكن هيهات. لن تصل عباءتي حتى منتصف الساق، والشقّ بأسفل التنّورة، لكنه عاد وأدار وجهه إلى الناحية الأخرى. أسرعت بالمشي كي يبتلعني المنعطف القادم وأغيب عن مرمى بصره.

وصلت العمارة، وبدأ قلبي يبرد، لكنّ جسدي ساخن من المشي. دخلت المصعد، أطراف أصابعي باردة وأنا ألمس جدران المصعد الباردة. وقفت أمام شقّة أبلة سميحة. حدّقت في الاسم المحفور على لوح من الميلامين: د. أحمد ممدوح، هذا هو الاسم الذي لم أنتبه إليه، ولم ينتبه إليه والدي حين جئنا أوّل مرّة، لكننا حتى لو انتبهنا فآخر ما كان يخطر على بالنا أن يكون هذا الاسم هو اسم ذلك الدكتور الذي عالج عينيّ في عمارة الخزّان.

دققت الباب وعادت العصافير تصرخ وكأنها تتعذّب، كأنّ أحداً يجلس على قفصها ويسحقها. فتح الدكتور أحمد الباب، وانزوى جانباً ليترك لي مساحة خالية لأدخل، وقال:

- تفضّلي يا سفيرة عزيزة.

دخلت وأنا أبتسم وأنظر إليه. وقبل أن أقول له شيئاً كانت أبلة سميحة تسرع في مشيتها، ومعها منشفة تجفّف بها يديها، وتقول:

- تفضّلي يا عزيزة.

تشبه أبلة سميحة في شقّتها عصفوراً حرّاً، سعيداً في عشّه، يغنّي وينشر حنانه على من حوله. فهي تطبخ لأخيها الدكتور، وتنظّف الشقّة وتكوي الملابس، لكنّ الدكتور حين يدخل ويغيّر ملابسه يدخل معها المطبخ ويحمل الصحون ويقلّب الطعام، ويرفض أن تحمل الطعام عنه أو الصحون. لأوّل مرّة أشاهد هذا في علاقة بين أخ وأخته، بل بين رجل وامرأة. فأبي يحبّ والدتي، ولكن مثل رجل يحبّ من فوق السطح امرأة مختبئة في الغرف، حبّاً تراتبيّاً ملفوفاً بالأغطية، وأمّي تحبّ أبي، لكنها لا تقترب منه، تخاف أن تنكشف على نقصها الأنثويّ

المشين من وجهة نظرها، فتبقي أبي بعيداً عنها، ودائماً بينها وبينه مسافة. فوّاز وإبراهيم يحبّاننا لكن من غرف مختلفة. نحن في غرفة وهم في غرفة. حبّنا يصطدم بجدران الغرف العازلة، فيكتم صوته، ولا يظهر إلاّ في المناسبات الكبيرة أو في المحن، تماماً كما أخبرني أبي: المريض حتى يشفى، والغائب حتى يعود، والصغير حتى يكبر. لكنك إذا وقعت خارج هذه الدائرة فلن ترى الحبّ ولن تعرفه، لهذا نظنّ أنّ إبراهيم هو أحبّ الأبناء إلى أمّي لأنه المسافر، وأنا حين عميت كنت أحبّ الأبناء إلى أبي، لكنّ أبي قالها لي: المريض حتى يشفى، فهل يعني أنني حين شفيت خرجت من ضوء المحبّة أو من دائرة الاهتمام؟

أبلة سميحة تحصل على الاهتمام والمحبّة من شقيقها طوال اليوم أمامي. لو دخل الدكتور وهي منهمكة في الشرح تقول له:

– وحياتك يا دكتور تعملّنا دور قهوة؟

فيجلب لنا الدكتور قهوة.

بعد أن ننتهي من الدرس، والفنجان لا يزال عالقاً في يدي، تذهب أبلة سميحة إلى المطبخ فيدعوني الدكتور لأن أكمل فنجان القهوة معه على المقعد المجاور. يحدّثني عن مصر ويسألني:

– زرت مصر يا عزيزة؟

– لا، بس في الأفلام.

يحدّثني الدكتور عن أسواق مصر ودكاكين مصر وشاطئ الإسكندرّية المنتجع الصيفيّ، وعن السينما. قلت:

– أنا أحبّ السينما..

– عمرك شفت فيلم في السينما؟

- مرّة واحدة في عرس الحضارم.

عندما جاءت أبلة سميحة تلاشى خجلي المربك، فرحت أحدّثهم عن زواج أختي عواطف وراشد وأخته حصّة، وكيف رقصت في العرس، وكيف رقصت خالة وضحى. قالت لي سميحة وأنا أضع عباءتي على رأسي، وأهمّ بالخروج:

- بس تعرفي يا بت يا عزيزة، دمك شربات.

ضحكت وأنا أقول لها:

- الله يشرّبك العافية.

تستقبلني وهي تضحك، وتودّعني وهي تضحك. انضمّ الدكتور أحمد إلى طاولتنا فظنّت أبلة سميحة أنه يهتمّ بي، فتركته يشبع فضوله، وظنّت أنه مجرّد فضول التقرّب من فتاة محلّيّة، وأحياناً صار يتداخل معها في الشرح فتترك له الدرس وتمضي إلى المطبخ مدّعيةً أنها تركت شيئاً في الفرن. أوّل رجل أجلس معه، بعد أبي وأخويّ إبراهيم وفوّاز، هو الدكتور أحمد، ولو لم يكن هو الطبيب الذي عالجني ما كنت لأتجرّأ على الجلوس معه. بدأ يهتمّ بكلّ ما أقول: قصصي الصغيرة التي أرويها، أسئلتي البسيطة. منحني شعوراً بأهمّيّة كلّ ما أقوله، فزادت ثقتي بنفسي، وتماديت كاشفةً عن أحاديث ما كنت أظنّ أنها تهمّ أغراباً عنّا مثل أبلة سميحة وأحمد. وهما أيضاً أخذا يحدّثانني عن حياتهما البعيدة في مصر، وعن سبب مجيء أحمد مع أخته لأنها لم تستطع أن تدخل بلادنا وحدها دون محرم معها. قلت لهم إنني أيضاً لأوّل مرّة أشاهد امرأة تسافر لتعمل في مكانٍ بعيد، ومع أخ يترك بلاده وحياته وعمله، ويرافق أخته ويضحّي من أجلها. صداقة

نمت بيننا، حين كشف كلٌّ منّا للآخر القصص التي لا يرويها عادةً إلاّ للأصدقاء. نمت محبّتي لأحمد، هذا الوجه الذي ما كان لي أن أعرف أو أصدّق بوجوده لولا معرفتي بأخته سميحة. عدا هذا فإنني كنت سأظنّه مجرّد رجل غريب.

دخل أحمد مرّة علينا وأنا أدرس، ومرّة وأنا أساعد سميحة في المطبخ، ثم ونحن نشرب القهوة في استراحة قصيرة. ويكتفي عادةً بأن يرسل إليّ ابتسامة دافئة، زادت قليلاً في مرحها. لكنه دخل يوماً وفي يده شريط فيلم فيديو كبير مدّه نحوي، قائلاً:

– سفيرة عزيزة!

قلت:

– نعم.

قال وهو يضحك:

– قصدت أقول هذا هو فيلم "السفيرة عزيزة".

أخذت الشريط بفرح. الدكتور أحضر لي فيلماً، وأبلة سميحة تلحّ عليّ بمحبة لا من باب المجاملة أن أشاركهما وجبة الطعام التي تلي الدرس، لكنني أخجل من مشاركتهما بالأكل، خوفاً من أن طريقتهما المصرية تختلف عن طريقتنا، فيبدو مظهري مضحكاً أمام الدكتور.

أخذت الفيلم وخرجت، قالت لي أبلة سميحة:

– ما تضيّعيش وقتك في الأفلام، ذاكري.

مشيت إلى البيت، شاهدت أربعة من الشباب الصغار يقفون في زاوية الشارع، يدخّنون ويشربون من قوارير البيبسي والميراندا. عرفت واحداً منهم هو ضاري، لكنه لن يعرفني بالتأكيد، ظننت أنّ الشابّ

لا يعرف الفتاة التي تضع على وجهها غطاء وتلبس عباءة، وأننا كلنا متشابهات. لكنني كنت مخطئة، فحين اقتربت منهم أطلق أحدهم من الذين لا أعرفهم كلمة نحوي، فلكزه ضاري وهو يهمس "انتبه، هذي بنت عمّي أبو إبراهيم"، فصمت الشابّ، ملتزماً بالعقد الضمنيّ بين الرجال، أن يبقى كلّ واحد منهم خارج حياض الآخر ومحارمه.

"كفو والله". قلت لضاري، وأنا أضحك فضحك الجميع.

بقي على الامتحانات يومان، وأنا أفكّر في كلّ شيء: في الامتحانات والرسوب، في اهتمام الدكتور أحمد بي وما يليه، في أن تموت الحكاية حين تنتهي الامتحانات، لأنني لن أجد سبباً أذهب فيه إلى أبلة سميحة. كان الحلّ الوحيد كي تخمد كلّ هواجسي ومخاوفي هو أن أنشغل بمشاهدة الفيلم.

وضعت الفيلم في جهاز الفيديو، كانت الساعة الحادية عشرة والجميع نيام، وحين دقّت موسيقى البداية ظهر الفيلم باللونين الأسود والأبيض، وظهرت معه حكايتي حين كنت السفيرة عزيزة.

ظهر شكري سرحان في الفيلم -اسمه أحمد- رجلاً مهذّباً لطيفاً، لا ينظر إلى النساء ولا يبصبص عليهنّ، تماماً كما تحبّه الفتيات، والأهمّ من كلّ هذا أنه كان صادقاً. أمّا السفيرة عزيزة فقد كانت أختاً للجزّار المتوحّش، الذي يضرب من يجادله أو يتمرّد عليه بالساطور، ويدخل السجن عند كل مشاجرة. تلتقي السفيرة عزيزة بأحمد المدرّس المهذّب في الباص، يخبرها أنه يفتّش عن شقّة غير التي يسكنها ليهرب من السكنى بجانب الجزّار دون أن يدري أنّ هذه الفتاة الجالسة بجانبه هي أخته. يدخل الجزّار السجن في مشاجرة جديدة، ويداهم زوجته

المخاض. لا يجدون من يستعينون به سوى المدرّس أحمد الذي يركض لجلب القابلة، وتردّ له السفيرة عزيزة هذا الجميل، بأن تأخذ مفتاح شقّته المقابلة لتنظّفها وتكنسها وتطبخ له طعاماً لم يأكل مثله من قبل، وتكسب السفيرة عزيزة قلب المدرّس المهذّب، وينمو الحبّ بين قلبيهما ثم يتزوّجها. لكنّ السفيرة عزيزة تنكّد على زوجها أحمد كي يواجه أخاها الجزّار ويأخذ منه إرثها، ويرفض المدرّس أحمد المهذّب لأنه ليس طامعاً بمالها، لكنه في الأخير يضرب الآخر المتوحّش الجزّار، وينتصر عليه، ويصبح في عين السفيرة عزيزة بطلاً.

دخلت في النوم حين قبّل المدرّس أحمد زوجته السفيرة عزيزة، وكان عقلي يحاول أن يخبرني بنتيجة الفيلم كما رآها، لكنّ النعاس كان قد أطبق عليّ منافذ التفكير، ولم يسمح لأيّ نتيجة عقليّة أن تتسرّب إليه. لكنني سمعت نفسي أقول قبل أن أنام: "إنّ الحريم يفتّشن عن المشاكل". فقد تعاطفت مع أحمد الوديع، ولم أتعاطف مع السفيرة عزيزة، لأني مثله لا أحبّ المشاكل.

مرّ أسبوعان وبدأت الامتحانات. وجاء امتحان مادة الإنجليزيّة. وقفت أبلة سميحة فوق رأسي وراجعت معي أجوبتي، وكانت عند كلّ إجابة خاطئة في ورقتي تضرب بإصبعها على مكان الخطأ، وتذهب. ثم طلبت منّي أن أتأخّر في تسليم الورقة حتى خرجت جميع الطالبات، ثم أخذت تصحّح لي كلّ فعل أخطأت في كتابته حتى انتهيت. أعطيتها ورقتي، خرجت من قاعة الامتحان فوجدت الطالبات يتحلّقن حولها ويسألنها عن جواب بعض الأسئلة، قلت لها:

- شكراً يا أبلة سميحة.

في الصباح المنتظر لإعلان نتائج الثانويّة في الصحف استيقظت على نداء أبي الذي أحضر الصحف باكراً ذلك اليوم. قال:

- عزيزة.

قمت أركض لأجد أبي يقرأ أسماء الناجحين والناجحات، ثم يقول اسمي كاملاً:

- عزيزة محمد إبراهيم.

في مساء يوم السبت صرخت العصافير بالداخل، ثم فتحت لي الباب أبلة سميحة. كانت وحدها ترتّب حقيبتها، قالت:

- هاه، نجحت؟

قلت: نعم.

شدّتني إليها وحضنتني كما تفعل الأخوات، وقالت:

- مبروك، حتخشّي الجامعة؟

مددت لها المال الذي وضعته في مظروف صغير، لكنها رفضت أن تأخذه، وقالت:

- عيب يا عزيزة، إحنا اخوات.

طلب منّا أحمد أن نخرج احتفالاً بنجاحي ونتعشّى في الخارج.

لأوّل مرّة أشاهد الرياض في مساء صيفيّ متململ، ركبت في الخلف أضع غطائي على وجهي، وجلست سميحة في المقعد الأمامي تكشف عن وجهها بخمار يغطّي شعرها، بينما يجلس أحمد في المقدّمة ينظر إلى مرآته الأماميّة كلّما سألني سؤالاً. هذه المرّة لم يعد زجاج قلبه لامعاً ونظيفاً وبارداً، بل بدا رائقاً صافياً يكشف عن أشواقه الهادئة والمهذّبة والحنونة.

شوارع الرياض في الليل ساحرة، أضواء السيّارات الحمراء والصفراء تحوّل الشارع إلى مهرجان فرح. لأوّل مرّة أشاهد الناس تتسكّع بلا هدف، شباب يتجمّعون على الأرصفة مقابل الدكاكين المفتوحة يصفّرون ويضحكون، يحدّقون في المارّة ويرمون تعليقاتهم الصاخبة. وضع أحمد أغنية في مسجّلة السيّارة، فانطلق صوت عبد الحليم حافظ، "عدّينا يا شوق عدّينا". اختلط صوته بأصوات المغنّين في السيّارات الأخرى، حيث ترك الشباب نوافذ سيّاراتهم مفتوحة: صوت محمّد عبده "يا شوق"، ثم صوت سلامة العبد الله، ثم صوت عبد الباسط عبد الصمد يقرأ القرآن. وقف أحمد إلى جانب الطريق وترجّل من السيارة.

فتاة مثلي لا تعرف غير حدود حارتها، لا تعرف أسماء الشوارع المزدحمة حيث محلّات السندويتشات ونزهات الشباب. نفثت نسائم الصيف هواءها في وجهي، وتحوّلت أبواق السيّارات المستعجلة إلى إيقاعات مضحكة، لفّني صمت داخليّ وسط الضجيج. راحت أبلة سميحة تتأمّل الناس بفضول، مرّت بقربنا سيّدة تمشي بعباءتها وفي يدها طفل، ثم لوّحت بيدها لسيّارة "بيك آب"، ركبت فيها وطفلها، ثم اختفت. عاد أحمد يحمل كيساً وأعطاني سندويتشاً وعلبة من عصير طازج تفوح منه رائحة الفراولة والموز. بدأت سميحة بأكل سندويتشها، والسيّارة متوقّفة إلى جانب الطريق. رفعت غطائي عن وجهي. لأوّل مرّة يلفح وجهي هواء الشارع بنسماته الدافئة. تلفّتُّ حولي يميناً ويساراً في خوف. ماذا لو رآني أحد؟ لكن لا أحد ينظر إليّ. لا أحد يأبه بي. العالم منغمس في فرجته العبثيّة، الكلّ يتجوّل لا

مبالياً بمن حوله. ربما أنّ وجودي في سيّارة تجلس فيها امرأة محجّبة، ورجل يلبس قميصاً وبنطالاً أبعدني عن نظرات الفضول. لا يتلفّت إلي أحد كما تخيّلت، أخذت أقضم السندويتش وأمزّ من العصير. أتفرّج على الناس وكأنهم في حياة أخرى، حياة صريحة معلنة تموج بالضوء والحيويّة، بدا لي الأمر غريباً، كأنّ أحداً ما أخذني إلى عالم جديد. شعرت بخفّة هذا العالم المختلف، سميحة وأحمد يعلّقان على ما يحدث في الشارع بطرافة، وأنا أصبحت كائناً لامرئيّاً، لكنه سعيد. أحد ما اختطفني في منطاد من ورق، وتجوّل بي في الشارع وفي الوجوه. أصبحت نسمة تختلط مع الناس دون أن يشعر بها أحد أو يدفعها أحد. نسمة حرّة.

وصلنا إلى شقّة أحمد، وهبطنا من السيّارة، كانت الساعة قد بلغت التاسعة، وأنا تأخّرت كثيراً، سألني أحمد أن يوصلني إلى المنزل، لكنني رفضت بحسم.

مشيت في الشارع وحدي بينما وقف أحمد في منعطف الطريق المطلّ على حارتنا يحميني ويتتبّعني بعينيه. مشيت في الشارع الساكن سكون الموت، بعد أن عشت حياة أخرى من الأضواء والبشر المختلطة والأصوات الحيّة والساندويتشات اللذيذة والعصائر الطازجة. بدا لي الحيّ الساكن مثل مقبرة يتمدّد فيها الناس في بيوتهم وفرشهم لا يطمحون إلى شيء، وغداً يستيقظون ويعيدون الأشياء نفسها التي عاشوها بالأمس. لن يحدث شيء مفاجئ. هم أصلاً لا يحبّون المفاجآت. لكن ما حدث لي الليلة كان مفاجأة، فقد اكتشفت حياة أخرى، فيها الحبّ والدفء، فيها الضوء والأغاني المتجوّلة في الصناديق المفتوحة.

وصلت إلى باب منزلنا الموارب، دفعت الباب بهدوء ودخلت. كان والدي متمدّداً في غرفته يستمع إلى راديوه الذي ينطلق منه صوت نجاة الصغيرة "يا من يفكّر في صمت ويتركني"، والدتي مع علياء في الغرفة تتفرّجان على التلفزيون، وأختي عفاف تنام في غرفتها، وفواز كالعادة في الخارج. لم يشعر أحد بغيابي، إذ لا أحد يتوقّع بقائي خارج البيت في مثل هذه الساعة. انسحبت دون أن يراني أحد. دخلت غرفتي وغيّرت ملابسي المضمّخة بروائح الشارع التي علقت بي، فيما ظلّ أنفي عالقاً برائحة الحياة الأخرى. عبق السجائر والفراولة والمانجو وباقي العصائر، وعوادم السيّارات. نمت وأصوات الأغاني المبهجة تتراشق في ذاكرتي.

(١٩)

مساء الأربعاء يتسكّع الشباب في شوارع المدينة، بينما تتسكّع الفتيات بالهواتف المفتوحة. وحين لا يجدن مركبة تتجوّل بهنّ في المدينة، فإنهنّ يركبن قارب النجاة الليليّ، ويجدّفن في أرقام يخترعنها حين لا يعرفن أحداً، ويلقين بمراسيهنّ عند واحد من شواطئها، وإذا ما قادهنّ الوفاء إلى شاطئ المواثيق والعهود، سكنّ في مرفئه وقتاً طويلاً.

مساء الأربعاء تتنكّر الفتيات بأسماء مستعارة، ويجُلْن في شوارع المدينة الممنوعة على الفتيات عبر الحديث مع شبابها الذين يجولون فيها، تتسرّب إليهنّ روائح المدينة وضوضاءُها وروائح فاكهتها المعصورة في هذه الأحاديث، فيضحكن ويُفصحن عن أنوثة ظلّت حبيسة العباءات والأدراج والتقاليد. يفتّشن في مللهنّ عن حكايات يتشاركن الحديث عنها في الصباح.

لم يعد هناك سطح، فصار هنا هاتف، أمسى بديلاً عن السطح، وفضاءً مجازاً؛ صار مورد الماء الذي تجتمع عنده الحكايات والأسرار. بدون هذه الأسرار تصبح أيّام البنات كئيبة وخاملة، حتى إنّ بعضهنّ ينسجن حكايات كاذبة ليكسبن بها صداقات جديدة، أو يبعن بعضها

للصديقات الساذجات، تتظاهر إحداهنّ بأنها تتنازل عن رقم هاتف يسكنه شابّ متفرّغ طوال الليل للحديث غير المشروط، لكنها توصيها بأن لا يعرف من أين عثرت عليه. وأخرى تعرض على صديقاتها أن تختبر حبّ صديقها كي تعرف مدى صدقه معها، أم أنه يمنح وعوده المشابهة كلَّ الفتيات.

مساء الأربعاء يفرغ المنزل أو يذهب الجميع للنوم، فأبدأ بالحديث مع موضي بنت الجيران، ثم مع نعيمة، نخوض في بعض النميمة عن هذه وتلك، ثم أمرّ على مزنة وأسألها "وش الأخبار؟" حتى تتجمّع في صدري الشجاعة وأمرّن صوتي على قدرة القفز مسافات أبعد. يتلفّت صوتي يميناً وشمالاً ثم يعبر تقاطع الخوف مع الحرج. هذا هو الطريق الذي أرصفه لأصل إلى بوّابة الأحاديث الكبرى والمحطّة الأخيرة. يرنّ الهاتف الخفيّ عنده، وتزعق أرقامه التي صارت سبعة.

يردّ أحمد الذي عاد من عيادته وتعشّى وشاهد التلفزيون، وأطفأ الأنوار في منزله.

أطفئ النور أنا أيضاً، ويمضي الليل ساحباً رداءه فوق حديثنا الخافت الطويل.

كلّ منا يلقي بمرساته من قلبه إلى بحر الآخر، ثم نفرش بساطاً تحتنا، ونلتقط ما يخرج لنا الحديث من أصداف ولآلئ وأحجار. عبر الهاتف أزحف إليه كمن يزحف في نفق فضائيّ ليصل إلى جنّته، أمضي الليل معه نتحدّث حتى ينتهي الحديث، فأخرج من هذا النفق وأعود إلى سريري.

أحمد لا يشبه الشباب في حكايات الفتيات المركّبة، صوته هادئ في محيط يلفّه السكون، فهو يعود إلى منزله في الوقت نفسه من كلّ

يوم، ويذهب إلى عمله في الوقت ذاته. ليس لديه أصدقاء. قال لي مرّة إنني صرت صديقته الوحيدة.

في الأحاديث بيننا نَمَتِ القصص والحكايات، قرأ لي الرسائل التي تصله من القاهرة، يقلّد لهجتها القاهريّة أو الصعيديّة ويضحك معي. عالمه المختلف شدّني، وعالمي المختلف جرّه إليّ. صرنا نتنقّل بين عالمين من خلال هاتف ليليّ أو عصرانيّ، جعلا من الحياة أجمل، ومن الوقت أرهف حسّاً وحيويّة.

مرّة غضبت فأغلقت الهاتف في وجهه، فصار يتّصل وأرفع الهاتف وأغلقه مرّة أخرى، و لم يكن أعذب من حبّه إلاّ مراضاته، حتى إنني صرت أتعمّد الغضب منه كلّ شهر حتى يراضيني، لكنه يعرف متى أغضب حقيقة، ومتى أمثّل الغضب، لا يبخل عليّ أبداً بالمراضاة، بل صار يذكّرني حين يمرّ شهر دون أن أغضب أنني نسيت عادة الغضب الشهريّة.

ذات يوم سألني أحمد أن أزوره الأربعاء. فأجبته أنني سأفكّر.

لم أكن أحتاج إلى تفكير طويل، لكنني كنت أحتاج إلى مكانٍ آمن.

قال:

- عندي في العيادة.

داهمني أرق طويل، طرق قلبي طويلاً حتى جافاني النوم. كنت مثل أرنب وقع في مصيدة. وعندما فتحت الراديو سمعت فايزة أحمد تغنّي "يا حبيبي يا حبيب الأربعاء"، شعرت أنّ فايزة أحمد قد قرأت قدري القادم، ورسمته وجعلت له عنواناً، أن يكون لي أنا الأخرى حبيب الأربعاء.

استيقظت في الصباح وقد تحلّقت حول عينيّ هالات سود من قلّة النوم، وبدا جسدي ضعيفاً لأنّ معدتي قد امتنعت عن الطعام. أكل الجوع والتعب كلّ طاقتي.

خرجت من الجامعة وذهبت لمقابلته في العمارة نفسها التي جئت إليها أوّل يوم. صعدت المصعد الذي صعدته مع والدي حين دخلت وأنا عمياء لا أرى شيئاً. ما بعد الظهيرة لا أحد في العيادات، الكلّ ذهبوا في ساعة غداء أو رحلوا ولن يعودوا حتى الرابعة عصراً. على جانب باب العيادة زرّ صغير ما إن ضغطته حتى سمعته يعزف مثل أصابع البيانو. فتح لي أحمد الباب ثم أدخلني غرفة فيها مقاعد وأجهزة فحص. ذهب لصنع القهوة ثم عاد وجلس بجانبي.

كنت قد بلغت من التعب درجة أحسست معها أنني كنت أنتظر متى أخرج لأرتاح. لكنّ الخوف غادرني بعد الدقائق الخمس الأولى. اكتشفت أنني لم أكن خائفة من اللقاء، بل من كلّ ما قد يحول بيني وبين هذا اللقاء، من أن يعثر عليّ أحد وأنا في قصّة حبّ تختار غريباً.

وعندما حدّثته عن خوفي قال لي:

- كل الفتيات في سنّك لهنّ حبيب.

قلت له:

- حتى سميحة؟

ضحك وقال:

- لن أفتّش في قلبها متى ما اختارت حبيباً، لكنني سأقف معها من أجل أن لا تفقده.

عندما أنظر إلى عينيه أعرف أنه يحبّني وأنني أحبّه، لكنني لا أفهم

لماذا أحببته إلى هذا الحدّ. هل هو احترامه البالغ لي، أم حنانه الغامر، أم أنهما الاثنان معاً؟ أجد الجلوس معه لساعات مسلّياً، فهو قادر على فعل أيّ شيء يجعل الوقت يمضي أكثر بصحبتي، وقد مضت ثلاثة أشهر على لقاءاتنا، وأحمد لم يزد على لقاءاته معي بأكثر من تقبيل يدي حالما أقف مودّعة إيّاه. مع أحمد حظيت بقصّة حبّ تشبه حكايات الحبّ التي تفتّحت عيناي عليها في الحارة. أحملها معي كما أحمل دفتر مدرسة مليئاً بالأسرار، وأتوق لأن يشاركني أحد الحديث فيه ومعه. ليس للأسرار مذاق دون مشاركة. تستطيع أن تقيس دقّات قلبك وأنت تمرّرها للطرف الآخر، وتراقب دهشته. لا تعرف قيمة الأسرار إلا حين تتّسع دهشة صديقتك وتفتح عينيها على وسعهما وتقول: "كذّابة! احلفي".

عند هذه النقطة الهامّة من السرّ تتلمّظ؛ تشعر أنك قد لمست الحدّ الأعلى في امتلاكك سرّاً غريباً ومميّزاً.

بلّل موج الحبّ أطراف القلب في بداياته ثم غمره كله. رحت أغوص في بحره وأكتشف الأسرار الجميلة التي لا يراها عادةً من يمشي قرب الموج، ويرفض الدخول خوفاً منه.

يأتي الحبّ في بداياته خفيفاً، ملتهباً مشوّقاً، واعداً بالفرح والسعادة، لكن ما إن يوغل الوقت فيه حتى ينبت للحبّ رأس كرأس إزميل يغوص في القلب، ويصبح مؤلماً كلّما دقّت الأيّام أعمق. شعرت برأس إزميل الحبّ يجرح شغاف قلبي، حين أخبرني أحمد أنه سيسافر في إجازة إلى القاهرة وسيمضي شهراً كاملاً.

وأنا أمشي في المنزل بعد حديث طويل مع أحمد، وإذ بصوت

يلاحقني لا يشبه صوتي، بل صوت أختي عواطف يقول لي: "ماذا تفعلين أيّتها المجنونة؟"

شعرت بالرعب من هذا السؤال. التفتّ خلفي فلم أجد أحداً، لكنني سمعته قادماً من باطني، حيث تجلس عواطف تهزّ طفلتها بيمينها، وتتصفّح بيدها الأخرى مجلّة نسائيّة. أجبتها: "بصراحة أنا أحبّ مصريّاً". ما إن سمعت كلمة مصريّ حتى سقط قلبي على الأرض وتكسّر، كأن أحداً أخبرني قصّة امرأة أخرى غيري. اختفت عواطفي من مخيّلتي، هربت هي الأخرى فزعاً، لأنّ الأمر بدا غريباً عندما عرفته لتوّي، لكن ما كنت أعيشه كان شيئاً بسيطاً وعاديّاً، بل أكثر من معقول، لكنّ كلّ هذا لم يغيّر من حقيقة أنه غريب وبعيد، ولا يمكن أن يتقارب قدرانا أو يتقاطعا إلاّ في الأحلام، ومجرّد التفكير بأنه قد يصبح زوجي أو يدخل منزل أبي لخطبتي فإنّ الحديث عن حصول كارثة أكثر واقعيّة من هذا.

أبعدت هذا الصوت الذي يفزعني. قلت لنفسي: إنني يجب أن أبقى في المكان الذي يريحني حتى ولو كان مملكة من خيال؛ الخيال نفسه الذي نما في السطوح، حين لم أجد قصّة حبّ هناك. يبدو أنني بحاجة إلى الخيال لأفرح، طالما أنّ واقعي بخيل وفقير، لا يطفئ أشواقاً ولا يلهبها. كلنا سنصحو يوماً على هذا الواقع الذي لا يعجبنا. المهمّ أن يمتلك المرء يوم أربعاء وحبيباً فيه، مثلما تقول فايزة أحمد، ورحت أغنّي: "يا حبيبي يا حبيب الأربعاء".

(٢٠)

قرّرت أن تواصل حياتها الرتيبة في بيت زوجها، فقواعد الحياة المستقيمة بالنسبة لها هي أن تغسل وتطبخ وتلد وتزور الجارات. لكن حين منعها من الخروج إلى الجارات اهتزّت قاعدة من قواعد حياتها وتكدّرت، وأخذت تبكي طوال الوقت، فعاد وسمح لها أن تزور فقط جارات والدته المقرّبات.

الجازي لا تبذل مجهوداً كبيراً لتعرف سعد، فهما يتعارفان بغريزتهما التي تدفع أحدهما نحو الآخر في الفراش، حين تقترب منه تفتّش عن حنان أو حبّ، ينهرها فتخجل من كشف أشواقها له، وحين يقترب منها تضحك ضحكتها الهشّة، وتعود إلى حدودها الباردة، فتعرف أنّ كلبها جائع.

هي تسمّي الرجل كلباً، وتظنّ أنّ فخذيها مجرّد لحمة يشتهيها الكلب حين يجوع، ثم يعود يزمجر عليها ويتنمّر. تنغمس الجازي في حبّ عائشة ابنتها، وتجد فيها عوضاً عن كلّ حياتها التي يتركها سعد خالية، ويغيب أيّاماً وليالي. حتى والداه صارا يجدان في حفيدتهما عزاءً في غياب سعد وتقلّباته، ويأملان أن يمتلئ بيتهما أحفاداً ويصبحوا

أطناباً تشدّه لبيته فيستقرّ ويكفّ عن الغياب.

كره العمل مع والده في محلّ بيع الخضار لأنه لا يمتلك سماحته ولينه اللذين يحتاجهما التاجر في السوق، و لم يطمح أبداً في العمل الحكوميّ لأنه مال حرام، كما قال له شيخه، لذا حوّل سيّارته بيك آب إلى سيّارة أجرة تحمل ركّاب سوق الديرة، وقد كان السائق الوحيد الغريب الذي يلزم الصمت مع راكبيه، فلا يغريه طول الوقت، ولا يقوده الفضول لمعرفة خفايا هؤلاء الناس المختلفين عنه الذين يركبون معه ويهبطون. يركب معه العجائز والشيوخ، الشباب والشابّات، العازبون والعائلات هم الذين يملكون خيار الحديث من عدمه، يتحدّثون ما يشاؤون أو يصمتون. بعضهم لا ينظرون إليه ولا يحدّقون في وجهه ولا تلفتهم لحيته الطويلة لأنهم فقط يتحدّثون، المهمّ أن يقطعوا الطريق بالأحاديث العابرة، عن زيارة متكرّرة للمحكمة والمملّة بلا أمل، أو مراجعة طبيب بلا يأس، أمور تكاد أن تتشابه من فرط ما سمعها. نادراً ما ينتبهون إلى صمت هذا السائق، وإلى غرابة كونه شابّاً صغيراً على هذه الهيئة والجمود، لكنّ المتعبين لا يتأمّلون ما حولهم، تشدّهم المأساة إلى داخلهم، وحين يجدون مقعداً وجواراً تنساب منه حكايات بؤسهم دون توقّف. لا يأبهون لمنظره الواجم ولا يهمّهم صمته الطويل غير الحافل بالمقاطعة والأسئلة. لكنّ سعد يتوتّر حين تبادره امرأة بالحديث معه. تسأله النساء مرّات عن الطريق، ومرّات يسألنه إن كان متزوّجاً، وتمازحه كبيرات السنّ قائلات: "عندي بنت بأجوزها لك". لا يضحك سعد ولا يبتسم، صوت المرأة الذي يتعرّى عنده مثل جسدها، وهو يعتبر حديث المرأة

مع الرجل من نقص الحياء، يخدشه الحديث مثلما يخدش جسدَها اللمسُ، يعرف أنّ الشيطان يسكن بالجوار يتحيّن أيّة فرصة فيعمى القلب كما يعمى اللسان. يجيب باقتضاب. يعجب من هؤلاء النسوة اللواتي يخرجن للحياة دون حماية، وكيف يسمح لهنّ رجالهنّ بهذا. لم يحرّكه الفهم لمعرفة من أين جئن ولا أين يذهبن، ولا يضجره الوقت الذي قد يطول أحياناً حين يمتدّ المشوار. لكن كلّ هذا لم يكن يغيّر من قدر أجرته التي يحرص أن يكون صوته واضحاً حين يطلبها. رغم هذا لا يكسب مالاً كافياً، ويضطرّ لأخذ مبالغ زهيدة من والده في بعض الأحيان، لأنه يتطوّع لأيّام كثيرة من الشهر لحمل جماعة المسجد إلى بعض مشاويرهم، ولا يتردّد أبداً في وضع سيّارته تحت إمرتهم حين ينوون السفر إلى مكّة المكرّمة لأداء العمرة، فكلّما طال السير تتكثّف الحسنات، وكلّما زادت المشقّة عظُم الأجر. ظلّ والده يمدّ زوجته وابنته عائشة بالمنزل والطعام ويقدّم بعض المال في بعض الأحيان، يقول لها إنها "كسوة حفيدته عائشة"، لكنّ الجازي لا تأخذ النقود، وتكتفي بما تمنحها أمّها وضحى في العيدين: الأضحى ورمضان. فهي لا تحتاج الكثير وعائشة الطفلة لا تطلب أكثر من رضعاتها التي توفّرها لها من صدرها، لذا كانت الجازي وطفلتها حمولة خفيفة لم يشعر بهما سعد و لم ينتبه أنّ والده قد حملهما عنه.

مع جماعة المسجد كان سعد يفتّش عن أخوّة تعوّضه فراغ طفولته، وقد وجدها في عائلة كبيرة ضاجّة بالحياة والمغامرات الحماسيّة وقصص الإيثار، على عكس منزله البارد الغارق في السكون.

عاد سعد يسأل والده عن أصول قبيلته وجذورها، ويسأل الجازي

عن قبيلتها ونسبها. صار يفتّش عمّا يميّزه عن الآخرين، كي يشعر بتفوّقه عليهم، إما لأنه أقلّ تمسّكاً بالدين أو أدنى منه في النسب. صار يسمّي نفسه باسم قبيلته لا باسم عائلته، شعرت الجازي أنّ سعداً قد أصبح مغروراً متكبّراً، لا يحدّثها إلاّ عن الجهاد ضدّ الكفّار الذين سُمح لهم بالدخول إلى البلاد وأنّ الوقت قد حان لأن يأتي رجل لإصلاح ما فسد في جزيرة العرب، وأنّ ما حدث فيه هو علامات على قرب ظهور المهديّ المنتظر، والبشارة تقول إنه سيخرج من قبيلة قريش، واسمه يشبه اسم الرسول القرشيّ محمّد بن عبد الله. سيظهر في فجر القرن الجديد وقد بات قريباً، فقد كنّا في العام ١٣٩٩ حسب التقويم الهجريّ، وستدين له الناس بالطاعة، وتجتمع عليه.

اختفى سعد مرّة أخرى مع جماعة المسجد، لكنه عاد بعد عشرة أيّام سعيداً متهلّلاً يحدّث والدته عن بشائر ظهور المهديّ في أحلام الصالحين من الرجال، وتحقّق آيات خروجه القريب. استراح سعد لأنّ نهاية عذابه قد لاحت. شعر برغبته في اختصار حياته، وداهمته أشواق الرحيل عن دنيا المعاصي الفانية، تُهديه آماله كلّ ليلة سبعين حوريّة في النعيم، لن يعذّبه الجلاّد حين يطفئ معهنّ أشواقه. أصبح النوم في الآخرة ووعودها الرحيمة أحبّ إليه من الحياة في هذه الدنيا التي عانى فيها غربة طويلة وقاسية، قلّة من الناس من يرى في وجوههم علامات الأخوّة والرحمة والشفقة به.

سمع سعد جماعة المسجد يتحدّثون عن الفتن المنتشرة في الأحياء القريبة منهم، الشباب الذين يدخّنون ويستمعون للهو ويلعبون كرة القدم ويمارسون لعب الورق وينصرفون عن الصلاة، والحكومة التي

سمحت للكفّار بدخول جزيرة العرب، وسمحت ببيع الموسيقى والتصوير ووضعت صور الملك على العملة الورقية، كما قال له الشيخ عبد العزيز، وهو شابّ مثله لم يتجاوز الثامنة عشرة، بينما هم خير أمّة أخرجت للناس، ليس عبثاً بل لأنهمِ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأنّ المسلم مكلّف بتغيير المنكَر.

خرج سعد يمشي متّجهاً نحو بيته وكلمات الشيخ ترنّ في أذنه وتكبر في خيالاته فلا يستطيع أن يضبط جماحها، فتنفخ كلّ ثانية، ولا يستطيع فكّ قيدها الذي يسرف كثيراً في المضيّ به بعيداً، بحيث بدت له الحارة وهي تسبح في نيران جهنّم، ورأى وجه أمّه وأبيه يستغيثان، وزوجته وابنته تصرخان. فتّش عن نفسه فوجد نفسه يرزح تحت صخرة مهولة الحجم وهو يتعذّب ويبكي لأنه تقاعس عمّا كان يلزمه حين كان في الحياة الدنيا، بل شعر أنه مسؤول عن هذا الحريق في الحارة لأنه لم ينقذها من خطاياها، شعر بنسمات حارّة تمرّ على خدّه فتنبّه من خيالاته فزعاً، إذ ظنّ أنها حقيقة. ارتاح عندما تحقّق من أنه لا يزال حيّاً يرزق، لكنه كره هذا الشعور المتقاعس والفرجة على ما يجري. منذ انتظم مع جماعة المسجد وهو يكره شعور الراحة الذي يعقبه الخوف في كوابيسه. يستيقظ ويجد نفسه لا يزال حيّاً، يتمنّى لو كان يملك روحاً شجاعة تغامر وتذهب إلى الموت دون تهيّب. يتمنّى لو كان يمتلك روح المحاربين الذين سمع عنهم، الذين يبقرون بسيوفهم بطون الأعداء ويجزّون رقابهم ثم يصيحون عالياً: "الله أكبر". تمنّى لو يكون ممّن يكرهون الحياة لأنهم يشتاقون للشهادة، ويعذّبهم بقاءُهم سالمين، فقد سمع من شيخه الكبير أنّ من لم يغز و لم

يحدّث نفسه به فقد مات على شعبة من النفاق. حاول عقله أن يرسم له صورة الأعداء فلم يخطر له سوى وجه متعب، متعب الذي ضربه وأهانه وجعله صغيراً، ليس في خياله بل وفي خيال الجازي زوجته التي عادت إلى منزله، راضية بعقابه ومزهوّة بأنّ خلفها أخاً ينتقم لأخته ويحرسها، فكيف يستطيع أن يؤدّبها بعد ذلك ومتعب وراءها، ولو شكته له لجاء مرّة أخرى وضربه.

حين عاد إلى منزله رأى والدته تهرع مسرعةً تقفل الراديو وتقول كلاماً كثيراً مثل أنّ الطفلة عائشة تلهو بالراديو وتتركه مفتوحاً. كان صوت فوزي محسون "سبحانه وقدروا عليه" هي الكلمة الأخيرة التي استطاعت النفاذ إلى فضاء الأثير. كادت والدته تتعثّر وهي تركض، وهو شعر بالحمّى تصهد جبينه وغضب محموم يصعد إلى رأسه. جماعته تحارب اللهو في الخارج وهو يجده في منزله. هبّ مسرعاً نحو جهاز الراديو الأسود الصغير القابع في جوف جيب من الجلد مثل رضيع في مهده، وقد برز لاقطه المعدنيّ مرفوعاً، فجرّه ورفعه كما عدوّ في معركة إلى أعلى رأسه، شعر به ثقيلاً وشاهد ظلّه الأسود يمتدّ فوقه مثل شبح للجحيم، ويكبر ويسنّ مخالبه نحوه، ورغم خفّة الراديو إلاّ أنّ سعداً شعر أنه يدخل في حرب مع جنود اللهو الذين عاشوا منذ اخترع ماركوني الراديو ونشر آثامه التي تهدّد بصبّ الحديد في آذان اللاهين الضعفاء أمام ترّهاته وعجائبه، وصرفهم عن الصلاة وعن ذكر الله، حتى صاروا حطباً لجهنّم ووقودها. رمى به كمن يرمي بقطعةٍ من نار على جدار المنزل بكلّ قوّة، فسمع الجهاز يتحطّم في قلب جيبه الجلديّ ويلتوي لاقطه وينكسر، إلاّ أنّ حشرجةً عادت تصفر وتقول:

"سبحانه وصرتوا كبار" فركل بقدمه رأس الراديو من جديد فتكوّم تحت قدمه مثل فأر صغير يحتضر تاركاً بعض حديده يتناثر في جوفه حتى اختنق به.

لم تنفكّ الجماعة تتحدّث عن اللهو المنتشر في البلاد، والذي فتن الناس عن دينهم، وسيكبّد المسلمين المتقاعسين عن إصلاحه العقوبة إن لم يبادروا ويحاربوه. ولأن سعد كان مرتاحاً لأنه طهّر منزله من تلك الملاهي، فقد صار أكثر جرأةً، ويتقدّم ويشاركهم الحديث والتنفذ في إصلاح ما يسعون فيه بيدهم وكلّ ما استطاعوا فعله. ومن قبيل ذلك محاربة الدكاكين التي تبيع الملهيات والتنكيل بها إذا لم يردع أصحابها النصح وتحويلها إلى محلات للدعوة والأحاديث. ولم يكن سعد بمنأى عن هذا السلوك عندما صار محل مسؤولية، وذلك بالتحرك لتغيير محل شقيقي زوجته. بدايةً عمد إلى مراقبة المحل ومشاهدة الزبائن وتحركاتهم، وذات مساء نقل إلى الشيخ عبد العزيز كلّ الملاحظات التي وجدها، وأجاب عن جميع أسئلته دون أن يعرف غرضه منها.

في ذات الليلة شعرت الجازي بحركة بجوار المجلس الذي ينام فيه سعد، إذ سمعت الباب يقرع وسعد يخرج ويفتح الباب، ثم سمعت همهمة ضيوف الليل ويختلط بها صوت سعد دفيناً وغامضاً.

سمعت: "هل تجهّزت؟... لا بدّ مثلك أن يكون شجاعاً أنت الذي ستأتي معنا سيعاقبك الله قبلنا إن سكتّ وتقاعست. كل شيء جاهز لا تقلق".

لم تعرف الجازي لمن هذان الصوتان بينما بقي صوت سعد خافتاً، خمّنت أنه خائف لأنها تعرف سعد. وبعد دقائق سمعت الباب يُغلق.

دارت ناحية المجلس ووجدته خالياً، والنور قد ترك مضاءً وكتبه تفتح صدرها لأحاديث كثيرة لا تفهمها.

دخلت غرفتها ثم لا تدري كم مضى من الوقت، لكنها حين فتحت عينيها، كانت الشمس في السماء تجرّ معها سحباً بيضاء، وهبّات نسائم دافئة. سحبت يدها من تحت جسد طفلتها، وخرجت تتفقّد سعد. النور لا يزال مضاء ونوافذ المجلس مغلقة، تحركت بخفة وهدوء، فوجدته متكوّماً على فراشه مثل جنين يرقد برحم أمّه في قميصه القطنيّ التحتانيّ، وسروال قطن طويل، وقد ترك بجانبه ثوبه تفوح منه رائحة وقود، ويديه ملوّثتين ببقع سوداء كالفحم.

شعرت الجازي بأنّ سعداً قد ازداد غرابة ومضى في طريق لم يعد بالإمكان إعادته. لا يشبه هذا النائم في فراشه إخوتها ولا رجال الحارة. تزوّجته شابّاً دون العشرين، لكنه مشغول بمعارك لا تعرف مع مَن؟ تبدأ بنفسه لكنها لا تعرف أين تنتهي. على الدوام غاضب ومتجهّم، ولولا أنها سمعته مرّة يضحك مع ضيوفه في مجلس الرجال، ولولا أنها رأته يبتسم مع الرجال الذين يقابلهم عند باب المنزل، لظنّت أنه رجل لا يعرف الضحك أو الابتسام!

(٢١)

تغيّرت مزنة بعد زواجها، لكنها احتفظت بألقها ومرحها وإقبالها على الحياة وزينتها. لم تعد تشبه نساء سوق النساء القديم، صارت تلبس ثياباً حضريّة وقصّت ضفائرها ووضعت في أذنيها أقراطاً من الزمرّد الأخضر. زرتها فقدّمت لي قهوة سوداء، وأشعلت والدة زوجها أمامي سيجارة قدّمتها لي قائلة: "بتدخّني؟". لبست مزنة ثياباً قصيرة، وتورّد وجهها من خلال شعرها القصير الذي قصّته حين سافرت في الصيف مع أهل زوجها إلى بيروت. أظهرت لي ألبوم صور ملوّنة لها ولعائلة رياض وأقاربهم يجلسون قرب بحيرات وأنهار وأعمدة هائلة الأحجام تسمّى بعلبكّ... في الصور كان النساء يختلطن بالرجال ويدخّنّ الأرجيلة ويلبسن ثياباً قصيرة. تحوّلت مزنة البدويّة إلى سيّدة قمحيّة وسط نساء بيض يطرين دائماً سمرتها بقولهن: "يقبرني هالسمار الحلو". فاجأنا رياض بدخوله علينا دون أن يدقّ الباب، ثم ركض نحوي، ومدّ يده يسلّم عليّ: "مرحباً... زارتنا البركة يا عزيزة" وخرج، ثم دخل والده أيضاً مرحّباً. تجمّعت كلّ العائلة حول ضيوف مزنة، وأحاطوني بفضول، لكن بمحبّة وترحيب غامر. لم يفطنوا أنّ

نساءنا لا يختلطن مع الرجال، ولا يفهمون لماذا بقيت وضحى حين دخلت علينا تالياً ببرقعها على وجهها طوال الوقت.

مع الوقت تعلّم رياض ووالده أن يبقيا خارج المكان حين نزور مزنة بسبب حادثة أمّي. فذات يوم وفيما نحن نزور أمّ رياض جلست أمّي كاشفةً عن وجهها تشرب القهوة التي أحضرتها معها. صبّت فنجاناً لأمّ رياض وآخر لمزنة. دخل أبو رياض كعادته هاشّاً باشّاً بضيوف مزنة فما كان من أمّي إلاّ أن أدارت وجهها وهي تولول:

- هو هو هو، وش ذا اللّي دخل علينا؟

قالت أمّ رياض:

- يا تقبريني، هذا أبو رياض.

أدار أبو رياض وجهه وراح يحدّث أمّي وظهره تجاهنا:

- كيف حالك يا أمّ إبراهيم، زارتنا البركة، هيدي والله الساعة المباركة.

وأمّي تردّ بصوت مخنوق يكاد لا يسمع. ذابت أمّي خجلاً وهي تقول:

- الله يسلّمك.

ثم غرقت في لهاث خفيّ، تتصبّب عرقاً وجهداً وهي تقاوم، لأوّل مرّة تتحدّث إلى رجل غريب وشاميّ. سمعت صوت المؤذّن ينادي لصلاة المغرب، فوقفت فجأة قائلةً:

- ما عاد إلاّ خير بروح أصلّي في بيتي.

- بكّير!

قالت أمّ رياض:

- صلّي عندنا هون.

قالت أمّي:

- لا، هالحين يجي أبو إبراهيم ييي من يزهب عشاه، مشينا يا عزيزة.

في الطريق سمعت أمّي تحدّث نفسها وتقول:

- الله لا يخزينا، دخل علينا الرجال وكشف عورتنا.

قلت:

- وكأن الرجّال شافك بلا ثياب.

قالت:

- وش بقى؟ شاف وجهي خلاص.

- شاف وجهك، هذا أنتي قلتيها، وما شاف إلاّ وجهك.

- عنبوك أنتي صاحية والوجه مهوب حرام، الله لا يخزينا عسى ما تزلزل بنا الأرض.

قلت لها:

- يا أمّي، أبو رياض نظره على قدّه، ولو كان شافك صدق كان طلّق مرته وخذاك.

قالت أمّي بغضب:

- أها عاد خلّي عنك الخرط الفاضي.

ثم راحت تستطرد:

- لو دري أبوك وش يقول؟

قلت لها:

- يمكن ينتحر.

لم تسمعني. غرقت في خيالاتها الخجولة، ثم قالت:

- عزيزة، لا يدري أبوك!

حين دخلنا المنزل ذهبت أمّي إلى الحمّام تتوضّأ، ودخل والدي بعد صلاة المغرب وأمّي على سجّادتها تصلّي، وأنا قد أنهيت صلاتي. سألني:

- هاه، رجعتوا؟

فقلت بصوت منخفض:

- أبو رياض شاف وجه أمّي اليوم.

لكنّ أبي قال بصوت لا شكّ أن أمّي سمعته:

- وش ذا الكلام يا عزيزة؟

فقلت:

- والله يا بوي أبو رياض دخل علينا وأمّي كاشفة وجهها.

فضحك وقال:

- أكيد ما عرف أن قدّامه أحد.

لم أردّ لأن والدتي قد أنهت صلاتها وهي تسمعني، اكتسى وجهها خجلاً، حملت فردة من نعال كانت بجانبها ورمتني بها، لكنها طارت في الهواء، ثم نهضت تحمل الفردة الأخرى من الحذاء تلحقني، وأنا أهرب، وهي تقول:

- يا الملقوفة، ما قلت لك تسدّين ثمّك وتسكتين.

نظر إليها والدي ضاحكاً، ثم صاح يمتدحني:

- بنتي تغار لأبوها.

ثم أخذ يضحك وأمّي تهرول خجلاً، وأسمعها تقول:

- أنت وبنتك.

ولا أدري ماذا قالت بالضبط، لكنّ نبرتها كانت كمن تقول:

- الله ياخذك أنت وبنتك.

أو على طريقة أمّ رياض:

- تضْرَب أنت وبنتك.

لكن أمّي لا تجرؤ على قول مثل هذه الكلمة لأبي، لأنها تعرف أنّ الزوج شيء عظيم.

(٢٢)

أعلنت إذاعة لندن، وهي تدقّ بساعاتها المدوّية خبراً يقول إنّ المسجد الحرام في مكّة المكرّمة قد احتلّته جماعة مجهولة، وقد احتجزت بداخله باقي المصلّين الذين لم يتمكّنوا من الفرار، وأنّ بعض المصلّين الذين حاولوا الفرار سمعوا إطلاق نار، وقد سقط بعضهم إمّا مصاباً أو قتيلاً. جاء أبي يلهث من الخارج، هرع إلى الراديو، أدار مفتاحه على عجل، الخبر دوّى في كلّ مكان، بات الجميع يعرفه لكن لا أحد تبيّن تفاصيله. صوت رجل قريب يبثّ حديثاً مباشراً من المسجد الحرام. فتح الراديو في غرفته، وترك الباب مفتوحاً. ركضت أمّي خلفه تسأله: ما الخبر؟ "المسجد الحرام احتلّ". أمسكت أمّي رأسها، وجلست على مدخل الغرفة تبكي، وكلّما مرّ الوقت عادت تسأل والدي عن الأحداث، وهو يقول:

- لا أحد يعرف حتى الآن ما الخبر، ربّما تكون مجموعة من الإيرانيّين أو الإسرائيليّين، الله يعلم.

سمعنا صوت الباب يقرع بسرعة، فتحت، كانت أمّ سعد تبكي وتدخل دون كلام إلى المجلس. أخبرت والدتي أنّ أمّ سعد في

المجلس تنتظرها. دخلت وراءها، وسمعتها تقول:

– سعد ذهب إلى الحجّ، لا أدري ماذا سيحلّ به؟

ركضت ناحية السطح لأخبر الجازي أنّ المسجد الحرام قد احتلّه الإسرائيليّون. ما الذي يمكن أن يحدث بعد ذلك؟ هل ستقوم الحرب؟ فتّشت عن جارتنا التي اعتدت أن أجدها هناك تنتظرني حين يحدث في بيتهم ما تودّ أن تخبرني عنه، أو يحدث في بيتنا شيء أودّ أن أخبرها به. وقفت فوق صندوق الخشب المهمل في زاوية السطح. فتّشت عنها بعينيّ، قلّدت صوت زقزقة عصفور، همست بصوت مبحوح كعادتي: "الجازي، الجازي". لا أحد على سطح جارنا سعد، فقط تراب وقطعة كرتون يحملها الهواء ويحطّها، وعند جدار المنور تركت سجّادة رثّة ومصحفاً ودلّة قهوة باردة وصحن تمر مدّ الجدار ظلّه عليه. بدا منزل سعد مثل رجلٍ عجوز أكل الدهر من قوّته وبدأت ذاكرته تضعف. كلّ شيء في منزل سعد صار بارداً ومظلماً وكئيباً. لم يعد ذلك البيت الذي كان سعد فوق جدار سطحه يكلّم عواطف. البيت شاخ وأهله أيضاً أصبحوا عاجزين. رفعت رأسي نحو جدران السطوح الممتدّة أمام عينيّ، فلمحت جارنا عمران، أبا فاطمة وإمام مسجدنا، يقف فوق أوراق وضعها أمامه على أرض السطح وصبّ عليها سائلاً ثم أشعل عوداً كبيراً ورماه فوق الأوراق. شبّت نار كبيرة وتطاير بعض الورق، فأسرع خلفها وعاد بها إلى اللهب ورماها وأخذ يتفرّج عليها حتى ماتت الحقائق بداخلها.

مرّت ثلاثة أيّام غامضة، سماؤها فضاء ملبّد بالحريق والهواجس المبهمة، بدأ بعض الفارّين من حصار المسجد الحرام ينقلون بعض

الأخبار عن المسلّحين الذين احتلّوا المسجد، وعن أخبار تردّد اسم المهديّ المنتظر، والراديو السعوديّ لم يعلن شيئاً حتى الآن والناس محتجزون داخل الحرم دون قرار واضح.

سمعت من والدي أنّ إمام مسجدنا عمران أبو فاطمة لم يعد يصلّي بهم منذ اندلعت أخبار المسجد، و لم يترك خبراً عن غيابه، وقد صار الجيران يتناوبون في إمامة الناس حتى جاءهم خبر بعد أسبوعين أنّ أبو فاطمة قد قُبض عليه لأسباب تختلف باختلاف ألسنة الناس.

طمأنت والدتي الخائفة أمّ سعد المرعوبة، لكنّ أحداً لم يطمئنّ تلك الليلة. سألت أمّ سعد عن الجازي فأخبرتني أنها منذ سمعت بالخبر وبطنها لا يتوقّف عن التقلّص بموجات من الألم التي تعصرها، فهرعت إلى والدتها وضحى في منزلها تطلب منها علاجاً لبطنها، و لم تمض ساعات إلاّ ووالدتها تحملها إلى المستشفى، سقط ما في بطنها لحماً ميتاً، ثم عادت إلى منزل والدتها وتطبّبت بأعشابها وحكايات النصيب واليقين.

مرّ أسبوعان ولا حديث للحارة إلاّ عن احتلال الحرم، الكلّ يدعو ويحتسب على هذه الزمرة التي روّعت الناس وأسالت دماء المسلمين. عمّ مقيرن الأعمى يدقّ الأبواب كلّما خرج في الصباح والمساء يسأل الناس عن آخر الأخبار، زارنا وجلس في دهليز البيت. رفض الدخول، سأل أبي:

- مسكوهم؟ وش بيسوّون فيهم، بيقصّون روسهم، ما يكفي.

خرج عمّ مقيرن الأعمى يبكي خوفاً وفزعاً وحنقاً ممّا حدث، يتحدّث إلى الجدران، وحين يقابله أحد يحدّثه، وكأنه لم يسمع بما حدث:

- حرم الله دخلوه وروّعوا المصلّين. حسبي الله عليهم.

شلّت الأحداث قلوب الناس، وعقدت ألسنتهم، الكلّ يرجو الله أن تكون الأخبار أقلّ سوءاً ممّا توقّعوه، متأكّدين أنهم إمّا الإيرانيّون أو الإسرائيليّون، لا ثالث لهم، لكنّ الصباح التالي جاء بالخبر الأسود. حين خرجت من غرفتي وجدت أبي يتحدّث عن انتهاء الأزمة، والقبض على المحتلّين الذين نُشرت صورهم في الصحف. لم تكن المعلومات التي أُعلنت واضحة تماماً، فقد تبيّن أنّ المحتلّين لم يكونوا من الإيرانيّين ولا من الإسرائيليّين، لكنهم وُصفوا بالجماعة المسلّحة، وفي راديو لندن وُصفوا بالجماعة السلفيّة، لكنّ الأسماء حين أُعلنت عرف الناس جيّداً من هم، فقد كانت أسماء شباب من عائلات وقبائل مشهورة متفرّقة. عرف الأهالي أسماء من قُتل في المواجهات العسكريّة من الطرفين، وأوّلهم كان محمّد بن عبد الله القحطاني، الذي كان هو سليل قريش المزعوم ومخلّص المسلمين، لكنّ رأسه المشروخ بالرصاص أثبت أنّ مهمّته لم تكن كاملة، فقد مات قبل أن يهدي أحداً، بل إنه تسبّب بموت مئات الناس وزرع فتنة الحرم الشهيرة، وقد أكمل الناس الحكايات التي لم تقلها الإذاعة، ومن بين هذه الحكايات التي انتشرت أنّ الشيوخ بعثوا رسلاً إلى والدة المهديّ في أيّام الحصار يسألونها عن صدق مزاعم ابنها وحقيقة كونه المهديّ المنتظر فقالت لهم:

- إن كان هو المهديّ فسيقتلكم وإن كان كاذباً فستقتلونه.

قتل ١٢٧ جنديّاً و١١٧ من المتمرّدين وبضع عشرات من المصلّين، وعرف الناس الذين لم يعد أبناؤهم من الحجّ أنهم لن يعودوا أبداً.

وصلت إلى الجامعة ووقفت أمام البوّابة في الساحة الكبيرة. لمحت

صديقتي نعيمة التي كانت تحبّ مثلي صوت فيروز وتبادلني أشرطتها. اقتربت منها فوجدتها تعلّق قلادة على رقبتها تحمل صورة مقصوصة من جريدة. نظرت إليها فأصابني الفزع. كانت صورة رجل قد طلى وجهه بالفحم، له شعر كثيف وطويل منفوش، وعيناه واسعتان تقدحان بجحيم أحمر لا قرار لهما. سألتها:

- مَن هذا يا نعيمة؟

قالت:

- هذا جهيمان.

لم تخفت القصّة سريعاً في صدور أهل الحارة، ظلّت أسماء المحتلّين، وأخبار المواجهة، وبطولات من هنا وهناك تتردّد طويلاً. المذياع لم يهدأ أبداً، والتلفزيون قطع كل برامجه ليتحدّث عمّا استجدّ في هذا الشأن. مقابلات مع الناجين وبعض المقبوض عليهم من المحتلّين، وبطولة الجنود الذين استشهدوا في الحادثة وأطفالهم الحزانى السابحين في يتمهم كي تصبح جريمة المحتلّين مضاعفة.

وجدت والدتي تقف في المطبخ والمذياع يصدح بصوت قارئ النشرة الإخباريّة، والزمرة الضالّة التي انتهكت حرمة المسجد الحرام، وسيعمل القصاص فيهم عصر اليوم. سمعت اسمه مرّة ثانية: جهيمان قائد الزمرة. ثم المهديّ الذي قُتل قبل أن تُعتقل المجموعة. رميت حقيبتي ودخلت غرفتي. شعور الفزع يطاردني، ووجه الرجل المطليّ بالفحم يُرعبني، والحيرة تعصف بعقلي. لماذا علّقت صديقتي نعيمة صورته في ميداليّة ووضعتها على عنقها وكأنها تحضنه في صدرها. شعرت بأمعائي تؤلمني وأنا أتذكّر ملامحه. لم أسأل نعيمة لماذا تعلّق صورة محتلّ الحرم،

لكني عرفت أنّ بعض البنات رأين فيه بطلاً، وهذا ما لم أستطع أن أفهمه، ربّما حتى نعيمة التي تحبّ أن تسمع صوت فيروز لا تفهم مثلي، تماماً مثلما لا أفهم لما يتعلّق قلبي برجل لأنه من مصر.

سمعت أمّ سعد وهي تجلس قرب سجّادة صلاتها تقرأ القرآن، والراديو المفتوح يبثّ الأخبار. صوت قارئ الأخبار يقرأ أسماء المحتلّين الذين ماتوا أثناء تحرير المسجد الحرام. سمعت صوت المذيع وهو يقول اسماً تعرفه جيّداً، قفزت عن سجّادتها فتعثّرت في شرشف الصلاة، فوقعت على وجهها، وشقّ ارتطامها بالأرض شفتها السفليّة وطرف لسانها، لكنها لم تشعر إلاّ بألمٍ في كليتها، وقلبها الضعيف ضرب بمقاليعه صدرها، وشقّ صداعٌ شديد بمغارزه جانب رأسها الأيسر، ثم بدأت أصوات تدوّي في رأسها. خليط من أخبار الراديو، وصياح حفيدتها عائشة وهي تبكي، ثم صوت مدفع يرمي باروداً في الهواء فينتشر حريقه الأسود ويغشّي عينيها. تختنق أمّ سعد بدخان البارود، فتركض إلى الباب تفتحه لكي تشدّ الهواء إلى صدرها، لكنّ صدرها لا يقوى على جرّه. تركض أمّ سعد دون عباءة ودون غطاء رأس، تركض في شوارع الحارة تصيح: يا سعد، يا سعد! تمرّ أمام بيتنا فينظر أبي الذي أوقف للتوّ سيّارته إليها، هيئة امرأة ينقسم جسدها الطويل على نفسه، يتكسّر مرّة من جانبه الأيمن ومرّة من جانبه الأيسر، وقدماها تخبطان الأرض، تكاد إحداهما تلتفّ على الأخرى. هرع والدي إلى البيت صائحاً بأمّي:

– أظنّها أمّ سعد تركض في الشارع مثل المجنونة بلا غطاء ولا عباءة.

سحبت أمّي عباءتها وأمرتني قائلةً:

- هاتي عباءتك وتعالي معي.

خرجت أهرول وراء أمّي. كانت أمّ سعد تتّجه إلى بيت وضحى وهي تركض، والرجال يتوقّفون بها، ثم يشيحون النظر عنها ويركضون إلى بيوتهم، فتخرج النساء منها، يتّجهن معنا خلف أمّ سعد التي راحت تركض وهي تصرخ. دخلت منزل وضحى ونحن وراءها، وما إن وصلت حتى سقطت على ركبتيها تبكي، وأخذ يسيل من فمها خيطٌ من الدم وخيطٌ من اللعاب. استندت أمّ سعد على كفّيها وركبتيها لتنهض، لكنها وقعت مرّة أخرى. وصلت والدتي قبلي فأمسكتها من زندها. انتفضت أمّ سعد بفزع، نظرت إلى وجه أمّي وصرخت فيها:

- اتركوني.

ثم حدّقت في وجه أمّي وسألتها:

- مَن أنتِ؟

جاءت الجازي تركض وهي تسمع صراخ أمّ سعد، ثم خرجت وضحى من روشنها، تحلّقنا كلّنا: "وش فيك يا أمّ سعد؟" نظرت نحونا بفزع ثم تراجعت إلى الخلف، ومدّت يدها إلى وجوهنا بذعر وصاحت: "سعد، سعد". تقدمت منها وضحى ومدّت لها يدها، فدفعتها بقوّة قائلةً:

- سعد ولدي وينه؟

حملنا أمّ سعد، كانت تتنفّس بصعوبة وعيناها هائمتان تنظران إلى الفضاء، ووضعناها في فراش الجازي. سقتها وضحى ماءً غمست

فيه ورقة تحمل آيات من القرآن كُتبت بالزعفران، ثم مدّدتها وشدّت فوقها لحافاً وأخذت أمّي تقرأ عليها المعوّذات.

عاد أبو سعد من مكّة، وقد عرف الخبر. لم يعرف أنها سمعته قبله، وأنها تعالج فقدها بطريقتها. وجدها نائمة في بيت وضحى، وحين رأته بدون سعد تأكّدت مرّتين أنّ وحيدها قد ذهب. قفزت من فراشها وركضت مرّة أخرى في الشارع بضفيرتين طويلتين تظهران تحت رداءٍ خفيف تضعه فوق شعرها، ركضت فركض أبو سعد خلفها.

لم تتوقّف أمّ سعد عن الفرار، لها ساقان طويلتان تستنجد بهما كلّما شاهدت قامة سوداء تهمّ بخطف ابنها، تركض مسرعة، حاملةً طفلها سعد الصغير الرضيع، كما حملته منذ عشرين عاماً، موقنةً أنها قادرة على الفرار من هذا العملاق الذي يتكاثف ظلّه فوق طريقها كدخان أسود. تركض، لكنّ أناساً كثيرين يعيقون طريقها، يمسكون بها، لا يرون العملاق الأسود، يخدعهم، يتماهى خلفهم فلا يرونه، يعطّلونها، يجرّونها، وطفلها سعد يكاد ينزلق من بين يديها وهي تشدّه إلى صدرها، تسمعه يبكي ثم فجأةً يسيل من بين يديها كدلو ماء يندلق فتتزحلق هي الأخرى فوقه، والدخان يصبح أكثف والعملاق يبتلعهما في بطنه، وتسمع أصوات الناس من حولها، واحد يذكر اسم الله وآخر يناديها، لكنها تبتلع لسانها ولا تعرف كيف تجيبهم.

بعد أسبوع توقّفت سيّارة إسعاف بقرب بيت أمّ سعد، وهبط منها رجلان بثياب بيض، وحملا أمّ سعد، وهي زائغة العينين بعد أن أفرغ الممرّض في ذراعها إبرة مهدّئة، وحملها إلى داخل السيّارة دون مقاومة.

(٢٣)

عاد إبراهيم من مصر. لم يتزوّج صديقته المصريّة التي شاهدناها معه في الصورة، و لم يطل بقاؤه عازباً، فقد زوّجته أمّي من قريبة لنا، تعمل معلّمة، كانت زميلة لأختي عواطف في معهد المعلّمات الثانويّ. اشترط أبي ألاّ يتزوّج إبراهيم حتى نسكن بيتنا الجديد الذي شارف على الانتهاء، وخصّص له جناحاً بغرفتين ودورة مياه. بيتنا الجديد أشبه بقصر مقارنةً بمنزلنا القديم: مصمّم من طابقين وغرفٍ كثيرة، كلّ منّا حظي بغرفة وسرير وخزانة خاصّة، وانتقل إبراهيم وزوجته معنا، وتركنا الحارة.

بكت أمّي وهي تودّع جاراتها، وانتحبت الجارات وهنّ يودّعنها. دارت أمّي على جاراتها كلّهنّ وهي تبكي، حتى حسينة الحضرميّة بكت أيضاً، وقالت أمّي وهي تودّعهنّ:

- تراكن بحرج إن ما سألتوا عنّي وما زرتوني.

تفرّقنا في غرف منزلنا الكثيرة، في كلّ غرفة مكيّف خاصّ بها. نذاكر دروسنا ونقرأ المجلاّت التي يحضرها إبراهيم. اشترى أبي جهازاً أحدث لتشغيل أفلام الفيديو، فصرنا نستأجر من محلّ الفيديو

القريب في آخر الشارع أشرطة لأفلام مصريّة كوميديّة، ونتفرّج عليها في مساء الأربعاء أو الخميس الصيفيّة.

تباعدت المسافات بين بيوتنا، صارت الشوارع أسفلتية، وما عدنا نمشي على أرجلنا إلاّ نادراً. كلّ شيء أصبح بعيداً. حيّنا صار ملوّناً بالأسود والأبيض، لا نشاهد فيه غير العمّال يكنسون الشوارع، والشباب يتجوّلون في فراغه. حيّنا الجديد أغنى من حيّ شارع الأعشى وأنظف، لكنه فقير من الناس، غابت عنه صيحات الأطفال، وفقدت قدرتي على الخروج وحدي أمشي إلى البيت المجاور.

شيءٌ ما تغيّر في بيتنا، وفي بيت وضحى، وفي كلّ البيوت. ما عاد أبي يسمع الراديو كثيراً كما في الماضي. اختفى صوت القاهرة وصوت لندن، وحلّت محلّهما إذاعتنا المحلّيّة التي ترسل برامج منوّعات محلّيّة دون موسيقى ودون صوت امرأة. صار أبي يسبح في هدوء وسكون، ويقرأ في كتب مغلّفة بأغلفة فاخرة، أو يقرأ القرآن، وأخي فوّاز يقاوم أمّي التي لاحقته بأشرطة الكاسيت الدينيّة:

- خذ يا فوّاز اسمع، يمكن قلبك يحيا.

حين أركب مع فوّاز أجد أشرطة كثيرة في صندوق سيّارته الصغير، وإذا سألته عنها قال:

- هذه أشرطة أمّي، لكنه دائماً يسمع صوت طلال مدّاح ووردة الجزائريّة.

غاب وجه فيروز عن التلفزيون، ولم تعد نجاة الصغيرة تظهر بوشاحها الأخضر والمشبّك الذي يلمع على صدرها، وحتى صوت عفاف راضي الرقيق الذي كان يصرخ في إذاعة الرياض "عطاشى" سكت.

كنّا نسهر على حفلات أمّ كلثوم، السيّدة التي تحمل بطرف يدها منديلاً تهزّه تحت ضربات صوتها الصادحة، وخلفها تجلس فرقة رجال كلّ واحد منهم يحضن آلة ويداعبها بحنان، وهذه المرأة تتقدّمهم وتضبط عزفهم، ووالدي يقول بعد كل مقطع موسيقيّ: الله الله. كل هذا غاب، وصار التلفزيون فارغاً إلاّ من سهرات مسرحيّة باردة، أو برامج وثائقيّة عن أنابيب غاز واحتفالات رسميّة لمسؤولين كبار.

اختفت صور النساء من الصحف التي يحضرها إبراهيم من عمله بدلاً من والدي الذي تقاعد. زارت تاتشر رئيسة وزراء بريطانيا الرياض، فلم تظهر صورتها في الصفحة الأولى. سمعت إبراهيم يقول:

- تاتشر تزور السعودية، ويحطّون الخبر بدون صورتها.

قال والدي:

- جايهم قرار من فوق يا ولدي، ما عاد ينشرون صورة أيّ امرأة، حتى لو أنها كبر جدّتك.

ثم ضحك. قال إبراهيم:

- ليه؟

قال والدي:

- ما يقدرون، يخافون الناس يثورون عليهم، مثل ما صار يوم جهيمان. - ثم أضاف: لكلّ زمان فتنة يا ولدي، والحكمة أنك ما تحرّك الثعابين من جحرها. خلّها راقدة.

كان إبراهيم نافذتي في المنزل على العالم الممتع، تهبّ أحاديثه بنسائم منعشة في حياتي. كثيراً ما أجد عنده كتاباً أو مجلّة عوالمهما

عجيبة. أخبار وصور تتحدّث عن مصر، وهو يعرف صور كلّ الرجال في تلك المدينة الساحرة.

هبطت ذات مساء فوجدته يجلس في فناء المنزل، يشعل ناراً في برميل من حديد ويرمي بداخله كتباً في يده، سألته: ماذا تفعل؟ فقال لي إنها كتب لم يعد الوقت يسمح ببقائها في المنزل، فسألته: لماذا؟ فقال:

– ذهب زمانها.

ثم أخذ يحدّثني عن أسماء بعضها وهو يرمي بها في قلب البرميل، ويقول ساخراً:

– أنيس منصور العبقريّ وخزعبلاته، عبد الله العرويّ، ذهب زمانه، عبد الله القصيميّ.

ثم قبض على حزمة مجلاّت مصريّة ورفعها فوق النار. خطفتها من يده وقلت له:

– سآخذ هذه.

وركضت بها. جلست أتفرّج على صورها، نساءُها يلبسن ثياباً ملوّنة، ويركبن سيّارات بمقدّمة تشبه الصاروخ. سألت إبراهيم عن أسماء هؤلاء النساء. لا يوجد سؤال لا يعرف إجابته. يعرف أيضاً صور الممثّلات والراقصات. يشير بإصبعه ناحية امرأة تصبغ شعرها باللون الأصفر، وفي عينيها طرف، ويقول:

– هذي نجوى فؤاد.

ثم يشير ناحية سيّدة جميلة الوجه ممتلئة، ويقول:

– وهذي تحيّة كاريوكا.

أجد اسمها غريباً فأسأله أتأكّد منه:

- كاريوكا؟

- إيه كاريوكا. هذا اسم الشهرة.

- هذه الكاريوكا مصريّة؟

- نعم مصريّة، لكنها تقول إنها جاءت من عندنا.

ضحكت، وقلت:

- لا لا يا إبراهيم، أنت تستهبل!

ضحك هو الآخر، وقال:

- والله العظيم، هي تقول إنّ أباها من تجار نجد المسافرين الذين مرّوا مصر، تزوج بأمها ثم مات، فأصبحت فقيرة، واشتغلت بالرقص والتمثيل. قلت:

- وأهلها ما ذبحوها؟

- لا. صار اسمها كاريوكا. ضاعت في الأسماء.

سألت إبراهيم:

- لماذا لم تتزوّج صديقتك المصريّة؟

ضحك وقال:

- ما كل ما يتمنّى المرء يدركه تجري الرياح بما لا تشتهي السفن.

حدّثني إبراهيم بكلام كثير عن التقاليد التي تنشأ سابقة على الفرد وتقيّده وتجعله أسيرها، ولأنه فرد فإنه لا يستطيع التحرّر منها؛ فهي أقوى منه، لأنّ الجماعة تحرسها.

قلت له:

- والحبّ؟

قال لي إنه يصلح للقصص والأفلام، لكنه لا يصدق عندنا.

سألته:

- والبنت اللي تتزوّج مصريّ؟

نظر لي وضحك ومرّر بأصبعه على رقبته إشارةً إلى أنّ الجواب هو الذبح.

حملت المجلّة معي. قصصت صورة الراقصة المليحة الوجه كاريوكا وألصقتها فوق سرير، وصرت أتتبّع في عينيها رحلتها الشاقّة التي تشبه رحلة أجدادها الطويلة من وسط نجد حتى فلسطين والشام ومصر، أفتّش عن السرّ الذي منحها هذه الفوارق العجيبة التي جعلت منها راقصة. عيناها مطمئنّتان، لا يأكلهما الخوف، ولا تتلفّت يميناً وشمالاً خوفاً من خالٍ يذبحها أو عمّ، بل تتفرّغ بكامل طاقتها الأنثويّة للإغواء. المرح يطفر من عينيها، وكأنها تغرف من مستودع كبير وتبيعه لزبائنها. من أين واتتها هذه القوّة لتغيّر قدرها، ولم تذعن مثلما تفعل الأخريات؟

يمضي الوقت محايداً وساكناً، وأنا أجلس وحدي في غرفتي، غارقةً في قصصي وكتبي وأغانيّ. في العصر أشتهي قطعة من بسكويت "كيت كات"، لكنني لا أستطيع الخروج إلى البقالة في الشارع المقابل، سيكون من الجنون أن أطلب من والدتي أن أخرج لأشتري البسكويت، فطلبت من أختي علياء التي لم تلبس العباءة بعد أن تخرج وتشتري لي هي "كيت كات" وعصير "سن توب".

حلّت زوجة إبراهيم بديلة عنّي، تخرج مع أمّي في زياراتها، وإبراهيم صار رفيق أبي، يتغنّى بأحاديث الجهاد التي يسمعها، وفوّاز

ذهب للدراسة في جامعة الظهران، وأنا صرت وحدي أجلس في غرفتي، وأذاكر دروس الجامعة، وأجلس قرب الهاتف، أنتظر مكالمة من أحمد أو أفتّش عنه.

عاد أحمد بعد إجازته الصيفيّة من القاهرة، وحدّثني في أول أسبوع من دراستي قائلاً:

- عندي لك هديّة.

عاد يوم الأربعاء من جديد في دورته الحيويّة. عيادته المقفلة بين الثانية عشرة والرابعة ظهراً، وأربعائي أنا الذي يتحلّل من دروسه وينتهي في الحادية عشرة.

في الظهيرة مرّ السائق، وحملني من الجامعة في تمام الساعة الثانية عشرة، طلبت منه أن يتوقّف عند عيادة أحمد القريبة من الجامعة. حفظت الطريق إلى العيادة. العمارة نفسها كلّها مكاتب غارقة في السكون. وفي مدخل عيادته أتتبّع رائحة عطره التي شممتها أوّل مرّة، حين كان يلفّ الشاش حول عينيّ، وكان أهلي يسمّونني العمياء، ثم أصبح أوّل رجل تقع عليه عيناي عندما استعدتُ نظري.

شربنا القهوة التي صنعها بنفسه على وقع أغاني مسجّلته الصغيرة القابعة بركن في العيادة. تحدّثنا عن كل شيء. رويت له قصّة مزنة وأخيها ضاري، وحكى لي حكايات مصريّة طريفة. وحين قاربت الساعة الثانية، نظرت من نافذة العيادة، ورأيت السائق ينتظرني، ومعه أختاي علياء وعفاف وقد عادتا من المدرسة. لبست عباءتي، وقبل أن أخرج فتح أحمد حقيبة جلد كبيرة، وأخرج منها كارتوناً أحمر ملفوفاً بشريطين، أبيض وأخضر، ومدّه إلي، وقال:

- مصر بتسلّم عليك.

أخذتها وأنا أقول له:

- الله يسلّمها ويسلّمك.

وخرجت.

حين دخلت المنزل كانت الظهيرة الساخنة قد فرّقت ساكنيه في غرفهم. كلٌّ يتمدّد على سريره. أبي وأمّي يأخذان قيلولة بعد الغداء، وإبراهيم يقرأ الصحف ويلاعب طفله، وزوجته تتصفّح المجلاّت، وحين دخلت ابتسمت لي، ثم اتّجهت إلى غرفتها في جناحهما بالطابق العلويّ.

دخلت غرفتي ثم وضعت حقيبتي على طاولة مكتبي القريبة من باب غرفتي، وذهبت أغتسل وأغيّر ملابسي. اندلقت العلبة من فتحة حقيبتي، لمعت بلونها الأحمر وأشرطتها البيضاء والخضراء. سحبت أوّل الشريط فاستسلم الشريط الآخر تبعاً له، ثم تراخت العقدة التي دارت على العلبة، وسقطت كقميص حرير ينسلخ عن جسد مديحة كامل في فيلم "الخائنة"، يستعجل المخرج ويقطع صورة القميص عن الجسد. القميص الحرير يسقط إشارة لمشهد لا يرى متخماً بالحيويّة والإثارة، ويترك مخيّلتك تكمل ما تبقّى. نزعت الشريط اللاصق برفق عن الورق الأحمر، فكلّ قطعة في المغلّف تمتّ لأحمد بصلة، رفعتها من العلبة ثم عدت أطبقها مرّة أخرى ووضعتها في الدرج.

خرج جسده مستطيلاً ومغلّفاً بثوب شفّاف آخر نزعته وفتحته، فظهر لي جسد القارورة المغوية بكلّ أناقتها. زجاجها المثلج الوردي،

حروفها المكتوبة بدقّة ونعومة. كان الاسم بالإنجليزيّة يقول: "ذي سكيب" (the escape).

رششت نفثة صغيرة في الهواء، ثم أدخلت أنفي فيها. انتشر شذاها في محيط داخليّ، تسلق عقلي ثم رقبتي ثم إلى كتفي، ثم عجزت عن تتبّعه. تغلغل في جسدي، خدّره. سقطت على السرير أردّد وأنا في الخدر: "ذي سكيب".

فكّرت كثيراً يوماً بعد يوم، ساعة بعد ساعة، دقيقة بعد دقيقة، وبعد أسبوع قلت لأحمد:

- أريد أن أراك.

هذا الأربعاء لم أذهب من أجل الحبّ، ولا من أجل سماع كلمات الحنان وغزله اللذيذ. كانت لديّ مهمّة كبيرة جعلت قلبي يرتجف طوال الطريق. منذ الأسبوع الذي مضى وقلبي يدقّ، لكنه حين دخل عمارته اضطرب أكثر. كنت مثل تلميذة قد ذاكرت درسها، لكن تخاف لحظة الاختبار. كان المصعد مغلقاً وورقة تركت على وجه بابه تقول: "المصعد معطّل، نأسف للإزعاج".

أسندت يدي على جدران السلّم، وأنا أرتقي الطابق الثاني، جسدي غادرته الطاقة والقوّة من كثرة التفكير والقلق، لا شيء يعمل سوى عقلي. هديره يسحب كلّ الطاقة من جسدي، يتحدّث كثيراً، ويرسم صوراً مخيفة أحياناً، وصورة من السعادة التي لا أتخيّل أنني سأعيشها. أتصوّر نفسي تحيّة كاريوكا التي تولد بعيداً عن جذورها، ويموت والدها ويختفي التاريخ من حياتها، ويغزو الفقر حياتها، فيسلبها كلّ ما يمكن أن تخاف منه. تتخفّف من كلّ شيء وتصبح الحاجة الوحيدة

لها أن تجد لها طعاماً وسقفاً. تصبح حرّة لأنها دون عائلة ودون مال ودون تقاليد، وحين تجد فريقاً ممّن يسمّونهم "المشخّصاتيّة" يكتبون قصصاً ويتلبّسون شخوصها تتبعهم فيما يفعلون وتقلّدهم، ثم تصبح مثلهم، ويصبح لها اسم لا يدلّ عليها: "كاريوكا". وصلت باب العيادة، الهواء البارد ينبعث من أسفل الباب، وصلت أخيراً. غادرت كاريوكا المشهد من رأسي، انسحبت بجسدها الجميل تدّعي الخجل، وهي تمسك بجناحَي بذلة الرقص وضوء ابتسامتها الخجلى يضيء ملامحها.

ترك لي أحمد باب العيادة مفتوحاً، وأسدل الستائر، فبدت شمس الظهيرة السخيّة في الخارج كتومة وغامضة في الداخل.

مددت يدي نحوه فقال:

- يدك باردة.

وددت لو أرتمي بسرعة وأجلس على الكرسي، لكنني يجب أن أتظاهر بالشجاعة حتى أقنعه بما جئت من أجله، وكيف يصدّقني، وأنا أنهار قبل أن أطلعه على فكرتي!

أحضر أحمد كأسين من الشاي، وقال وهو يضع مكعّب سكّر في كأسه ويحرّك الملعقة:

- احكي لي يا ستّ الكلّ.

- نهرب.

رفع أحمد رأسه بسرعة أسقطت نظّارته قليلاً إلى منتصف وجهه، ثم قال:

- نهرب نروح فين؟

ضحك، وهو يقرأ وجهي جيّداً.

- نهرب نروح لمصر، ونتزوّج هناك، وأغيّر اسمي، أصير زيّ تحيّة كاريوكا.

أخذ أحمد يقاومني بالضحك.

- عاوزة تبقي رقّاصة؟

- لا لا يا أحمد، لا تفهمني غلط، أنا أقصد مثل قصّة تحيّة كاريوكا، أنت تعرف أنها من هنا، من بلدنا.

ضحك أحمد، وقال:

- وعشان هي من عندكم تبقي تعملي زيّها؟

- القصّة مختلفة.

قال:

- هو كمان فيه قصّة. قولي يا عزيزة قولي.

- أقصد أننا لو هربنا لمصر وغيّرت اسمي ما أحد يعرف بعدين مين أنا، خلاص الناس تنساني، ويمكن يجي يوم وأقول للناس إذا تغيّرت الظروف إنني من الرياض.

قال لي، وهو يفكّر معي وكأنني طفلة:

- وها تهربي ازّاي، بقى هتعومي في البحر الأحمر، ولا هتركبي الطيّارة؟

قلت:

- لا، أنا أخاف من البحر، نسافر بالطائرة.

- وعندك باسبورت يا عزيزة؟

- لا.

- يبقى ما ينفعش يا عزيزة.

ثقل رأسي وخف جسدي وأخذ يترنّح، بعد أن أدركت فشل مخططي وقفت عند أوّل عتبة للهبوط، أصبح جسدي يجرّني للأسفل، وأنا أقاومه خوفَ السقوط. كنت كمن يقف على حافّة حفرة عميقة، بئر لولبيّة تدور فيها طبقات متوارية مثل درجات السلّم، لو تدحرجت الآن على عتباتها فلن أعي شيئاً حتى أصل إلى قاعها. ستتكسّر عظامي قبل أن أصل إلى قرارها. ملت بجسدي على درابزين السلّم واتّكأت على يدي اليمنى هذه المرّة، وأخذت أزحلق جسدي عليه ببطء، هو الذي يمشي بي يسندني، وعند كلّ منعطف ألفّ جسدي لينعطف نحو النصف الآخر من السلّم، وأهبط درجة درجة حتى وصلت باب العمارة الكبير. كانت مقدّمة سيّارتي "الأولدز موبيل" تقف بالخارج، والسائق مع زوجته التي تحرص أمّي على وجودها معنا.

ركبت السيّارة وأنا أضع شال الحرير الأسود لثاماً على وجهي، كما تفعل بنات الجامعة، وأخذت أحدّق في شارع الخزّان وزحام العمّال الذي صار أشدّ في هذه الساعة من الظهيرة. لم أعد أسمع صوت الأغاني الصادحة من المحلاّت. اختفى صوت أبو بكر بالفقيه، وحلّ محلّه صوت رجل يصرخ وهو يبكي: "يا عباد الله". التفتّ ناحية السيّارة المجاورة. نظر شابّ بلحية كثيفة ناحية السيّارة التي أركبها، تفرّس في السائق، ثم في الخادمة التي تجاوره، ثم نظر إليّ بحنق. كان سعد، ابن جيراننا، شعرت بأنني قد جننت، وأنّ الرعب الذي عشته أسبوعاً أخطّط فيه للهروب قد أضعف عقلي، وجعل التخيّلات تتكاثر، حتى إنني صرت أرى الأموات، لكن من قال إنّ سعداً قد

مات؟ لقد صار كلّ الشباب في الشوارع مثل سعد بلحاهم الطليقة وثيابهم الصغيرة وغتراتهم الحمر دون عقال، ووجوههم المليئة بالحنق والغضب. صار وجهه يطلّ من وجه كلّ شابّ أراه، أصبح مثل تشي غيفارا موجوداً في ملامح كلّ شابّ بعد أن مات مع رفيقه جهيمان.

شعرت بالاختناق، فدرت بكامل جسدي ناحية سيّارة شبيه سعد، نزعت الغطاء عن وجهي لأتنفّس. انتظرني حتى أدرت وجهي ناحيته، نظر ناحيتي، ثم بصق باتّجاهي ومشى بسرعة.

دخلت وأنا أشعر بالخوف والرعب من فكرة عودة سعد إلى الحياة، وأن أقابله يوماً، فيعرفني ويراني وقد كشفت وجهي، ربّما من أجل هذا بصق شبيه سعد في وجهي، لكن كيف يعرفني لو عاد بعد كلّ هذه السنوات؟

تمدّدت على السرير، أخذت قطعة بسكويت مالحة وقضمتها لتسدّ جوع معدتي الضعيفة، واستغربت كيف استطاع عقلي أن ينسى ما فكرت فيه حين ذهب إلى أحمد، وجرّني باتّجاه شبيه سعد. عقلي كان يحتال عليّ. استسلمت لخدر الظهيرة، نمت ثم استيقظت على حمّى شديدة، غبت فيها ثلاثة أيّام عن الجامعة. شربت عصير البرتقال، ووضعت فيلماً مصريّاً كوميديّاً في الفيديو يجعل الوقت خفيفاً فيمضي نحو الشفاء. ثلاثة أيّام لم أستطع أن أصل إلى الهاتف أو أجرّه إلى غرفتي.

(٢٤)

ذهبت أزورها في بيتها. فتح الحارس الأسود بوّابة السيّارة حين رأى سيّارتنا مقبلة، دخلت السيّارة ممرّاً مقوّساً يحيط بنافورة ماء مرتفعة. فتحت باب السيّارة ونزلت ودارت السيّارة حول النافورة التي تتوسّط حديقة كبيرة ومسبحاً مغطّى بالجدران العازلة والعالية. قادني الحارس نحو باب صغير، دفعته بيدي ودخلت. كانت مزنة تجلس بجانب طاولة مستديرة، أمامها قهوة سوداء وحبوب المكسّرات والحلوى الشاميّة وأمامها بنتاها تلعبان.

جلست مع مزنة نتحدّث، لعبت مع صغيرتيها وضحى وشاهيناز، ثم جاءت حماتها وجلست معنا قليلاً قبل أن تخرج. ما إن خرجت حماتها حتى قلت لها، وأنا أكاد أقع من شدّة مكافحتي لنفسي وصمودي المستمرّ:

- مزنة تذكرين يوم جئتيني، وقلتي لي إنك ستهربين مع رياض.

ضحكت مزنة حتى تبلّلت عيناها بالدموع ثم قالت:

- كنت صغيرة وطايشة.

- بل كنت عاشقة.

تنهّدتْ وقالت:

- صحيح عاشقة، لكن الحبّ أعمى.

قلت لها:

- وش تقصدين؟

- ليس معنى أنّ الحبّ أعمى لأنك لا ترين فقط عيوب حبيبك، قد يكون أعمى لأنك لا ترين ظروفك.

- أنتِ ندمانة يا مزنة؟

- لا، لكن كلّما شفت أمّي ومتعب وضاري وغرابة وضعي بين أهلي، أحياناً أتمنّى لو لم أكن بهذه الغرابة بينهم، أحسّ أنّ أهلي يدفعون ثمناً كبيراً بسبب عنادي.

- ألست سعيدة؟

قالت:

- نعم سعيدة، ولكن...

فهمت من مزنة كلاماً مختلطاً يتأرجح بالشعور بالذنب الذي يقطر بمائه فوق رأسها مثل صنبور نسي صاحبه أن يشدّ مفتاحه، ينكّد عليها، ويحطّ من قدرها، يعيّرها بأنها كانت أنانيّة، لم تهتمّ حين وقعت في حبّ رياض إلاّ بنفسها وسعادتها، وتمنّت لو سكت هذا الصوت لكانت ستقول بكلّ ثقة إنها سعيدة.

أحياناً أشعر أنّ مزنة صارت كالجازي حين تزوّجت سعد، وراحت تصلّي معه كلّ يوم، وتطلب أن يُغفر لها ذنباً لم ترتكبه.

أخذت أفكّر في حديث مزنة حين عدت إلى البيت، وأنا أسمع صوت المغنّي الذي يصدح بالمصريّة: "أي جرح في قلب لا لا"؛ أنا

أيضاً منذ بدأت أفكّر بالهرب مع أحمد يتسرّب إلى نفسي شعور عميق بالذنب مثل مزنة.

وجدت أبي جالساً مع إبراهيم، الذي يلاعب طفلته، وزوجة أخي تصبّ لهم القهوة. قالت والدتي:

- وشلون مزنة؟

قلت:

- بخير.

قالت والدتي:

- يا عزيزة يا بنتي متى تعرسين ويصير لك بيت وأولاد؟

قلت أمزح مع أمّي:

- وين العريس؟

قال لي والدي وهو يضحك:

- أبو فهد أمس قال لي لو تزوّجني عزيزة!

قالت أمّي:

- بنتي لا تتزوّج شايب.

قال إبراهيم:

- أبو فهد صغير، توّه في الخمسين.

قالت والدتي:

- ولو.

وأنا أمشي إلى الداخل هبّت نسائم خريفيّة طيّرت أجنحة عباءتي، ودفعتني بجنون، ثم ثارت هبّة غبار حملتها الريح من الأرض، ولطمت وجهي قطرات مطر خفيفة رشّت ماءها فوقي. تبلّل شعري، ركضت

إلى الداخل، فيما سمعت والدي ووالدتي يتجادلان، ويحملان أغراضهما ويدخلان بها إلى الغرفة الخارجيّة.

مضى عليّ وقت طويل لا أنام جيّداً ولا آكل إلاّ القليل، والخريف الذي تهبّ نسائمه الترابيّة ويعتدل جوّه يسحبني في هدوئه إلى نفسي. هدير المكيّفات في المنزل والحيّ يتوقّف، فيسهل سماع عواء الريح في الخارج، أفتح نافذتي على الأرض الخالية جوارنا، وأضواء الشارع البعيد الشاحبة تلمع في غبش التراب فتغبّش الدنيا كلها في وجهي. ذرّات غبار تحجب صفو العالم البعيد من النافذة، فيزداد شعوري بأنّي رهينة هذا المكان. كأنّ العالم كله رحل وبقيت أنا وحدي، لا أحد معي، لكنني رغم الفراغ والوحدة لا أستطيع الخروج من هنا. في الظلام لا يمشي أحد في الحيّ ولا تقاطع السكون أيّ ضوضاء. تمنّيت لو أمدّ يدي ناحية باب المنزل وأخرج، لأوّل مرّة أتحسّس حدودي فأكتشف أنها ضيّقة جدّاً. أنظر إلى سور بيتنا المرتفع من الطابق الأوّل في منزلنا فأشعر أني وسط بئر بجدران مرتفعة. لِمَ لا أخرج؟ الخوف أم الشكّ في قدرتي؟ أم أنها توقّعات الآخرين الساكنين معي في هذا المنزل؟

فتحت باب غرفتي واتّجهت إلى غرفة فوّاز، فتحت دولاب ملابسه، أخذت ثوبه الأبيض، ولبسته فوق بجامتي البيضاء، سحبت غترته الحمراء المعلّقة على المشجب ووضعتها فوق رأسي، ثم هبطت الدرج، وفتحت باب المنزل الداخليّ. اتّجهت ناحية الباب الخارجيّ، لففتها على وجهي كلثام، ثم خرجت من المنزل أمشي في الطرقات الخالية، وأحدّق في وجه السماء المعفّر بعوالق ترابيّة. صوت حذائي

الرياضيّ يطرق وجه الرصيف الرماديّ، والهواء يطيّر قطع القراطيس الملقاة في الطريق. رحت أحسب كم من السنوات مضت لم أخرج فيها إلى الشارع. كنت في السابعة من عمري آخر مرّة مشيت بلا غطاء. منذ ذلك اليوم لم أعد أرى العالم الخارجيّ إلاّ من خلف غلالة مسيّجة بالخيوط ورداء أسود، وحين أذهب إلى الجامعة وأركب مع السائق أترك عينيّ تخرجان من تحت لثام، لكنّ أنفي يظلّ محشوراً تحت الغطاء يحول بيني وبين أنفاس الطريق. لا بدّ أن يحجب شيء ما المسافة بيننا. هذه المرّة ليس بيني وبينه شيء سوى الظلام والليل. أنا حرّة. أمشي وحدي، وغطاء الليل الأسود يسترني.

مشيت بمحاذاة الشارع، مرّت سيّارة تويوتا بيضاء بمحاذاتي، تريّثت قليلاً، لكنها انطلقت مسرعةً مرّة أخرى، ثم وقفت أمام إشارة المرور الحمراء. ظلّ صاحبها يحدّق في المرآة العاكسة، وجدت صندوقاً حديديّاً لبيع المشروبات الغازيّة، أدخلت يدي في جيب ثوب فوّاز فوجدته خالياً. عدت مرّة أخرى إلى الشارع في الاتّجاه المعاكس ناحية البيت. دخلت الأرض الشاسعة قرب منزلنا، مررت بجوار المسجد، سمعت صوت قطرات ماء تتسرّب من ثلاجة ماء، اقتربت منها، ضغطت رأسها البارد فصبّ الماء. وضعت فمي تحته وشربت، وغسلت وجهي الذي رفع اللثام حرارته. تركته يتحسّس الهواء المعتدل. سمعت صوت كلب ينبح، وشعرت بصوته يقترب، لمحني وركض نحوي، صوت نباحه اقترب منّي أكثر، لم أنظر خلفي بل ركضت، وحين وصلت كان باب المنزل قد أغلق.

استيقظت من النوم وأنفاسي تتسارع، والعرق قد بلّل ثيابي،

ونسائم الخريف قد طيّرت ستائر الموسلين المسدلة على نافذتي المفتوحة، وصوت كلب ينبح في الخارج قريباً ربّما من غرفتي وربّما يكون الهواء قد حمله من مكان ما.

حين هبطت في الصباح وجدت والدي قد فتح إذاعة الرياض يشرب الشاي بالحليب، وبجواره والدتي. جلست بجانبه وقد حامت هالات سود حول عينيّ.

سكبت لي والدتي فنجاناً من الحليب والشاي ومدّته ناحيتي وعلى شفتيها بقايا ابتسامة.

قالت تمازحني:

- وش أخبار العروس اليوم؟

قلت وأنا أشرب الحليب، وكلب البارحة يطاردني، ودقّات قلبي غير المنتظمة تتسارع:

- أنا موافقة أتزوّج أبو فهد.

غرقت أمّي في الضحك ظنّاً أنني أمزح، وقالت:

- الله يغربل عدوّك.

نظر إليّ أبي نظرة محمّلة بالشكّ، وعاد يسألني:

- تاخذين أبو فهد؟

قلت:

- نعم.

ثم خرجت.

في حفلة الزواج رحت أنظر إلى نفسي، وأنا أغرق في بياض فستان العرس. نظرت إلى جفنيّ الملوّنين بالأخضر والرماديّ وسواد

الماسكرا، وعيناي تدمعان. كلّ الفتيات في ليلة عرسهنّ يبكين، فنظنّ أنهنّ يبكين خوفاً من ليلة الفراق، ومن رهبة الدخول إلى زوج غريب، وخوفاً من أن يقول الناس إنّ العروس لم تصدّق أنها خرجت من منزل والدها سعيدة.

أختبر اليوم دموعي التي لامت الجميع، إبراهيم الذي لم يدافع عن سقوطي في شبكة غبائي، لم ينقذني من خيالي الأحمق الذي يريد أن يحبّ على طريقة سعاد حسني ويعيش على طريقة تحيّة كاريوكا. كل ما دافع عنه إبراهيم هو شباب الجهاد الأفغانيّ وتركني، مثلما عزف عن متابعة الجميلات المصريّات في مجلّة "كلّ ساعة"، وعن مديح خطب عبد الناصر وقصص هيكل مع أنور السادات، وصار مثل الشباب الذين يحبون التشبّة بتشي غيفارا لكن بغتر حمراء. لم يهتمّ لأمر زواجي. قال:

- إنّ أبو فهد رجل طيّب وجيّد وسيحافظ على ابنتنا أخيراً.

كان أبي واجماً بلا فرحة، يشعر بالخيبة لأنّ ابنته التي تحبّ سعاد حسني هجرت ربيعها لتعيش في خريفٍ يشابه خريف أمّها مع رجل يقاربه في العمر، وإن كان أصغر منه بعشر سنوات. لكنّ أمّي قالت:

- إنّ المرأة لا تعرف من أين يأتي النصيب، وإنّ الزواج مثل بركة من الرمال تبتلع المرأة دون علمها، وعزاؤها في هذه الحياة أن يكون لها أولاد يعتنون بها في كبرها.

عواطف أختي الكبرى فرحت لزواجي، لأنها مناسبة لتزورنا، وتقضي معنا أسبوعاً كاملاً. أصبحنا بالنسبة إليها العائلة الثانية وعائلتها الأولى هي أهل زوجها. لا تعجبها حياتنا ولا طقس الرياض، ستأتي

لترقص في ليلة عرسي، وستعود بعد أن تلبس بناتها ثياباً جديدة، وأولادها سيصطفّون في صالة الرجال بثياب العرس المزركشة، وعلى خصورهم تتدلّى خناجر صغيرة يرفعونها وهم يرقصون رقصة أهل نجد.

صنع أبو فهد من ليلة عرسي فرحاً كبيراً، لكنني لم أفرح إلاّ حين عثرت على علبة خشبيّة كبيرة ومظروفاً ورقيّاً فوق الطاولة في غرفة الفندق، فتحت العلبة فوجدت عقداً من الألماس وفي المظروف وجدت كتيّباً صغيراً أخضر فتحته فوجدت صورتي فيه، فعرفت أنّ هذا هو جواز السفر الذي استخرجه لي بصفته زوجي، استعداداً لقضاء شهر عسل في القاهرة.

وفي الساعة الحادية عشرة كنت أجلس مع الحقيبة السوداء بثوبي الأبيض في غرفة النوم في الفندق، جلست على كرسيّ وحيد في الغرفة، ومقابل الكرسيّ نافذة كبيرة فتحت على الشارع العامّ. كانت مدينة الرياض بأضواءها تجلس رابضةً بلا مبالاة تحت الشبّاك، مثل كلب حراسة، تنظر إليّ بحياد، لا تحزن من أجلي ولا تفرح. حتى الرياض تخلّت عنّي، أسلمتني لطريق العناد والحنق، تركتني أذهب في طريق المخاطرة دون أن تتدخّل لحمايتي. "كيف يمكن أن تحميني؟"، سألت نفسي.

أنا خائفة لكنني أصبحت في نقطة اللاعودة. لا بدّ لي أن أستمرّ وأكمل الطريق. لو توقّفت ستبتلعني الرمال. يجب أن أركض، أن أمشي. دخل أبو فهد غرفة الفندق بعدي وألقى السلام. لم أردّ. يبدو طبيعيّاً أن لا تردّ العروس السلام لأنها خجلى. صلّى ركعتين، ثم

اقترب منّي ورفع غطاء وجهي. شعرت بالذعر، لقد قبضت الثمن الذي أردته من هذه الصفقة "جواز السفر"، ولم أنتبه أنني سأدفع مقابلاً هذا الذي يحدث الآن. معدتي انتفخت وامتلأت بالهواء. طوّق الشوك رأسي ودوّى حول عيني اليسرى. دقّات عنيفة فوق حاجبي. استدار هو إلى المشجب، ثم أمسك بطرف ثوبه من أعلى، ثم سحب ثوبه لأعلى فخرج طرف سرواله الأبيض الطويل، انكشف لحم كتفيه تحت فانيلة داخليّة دون أكمام. تمدّد حمض صاعد من أسفل بطني حتى حلقي ثم ضغط رأس حربة خفيّ جنبي الأيمن فقرصني. ركضت إلى الحمّام وأغلقت الباب بصوت مرتفع. اندفع تيّار هواء من بطني جارفاً معه بقايا طعام أكلته هذا الصباح. تبلّلت عيناي بماءٍ انفجر نبعه من كلّ مكان، رشح من أنفي وعينيّ وفمي ومن أسفل ثيابي التحتيّة. بعد سباحتي في مياه الرفض العارمة، شعرت بأنّ قواي تنسلّ من جسدي وتهبط بي نحو الأرض. التصق خدّي ببلاط الحمّام المنقوش بشمس صفراء تضحك. تمدّدت على أرض الحمّام ووضعت يدي تحت خدّي، ومددت رجليّ وغطّيتهما ببقايا فستاني الأبيض الطويل واستسلمت لنعاس فاجأني. في الخارج كنت أسمع صوت أبو فهد يناديني:

– عزيزة، افتحي الباب، وش فيك، عسى ما شرّ؟

(٢٥)

انتقلت عطوى بعد موت أمّ جزاع للعيش في القصر، وأصبحت واحدة من جيش النساء والفتيات اللاتي يعشن في الغرف الخلفيّة، والتنقّل مع أمّ سعود حيثما ذهبت، إلى مكّة في الشتاء، والطائف في الصيف. هناك لا تشعر أنها تحت تصرّف أحد. تستطيع أن تترك المكان متى ما أرادت، فبوّابات القصر مفتوحة على الدوام، وهي تستطيع القفز من فوق السور لو أرادت، فهي لا زالت تحتفظ بعادة هروبها مخبّأة تحت ثيابها ومستعدّة للعودة لثياب الصبيّ لو اقتضى الأمر. بقاؤها سنوات دون جماعة نساء جعلها تجد صعوبة في التمدّد معهنّ في رخاوة الحكايات الأنثويّة، استغرقت وقتاً طويلاً كي تألف حكايات تافهة لم تحدث لها، أمّا هي فلم تشعر أبداً أنّ ذكرياتها قابلة للمشاركة مع أحد، فقد كانت مزيجاً من الغرابة والفظاظة وظنّت أنها لو قصّتها لأحد لهرب منها، لذا خبّأتها في جرار روحها التي كانت صنعتها يوم كانت صغيرة. كانت تحاول أن تفهم الإناث من حكايات الفتيات والنساء حولها، ثم غدت تتمثّل أنها قد عاشتها مثلهنّ حتى صارت لا تفرّق بين ما كان حقيقة وما كان حلماً. اختلط عليها الحلم

بالواقع فلم تعد تعرف أين الحكاية التي كانت في حلمها، وأين الحكاية التي عاشتها، لكنها تعرف جيّداً أنّ ما مرّ بها لا يوجد ما يشبهه في حكايات صديقاتها الجديدات.

الحياة على حافات القصر أكثر صخباً عند عطوى من الحياة داخله، تحبّ هذا الضجيج في الغرف الخلفيّة للقصر حيث تسكن قبيلة من النساء، بعضهنّ يعملن خدماً وبعضهنّ مرافقات وبعضهنّ زائرات للخدم والمرافقات، يخترن في فراغ الليالي الطويلة زيارة بعضهنّ بعضاً، فيجلسن يومين أو ثلاثة، ومطبخ القصر لا يبخل عليهنّ فيمدّهنّ دائماً بما يكفيهنّ من الطعام والحلويات والمشروبات التي لا تنقطع.

غطست عطوى في بحر الأنوثة الفائضة بين النساء، تجاور أجسادهنّ الممدّدة في كسل على الأرائك، وهنّ يغدقن عليها محبّتهنّ الوافرة، يترجمنها بأجسادهنّ، ويتمّمنها بالكلام الحميم. تقول الواحدة للأخرى: "يا قلبي، ويا عيوني"، تشرح أكثر بأنها قلبها النابض وأنها روحها التي تهبط في صدرها وتصعد. يقبّلن بعضهنّ البعض كلّما سمعن هذا الكلام، تتآخى أجسادهنّ حتى تصبح ملامساتهنّ ألعاباً تُمتع أرواحهنّ وتشبعها. حين تشاهد فايزة جسد عطوى ممدّداً على أرائك الإسفنج الطويلة تركض وتجلس فوقها، تفرش جسدها عليها وتضحك، تحضنها من الخلف، فتسحب عطوى جسدها بقوّة أو تدفع فايزة بعيداً عنها، فتندفع نحوها، وتجرّها إلى الأرض، وتقفز فوقها وتغمر رأسها في رقبتها وتعضّها، تضحكان، تدفع عطوى جسد فايزة بعنف لكنها تمسك يديها وتلفّهما خلفها حتى تشلّها، ثم تحضنها من ظهرها حتى يسكن جسد عطوى ويهدأ.

صار تمرّد عطوى على محبّة النساء محلّ مزاحهنّ، فصرن يتجمّعن حولها ويحملنها، تمسك واحدة بقدميها وواحدة بيديها فتهبط عليها من تريد تعذيبها وتأخذ بتقبيلها على وجنتيها أو تغمر رأسها بين كتفها ورقبتها لتعضّها. تشعر عطوى بدغدغة جسدها فتضحك هي الأخرى، استسلم جسد عطوى لهنّ، صارت تعرف أنّ جسدها كلّما عاندهنّ أكثر صار هدفهنّ المحبّب طوال اليوم؛ فتركت وجنتيها لقبلهنّ، وحين تمرّ فايزة بها وهي ممدّدة على الأرض وتجلس فوقها تنقاد لها صابرةً حتى تقوم عنها دون أن تنبس باعتراض.

سمعت عطوى جلبة قادمة من الباب، فلمحت فايزة تركض وقد خطفت حلية من يد نجوى، أثار ركضها حماس الباقيات من البنات وتعاطفهنّ مع الخاطفة، لا تكون اللعبة أجمل إلا بالتواطؤ مع الأقوى، فضعف الضحية لا يزيد إلاّ رغبةً في افتراسه أكثر من الشفقة عليه. تركض نجوى مندمجةً في اللعبة بجدارة، شعرها قد طارت خصلاته وتعرّق نحرها بالحماس، لكنها لا تجد فايزة. خبّأتها إحداهنّ تحت ثيابها، كي يسهّلن لها طريق النجاة بغنيمتها، وبعضهنّ يقفن في وجه نجوى يضلّلنها، يشرن إلى الباب: "خرجت من الباب"، يصرخن بها، فتستدير إلى الخلف لكنها تسمع ضحكهنّ، فتستدير فترى فايزة تتحرّك تحت ثوب نجمة، فتقفز عليها، تشدّها من قدميها فتنكشف ساقاها، تمسك يدها وتغرز أظافرها التي أمسكت بقرطها. تستسلم فايزة وهي تتأوّه وتنظر ليدها المبرقشة بالخدوش، ثم تقفز مرّة أخرى على نجوى تعضّها وتدغدغها.

دخلت وردة بدفوفها، تصحبها عضوات فرقتها المدرّبات على

الدقّ في الأعراس، جلست بينهنّ ومسحت جلد الدفّ الناعم بحنان، ثم ضربت عليه بحنوّ ضربات خفيفة فتجمّعت الفتيات قربها في شكل حلقة، تجاوبت بقيّة الفرقة معها بطرق دفوفهنّ بتناغم مع إيقاع وردة، أقبلت فايزة تصفّق تتبعها عطوى، وبدأت وردة بالغناء، وبعد كلّ مقطع تقوله وردة تعيده وراءها الفتيات. أطلقت إحداهنّ آهة حرّى من جوى الحبّ، لكنّ الباقيات قمن يرقصن مثل فراشات، فرشن أيديهنّ مثل أجنحة، ثم أمسكن بأطراف فساتينهنّ، ودرن بها يميناً وشمالاً، سيقانهنّ مشدودة العضلات من كثرة الرقص والركض.

وغنّين: "دُر بيها يا الشمالي دُر بيها".

دخل ضاري حاملاً معه صندوق أشرطة كبيراً فوجدهنّ يرقصن، قامت وردة إليه وقبّلته بينما فرقتها لا تتوقّف عن الغناء بدلاً عنها. ترك وجهه في حضن وجهها مرتاحاً، وهو ينظر لعطوى علّها تغار، لكنّ عطوى تدير وجهها بعيداً كي لا يرى غضبها. ضحك ضاري لأنه يعرف مزاح وردة المحموم بالمودّة، كما يعرف أيضاً أنها تبالغ في تقبيله لأنها لا تميل إلى الرجال.

جلس ضاري وجلست حوله فرقة وردة اللاتي يحملن لضاري محبّة وامتناناً، فهو صديقهنّ الذي يزوّدهنّ بكلمات الأغاني المطبوعة والأشرطة الحديثة ويسجّل لهنّ غناءهنّ ويبيعه.

قالت وردة:

– خلاص بعت المحلّ؟

قال ضاري:

– وش نسوّي، بدل ما أموت معه.

قالت وردة:

- حسبي الله عليهم.

ثم غنّت بصوت مجروح وهي تطالعه:

"يا ما نهيت القلب أمرار وأمرار، لكن عصاني قلبي اللّي نهيته".

عادت البنات يرقصن ويلوّحن بشعورهنّ يمنة ويسرة، وضاري يتفرّج، وحين أخذه الطرب قام يصفّق ثم جرّته نرجس إلى حلبة الرقص وأخذ يحوم حولها ويطوي يديه على صدره ويثني ركبتيه ثم يغطّي وجهه بطرف غترته، وحلق في فضاء ضاجٍّ بالطرب، وعطوى تراقبه من بعيد وتبتسم بحنق.

(٢٦)

لا تمشي إلاّ ومعها سائقها الهنديّ روشان. ألبسته ثوباً ونعالاً جلدية، ومع الوقت تحوّل اسمه إلى هوشان، وصار يناديها: يا عمتي وضحى، كما يفعل كلّ رجالها الذين يعملون في خدمتها. مشت وضحى بين الطرقات التي عرفتها قديماً في سوق الحمام، دخلت سوق السجّاد العتيق لتتفقّد خشب العود والصندل الذي وعدها به أبو محيسن.

بين هذا الطريق الذي عرفته وبين بسطتها في سوق الحريم مرّ عقد من السنوات، لم تحسبها أبداً لكنها مضت. ظلّت وضحى نحيلة، وإن زادت بضعة كيلوغرامات عن يوم قدومها، يوم جاءت تفتّش عن طعام وثياب لأولادها، لا تدري كم أصبح عمرها سوى أنها دخلت في البياض. فقد أصبحت جدّة لأحفاد من الجازي، ومن متعب ومزنة. لا تتزيّن وضحى كما تتزيّن النساء اللاتي يضعن مدّخراتهنّ في مصاغ من الذهب، ويلبسنه تفاخراً بثرائهنّ، حتى ظنّ نساء السوق أنّ وضحى بخيلة لأنهنّ لا يرينها تصفّ خواتم الذهب في أصابعها المتجلّدة بالصبر، ولا تزيّن رقبتها بعقود الذهب التي تحبّها كلّ النساء. تهرب

وضحى من كلّ ما يعيق النظر إليها كتاجرة في السوق. تضع برقعاً من القطن الخفيف على وجهها، وعباءة قصيرة من الحرير، تترك جناحيها ينفتحان على أثوابها الملوّنة بورود صغيرة تكاد لا تُرى. تدخل السوق بعينين ثاقبتين كعيني حدأة، تفتّش عن أبي محيسن الذي جلس فوق مقعده الصوفيّ وبيده مهفّة من خوص، عرف وضحى من هيئتها وهي تقبل من أوّل الطريق، إذ لم تتغيّر طوال عقد من الزمن، وعرفها كلّ من في السوق فبدأوا يرسلون لها التحيّة من أبواب دكاكينهم المفتوحة: "صبّحك بالخير يا وضحى، كيف أصبحت؟".

جلست وضحى بجانب أبي محيسن فنادى صبيّه اليمنيّ عمر ليصبّ القهوة. مدّ عمر فنجان القهوة لوضحى، فرفعت طرف برقعها ودلقت ما في الفنجان في فمها دفعة واحدة، ثم أعادت الفنجان إلى الصبيّ عمر، وهزّته إشارةً إلى الكفاية.

قال أبو محيسن:

- يا وضحى، العود اللّي جبناه هالسنة يختلف عن العود اللّي أوّل، أطيب وسعره أغلى.

احتجّت وضحى قائلة:

- الناس ما يحبّون إلاّ ما يعرفونه، والجديد سعره أغلى.

- ما لنا إلاّ أن نصبر لين يتعوّدون عليه ويعرفون أنه أطيب.

ثم دفع برأسه قليلاً ليقول لها:

- ترى طيبنا ما نجيبه إلا للخاصّين، والخاصّين يكفون عن غيرهم، صحّ ولاّ لا يا وضحى؟

صمتت وضحى قليلاً، ثم قالت:

- شف يا بو محيسن، أباخذ منك نصّ الكمّية اللّي حنّا متّفقين عليها لين أشوف.

- طيعيني يا أمّ متعب بتجين عقب تدورينه لينه خالص.

- أجل، توكّلت على الله، عطني إيّاها كلّها.

طلبت من عمر أن يفتّش عن هوشان خارج السوق ويضع كمّيّة الطيب في الصناديق في سيّارتها، ثم قالت:

- أبروح لأبو سليمان أشوف البشوت اللّي وصّيته عليها.

وضحى تعرف أنّ العمل في سوق السجّاد العتيق أكثر إثراءً لها، لكنها تعرف أيضاً أن لا مكان لها فيه، وقد ازداد حضورها فيه صلابةً حين بدأ مطاوعة يطردون النساء من الأسواق المزدحمة بالرجال، وقد اصطدمت أكثر من مرّة بحماسة شباب هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الذين لم يقدّروا سيّدة مثل وضحى، لم تهبط إلى السوق إلاّ لتجمع رزقها، ويرفضون حضور سيّدة بعمرها لأنه مخالف لما يعتقدونه عن المرأة. لا فرق عندهم بين سيّدة في عمر وضحى وبين فتاة في مطلع عمرها، تنشر فتنة جسدها الغضّ بين الرجال. برز في وجهها شابّ بعمر ابنها ضاري وصرخ فيها:

- اتقي الله يا حرمة، تسترّي.

فتنظر إلى وجهه الغرّ، وتقول:

- يا ولدي أنا كبر أمّك، علامك؟

يدير وجهه إلى الناحية الأخرى ويقول:

- أما عندك رجاجيل يقومون عليك؟

تعرف وضحى أنّ حضورها طارئ يتسلّل بخفّة بين دهاليز السوق

مثل طير يدخل في الصباح ويلتقط الحبّ ويخرج. سوق السجّاد كله للرجال، ولن تستطيع أن تضع لها قدماً فيه، لذا أبقت بسطتها في سوق الحريم ببضائعها البسيطة مثل دكّان يحفظ عنوانها في السوق لمن يأتي يفتّش عنها، وتركت فيه خادمتها الهنديّة التي ألبستها برقعاً وعباءة بدلاً من مزنة التي تركت العمل معها منذ تزوّجت.

ركبت وضحى مع هوشان، وقالت له:

- ودّنا لقصر عمّتك أمّ سعود.

وصلت وضحى إلى قصر كبير فتحت بوّابته على الشارع العامّ في الجهة الشماليّة لمدينة الرياض. تزيّن القصر قباب زرقاء، بوّابته الأماميّة مفتوحة على مصراعيها، جلس أمامها رجلٌ يلبس ثوباً ويترك رأسه مكشوفاً، عرفت وضحى أنه إسماعيل المصريّ حارس القصر. توقّفت السيّارة أمام البوّابة. قفز وأقبل عليها، ففتحت شبّاك السيّارة، وبادرته بالسلام:

- السلام عليكم.

- وعليكم السلام يا وضحى، اتفضّلي.

دخلت السيّارة، وحمل هوشان البضاعة ومشى خلفها. وقفت تنظر إلى ساحة القصر الكبيرة المفروشة بالنجيل الأخضر، تحفّها ورود ملوّنة، وعلى مقربة من الباب الخشبيّ للمبنى الكبير صُفّت أصص كبيرة من الجبس الأبيض تحمل وروداً أخرى بسيقان طويلة. حدّقت في عين الشمس لتعرف كم بقي على صلاة الظهر. سمعت صوت أقدام هوشان خلفها، نظرت إليه فإذا به يحمل الصناديق، وينتظرها لتتقدّم أمامه. مشت حتى وصلت إلى باب في الجانب الغربيّ للقصر.

طلبت من هوشان أن ينتظر، وفتحت الباب وصاحت بواحدة من الفتيات السمراوات. ركضت عاملة القصر نحوها ومعها رفيقة أخرى تتبعها، طلبت منها أن تحمل الصندوق الكبير، ثم طلبت من الأخرى أن تحمل الصندوق الثاني، ثم ناولت عاملة ثالثة المشلح البنّيّ الذي حملته في يدها. ركضت الفتيات السمر يحملن صندوقين مستطيلين ورداءً مذهّباً. طلبت من الفتاة السمراء أن تحمله معلّقاً على يدها حتى تجد مشجباً، وتعلّقه عليه كي لا تنسلّ خيوطه.

دخلت وضحى فوجدت في المجلس نساء يزدن على العشر، بعضهنّ يضعن براقع على وجوههنّ، وبعضهنّ كاشفات عنها لكنهنّ يلففن حول رؤوسهنّ شالاتٍ سوداً من النايلون تشبه الشبكة، تكشف ثقوبها الدقيقة الشفّافة عن حليهنّ الذهبيّة من حلق في الأذن وعقد على الرقبة.

ألقت السلام بصوتٍ عالٍ، ثم اتّجهت مباشرة إلى سيّدة ممتلئة القوام بيضاء، تفرق شعرها من المنتصف، وتضع حليّاً مليئة بفصوص تلمع من الألماس الملوّن. كانت هذه هي السيّدة صيتة التي يناديها الجميع بأمّ سعود.

رفعت أمّ سعود رأسها تبتسم، انحنت فوقها وقبّلت رأسها، ثم التفتت نحو النساء الباقيات، ورفعت يدها من بعيد، وقالت:

- صبّحكنّ الله بالخير.

ردّت جميع النساء على تحيّتها بحماسة.

قالت لها أمّ سعود:

- ورا ما جيتي تفطرين معنا يا وضحى؟

- رحت أخلّص أشغال لي في السوق.

سألتها الجالسة بجانب أمّ سعود:

- نجيب لك فطور؟

ردّت وضحى.

- الله يكثر خيرك أبي قهوة وتمر.

تقدّمت الخادمة الواقفة في المجلس تحمل دلّة في يدها، وسكبت فنجان قهوة ومدّته إليها، ثم نظرت وضحى إلى الأرض، ووجدت صحناً من التمر يجاوره إناء فارغ لوضع النوى فيه، جرّته نحوها وأخذت تأكل، تناولت تمرة وراء أخرى، بلغت عشراً من التمر.

لاحظت أمّ سعود جوعها، فقالت مرّة أخرى:

- نجيب لك فطور؟

- هذا التمر هو فطوري.

ضحكت النساء وقالت واحدة منهنّ:

- هذا اللّي خلاّك ما تسمنين.

وقالت السيّدة التي تجلس بجانب الشيخة صيتة:

- كلي زين يا وضحى، الرجال يحب المرة السمينة.

ضحكت النساء.

قالت وضحى:

- الله المستعان.

دخلت الفتاتان السمراوان ووضعتا الصندوقين أمام الشيخة صيتة.

قالت وضحى:

- يا أمّ سعود، هذا عود أزين من الأوّل واللّي يعرف العود يثمّنه!

نظرت أمّ سعود إلى الفتاة السمراء التي وضعت الصندوق، ثم وقفت وقالت:

- جيبي الجمر هالحين، خلّنا نجرّبه ونطيّب الحريم منه.

ثم قدّمت لها رداءً مزيّن بالقصب وقالت:

- وهذا بعد بشت وصّى عليه أبو سعود الله يطوّل عمره.

دخل شابّ طويل على مجلس النساء. فقفزت سيّدة نحيلة اسمها منيرة، كانت تجلس بجانب أمّ سعود من مكانها، وركضت تقول:

- وين الغطاء أغطّي وجهي؟

ضحكت أمّ سعود وهي تقول:

- يا منيرة، تعالي اقعدي، سعود ولدي ما عنه غطاء.

قالت لها السيّدة التي تلبس برقعاً، وتنهض مفسحةً المكان للشابّ الذي دخل:

- المرة ما تغطّي إلاّ عن الرجاجيل، وسعود شيخ الرجاجيل.

تدرك جميع السيّدات اللاتي سمعن سارة تتحدّث أنّ لباقتها في عدم إفساد آراء الشيخة صيتة والمحافظة على حشمة النساء وتقاليدهنّ هي التي جعلتها في المرتبة الأولى عند أمّ سعود، وجعلت من سارة جليسة دائمة لا تفارقها في حلّها وترحالها.

أدخلت وضحى يدها في جيب ثوبها الأيمن، وأخرجت صرة من بخور ثمين ورمته في حضن سارة قائلةً:

- هذا عود خشيته لك، والطيّب للطيّب.

- الله يكثّر خيرك يا أمّ متعب ويغنيك.

سارة تقدّم خدمات كثيرة لوضحى، فهي رابطتها بالسيّدات

الغنيّات اللاتي يرغبن بشراء بضائعها فتدلّهنّ عليها، وهي لا تطلب مقابلاً، لكنّ وضحى تثمّن خدماتها وتقدّم لها الشكر بما يتوفّر لها من العود والحنّاء وشراشف الصلاة.

عادت وضحى إلى سوق الحريم بعد أن أوصلت الصناديق إلى أصحابها، وما إن دخلت حتى وجدت بسطتها قد أغلقت وبضائعها قد بعثرت وخادمتها الهنديّة غير موجودة. سألت عنها النساء اللاتي تمدّدن فوق سجاجيدهنّ ينعمن ببعض الراحة:

- أين ذهبت الخادمة؟

قالت مشعا بنت فرج:

- أخذها المطوّع.

سألت وضحى:

- ليه يا مشعا؟

- والله مدري يا ختي، خفنا نقول شي ياخذونا معها.

مشت وضحى مع هوشان إلى مركز الهيئة الجديد الذي لا يبعد إلاّ شارعين عن سوق الحمام، وحين همّت بالدخول ركض رجل ذو لحية طويلة واعترض طريقها، يقول:

- خير خير يا حرمة، وين بتروحين؟

قالت وضحى، وهي تشير لهوشان الذي يحمل صندوقين متوسّطي الحجم مشيرةً ناحيته:

- أنا جايبه هديّة للشيخ أبو بجاد الله يطوّل عمرك وعمره .

نظر إليها الرجل ممتعضاً، كان يريد أن يقول لها تعليقاً على لباسها، وأن تزيد في الستر، لكنه لم يجد في هيئتها النحيلة وضمور جسدها

وثيابها المتواضعة ما يحمّسه لفعل ذلك رغم أنها امرأة وعليها أن تفعل مثلما تفعل النساء، وأن تسدل كامل عباءتها على جسدها كلّه، ولا تظهر نحرها الذي يظهر عند كلّ حركة، فسكت.

دخلت فوجدت أبا بجاد يجلس ممسكاً سواكه، ويكتب في ورقة أمامه. رفع رأسه وحيّا أمّ متعب دون حماسة.

- يا أبو بجاد، الله يسلّم عمرك. هذا عود توّه واصلني، قلت: أطيّبك منه والطيّب للطيّبين مثلك.

تهلّل وجه أبو بجاد وهو ينظر لهوشان الذي وضع الصندوقين فوق طاولته.

فتح الصندوق وقلب بأصابعه قطع العود الكبيرة، ثم حمل قطعة منه، قرّبها من أنفه، ثم أمر زميله الشابّ المتجهّم أن يحضر لهم جمراً ليجرّبه.

قال لأمّ متعب:

- كم قيمته ذا يا أمّ متعب؟

- ما يغلى عليك طال عمرك، هديّة ما تسوى موطى رجليك يا شيخ.

ضحك الشيخ، وهو يقول:

- مشكورة يا أمّ متعب، بس عساه من الغالي.

- والله أنه ما يورّد إلاّ للشيوخ.

- يعني كم يسوى؟ نبي نعرف لو وصّانا أحد.

- كيلوه يا طويل العمر بألف ريال، واللّي معك كيلوين.

رمى قطعة من خشب العود في المبخرة، ارتخت ملامح الشيخ،

وشعر بالحبور، ورائحة العود الحادّة والطيّبة تدخل رأسه.

غاب وجه الشيخ وراء سحابة الدخان الكثيفة، ثم بدأت ملامح وجهه تظهر مرّة أخرى، وغمامة تصعد إلى أعلى عن وجهه، فناول المبخرة زميله الشابّ الذي وضع المبخرة تحت غترته ولحيته، وهو يقول:

- الله! إنه عود طيب.

صاح أبو بجاد:

- كثّر الله خيرك يا أمّ متعب.

ردّت أمّ متعب:

- وخيرك يا شيخ.

وقبل أن تنهض وضحى مودّعة أبو بجاد قالت، وكأنها تذكّرت ما جاءت من أجله:

- يا شيخ، البنيّة الهنديّة اللّي تشتغل عندي. قالوا لي إنها عندكم!

ارتبك الشيخ أبو بجاد قليلاً، ثم نظر إلى الشابّ مساعده، فقال:

- هذي الهنديّة اللّي جبتوها هي خدّامة أمّ متعب؟ قم قم ضهّرها الله يجزاك خير.

ركض الشابّ، وأحضر معه خادمة صغيرة تنتفض خوفاً ورعباً، وما إن رأت أمّ متعب حتى قبضت على يدها قائلةً:

- ماما، ماما وضحى.

أخذت وضحى خادمتها بعد أن تأكّدت أنّ الشابّ المساعد الجديد قد عرفها هذه المرّة، وعرف حظوتها عند أبي بجاد، ولن يفكّر في المرّة القادمة بالقبض على خادمتها أو مناكدتها. لكنها بعد يومين من

هذه الحادثة خرجت من السوق متأخّرة وفتّشت عن سائقها هوشان والخادمة التي سبقتها للسيّارة فلم تجدهما، وفي اليوم التالي وجدتهما في السجن بتهمة الخلوة، لأنهما كانا يجلسان في السيّارة وحدهما ينتظران وضحى في العاشرة ليلاً عند مدخل سوق السجّاد.

ذهبت وضحى مرّة أخرى إلى الشيخ، وجلست تحدّثه عن كثرة المضايقات التي تتعرّض لها من زملائه، وحين وجدته لا ينصت إليها جيّداً قالت:

- يا شيخ، عندي فلوس ودّي أبني بها مسجد كبير.

التفت إليها أبو بجاد متحمّساً، وقال:

- الله يجزاك خير يا وضحى، لا تواخذين هالشباب المتحمّس، تراهم ما يعرفونك.

أخذت وضحى تزور مكاتب الهيئة كثيراً، وتعدهم بمساعدات متفرّقة. آخر مرّة عرضت على أبي بجاد مساعدة الشباب بتقديم قروض زواج لتساعد في تحصينهم. ففرح بمبادرات وضحى الخيريّة، ونشر بين زملائه أن لا يتعرّض أحد لوضحى التي لا تتوانى عن فعل الخير. وفي آخر مرّة زارته طلب منها أن تفتّش له عن شابّة صغيرة، فقد سمع أنها تحسن اختيار النساء الجميلات اللاتي يُعِدْنَ الشيخ إلى صباه.

وعدته وضحى خيراً رغم أنها لم تعد تشتغل بالخطابة منذ زمن طويل، لكنّ جارتها في السوق، مشعا بنت فرج، هي التي تقوم بمهنة الخطّابة، وقد اشتهر اسمها بين الرجال والنساء سويّاً، فهي تتمتّع بصفة لا تحسنها وضحى، وهي رفع الفتاة المتواضعة الجمال إلى مصافّ القمر في عين الخاطب، وتجعل الرجل الفقير في عين المرأة الراغبة في

الزواج رجلاً زاهداً، وهي مهارة لا يعيبها إلاّ تجربتها، وقلب الحقائق التي لا تلزم دليلاً، إنما تحتمل أن تكون وجهة نظر، أو كما يقولون، نظرة تختلف من شخص لآخر، فالقبول ليس له علاقة بجمالٍ أو مال. فكم من قبيحة كانت في عيون رجل جميلة، وكم فقيراً غدا عند امرأة أكثر الرجال قبولاً، وهذا يعود لخلطة الحظّ التي لا تأتي مع الاجتهاد، بل هي وعد يهبه الله لمن يشاء، لهذا تدعو مشعا بنت فرج لعروسها القادمة بأن يكبّر الله حظّها، فالحظّ هو من يبيع لك ويشتري وليس جهدك.

تعبت وضحى من ملاحقة كلّ أعمالها، لم يعد يوم واحد يكفيها، فتركت بعضها لابنها متعب، وكلّفت مزنة بمراجعة البنك، ومتعب بقبض الإيجارات من دكاكينها في سوق الخضرة، وضاري بحمل صناديق العود الثمينة للتجّار والشيوخ الذين لا يحسن هوشان التصرّف معهم، بينما تركت للجازي العناية بالمنزل ومراقبة طفلتها وإحضار ما تحتاج من السوق، وتركت بعض أشيائها للنسيان حتى يأتي أصحابها ليذكّروها بها.

تتوق وضحى للراحة، ولا تعرف طريقها ولا تعرف كيف تكون، لكنها وجدتها أخيراً. جاءت إليها تسعى، ففي منتصف شهر رمضان بعثت السيّدة أمّ سعود شاباً من أصل إفريقي اسمه زويد، هو عادةً من يحمل رسائل أمّ سعود إليها، أبلغها زويد برسالة عمّته:

– عمّتي بتروح يوم الإثنين إلى مكّة.

لا تحتاج وضحى إلاّ إلى هذا اللقاء، زيارة المسجد الحرام والصلاة فيه، فقد شعرت أنّ المدينة قد أكلت روحها، وجعلت أيّامها جافّة

وقاسية مثل وجوه أهلها، تمنّت لو تلفح نسائم مكّة الرطبة أنفها وتغسل وجهها بماء زمزم المبارك، وتنام وتصحو على صوت الآذان.

قالت لزويد:

- يا ولدي، من عقب صلاة الفجر وأنا عندكم.

حزمت ثيابها في حقيبة صغيرة، وخرجت من بيتها بعد صلاة الفجر، واتّجهت إلى قصر أمّ سعود تاركةً كلّ شيء خلفها، وفي قلبها رغبة في أن تكون رحلتها إلى المسجد الحرام محطّتها الأخيرة. تمنّت لو أن أطهر البقاع تكون هي حضنها النهائي.

في مكّة طافت مع أمّ سعود ورفيقاتها حول الكعبة، وقبّلت الحجر الأسود، وصلّت عند مقام إبراهيم. وسعت معهنّ بين الصفا والمروة، وشربت من ماء زمزم. عادت أمّ سعود ورفيقاتها إلى الشقّة المجاورة للحرم المكّيّ، لكن وضحى فضّلت البقاء في ساحة المسجد الواسعة تقابل الكعبة الشريفة تتأمّلها، وتترك روحها تخفق في رحابها، كما يخفق حمام المسجد حبّاً وشوقاً ورغبةً ورهبةً من هذا اللقاء.

استسلمت وضحى لرهبة المسجد الحرام مثل طفلة جذلى، تسمع القرآن الذي لا تجيد قراءته، لا تعرف منه غير ما حفظته من أولادها حين ذهبوا إلى المدرسة وصاروا يقرأونه على مسامعها، لم تحفظ منه سوى سور قصيرة مع الفاتحة، قالت إنها تكفيها للصلاة، وإنّ الله سيسامح أمثالها الذين تركهم أهلهم صغاراً دون أن يرسلوهم إلى شيخ أو شيخة يعلّمانهم القرآن. تتذكّر حياتها القصيرة في الصحراء يوم حملها زوجها إليها، ثم تركها أعواماً ترعى أبناءها وحدها، تباشر حياة قاسية جافّة لم تكن الصلاة جزءاً منها. كانت مثل الكلبة

"سارحة" التي تولّت حراستهم بغريزتها. تجري وراء القطيع حتى تلهث، تركض، وحال عودتها تلِغ في الماء بشراهة، تتشمّم الطريق لتصل إلى طعامها الفقير، تركض حول الخيمة تؤمّن المكان، ثم تعود تربض بجانب الخيمة تحرس أصحابها وتنام على حافّة الغفوة، وما إن يلمس الأرض غصن كسرته الريح وطيّره الهواء حتى تنهض على قائمتيها تنبح في وجهه كي يبتعد.

تتمدّد وضحى بعد صلاة الفجر بهيئتها الصغيرة على الأرض، تضع رأسها على الرخام فتتسرّب برودته إلى خدّها، فيتدفّأ بها وكأنه يقبّلها ويدعوها للالتحام به والتمدّد في حضنه الحنون. أوّل مرّة تشعر بهذا العطف في قلب قطعة من حجرٍ بارد في المسجد الحرام، الذي غدا مثل روح تمسّد خدّها وتمنحها رأفته. نظرت إلى خيوط الفجر التي شقّت صدر الصباح، وعبرت الفضاء المفتوح فوقها. شعرت بخفّة لا متناهية في جسدها، كرأس ريشة تدغدغ نقطة في منتصف صدرها وفي بطنها، حلّقت عيناها في القبّة السماويّة، وسواد قطيفتها يتلاشى ببعض البياض الذي شقّ طريقه وأضاء الأفق. لاحقت حمائم المسجد، طارت خلفهنّ مثل حمامة بيضاء، انفرجت أساريرها، وهي تشاهد كلّ شيء تحتها، تمرّ بأماكن تركتها وهي صغيرة، تتجوّل ذاكرتها مثل خيط بياض في اللامكان واللازمان، تذهب أحياناً إلى ما مضى، ثم تعود إلى ما جاء بها إلى هنا، حيث تمنّت أن تصل أخيراً.

ذهبت ذاكرتها بعيداً، رأت نفسها وهي طفلة في العاشرة، أو ربّما أزود قليلاً، ووالدها يطلب منها أن ترافق رجلاً غريباً جاء إليهم، اسمه طراد يكبرها بعشرين عاماً، ويخبرها أنه قد صار زوجها. فودّعت

أمّها وهي ترتجف خوفاً، وتداري دمعها المرتبك. وضعت في يدها حقيبة من قماش فيها مشط خشبيّ تحتفظ به حتى الآن، ومعجون تمر وقطعتين من الخبز الجافّ. أركبها زوجها في صندوق سيّارة نقل كبيرة، وركب هو مع السائق في مقدّمة السيّارة. فكّرت أنها لم تحفظ وجهه، ولو ضاع فإنها لن تهتدي إليه. جلست فوق قاطع خشبيّ من طابقين تقبع في أسفله أغنام وحزم برسيم رطبة بلّلها المطر، معها نسوة لا تعرفهنّ ولا ترى وجوههنّ القابعة بصمت تحت براقعهنّ وأغطية وجوههنّ، تشمّ رائحة فضلات الغنم، وتحدّق في صدر السيّدة التي أخرجت ثديها وأخذت ترضع صغيرها. مشت السيّارة في أرضٍ وعرة، لكنّ الطريق فيها واضح وممهّد. هبطت مع زوجها ومشت مسافة طويلة حتى وصلت إلى حيٍّ من الخيام تجمّعت بعضها حول بعض. تذكّرت المرأة التي استقبلتها. لمعت عيناها بشدّة حين أقبلت. كانت خزنة أخت زوجها طراد، حيّتها ببرود، في حين أخذت يد أخيها وأدخلته مجلس الخيمة، وتركاها واقفة دون أن يدعوها أحد للجلوس. سكبت له القهوة، وأخذت تحدّثه بودّ، فيما وقفت هي تنتظر، تمسك بيدها حقيبة القماش، حتى داهمها الإعياء، فوضعت حقيبة القماش تحتها وجلست عليها.

قفزت ذاكرتها إلى مشهد آخر بعد عامين من زواجها، وهي تمشي ببطنها الطويل وراء قطيع من الماشية صار يعرفها جيّداً، يلحق صغاره بأمّاته، وهي تمشي خلفه، تربط خيطاً حول بطنها وفي يدها عصا وكيس قماش صغير علّقته في رقبتها فيه عشر تمرات يابسة. حين أشرقت الشمس جلست تحت غنمة مرضعة، وفكّت القطعة

التي غطّت ثديها ثم دنت منها، وحلبت قليلاً من لبنها ثم شربته، ثم أخرجت من كيسها تمرة وأكلتها. شعرت بألم غريب لا تعرفه يشبه موجاً يضغط متتالياً على بطنها، ثم يضرب بذَيله أسفل ظهرها لكنه ما لبث أن اختفى، وفي الظهيرة شعرت أنّ ماءً يتسرّب بين فخذيها. فزعت، وأغرقها الخوف في خيالات مرعبة، فهي بعيدة عن خيمتها ولن تدركها قبل مغيب الشمس، وزوجها ذهب إلى بلدة بعيدة، وقد لا يعود إلاّ بعد شهر. وأخته خزنة لن تفتقدها إلاّ والليل قد انتصف. لا تعرف ماذا تصنع، أرادت أن تبكي، لكن ماذا سيصنع لها البكاء؟ لن يسمعها أحد، جرّبت أن تبكي فخافت أكثر، لمحت سحليّة تخرج من جحرها وتنظر إليها بشفقة، مشت بجوارها ثم ركضت سريعاً وكأنها ذهبت تطلب لها النجدة. كانت الشمس قد قاربت على المغيب، وجعها قد أبطأ مشيها، والماء المندلق من بين فخذيها قد زاد، شاهدِت السحليّة نفسها تعود، وتمشي خلفها، ثم تجاوزتها، ثم عادت ونظرت إليها، كأنها تدعوها لأن تقف أو كانت ترشدها إلى مكان تذهب إليه، والظلام قد حلّ. عيناها قد علاهما الغبش، الخوف هو أكثر ما أنهكها. بدأ الثقل يدفع أسفل بطنها ويضغط بقوة على جنبيها. داهمها الوسن فغطّت في النوم ولم تعد تدرك ما حولها، لكنّ موجة أخرى من الألم أيقظتها من نومها، فسمعت صوت نساء مقبلات، وسمعت صوت دفوف وأناس يمرحون، كأنّ عندهم عرساً. سمعت صوتاً كصوت السيّارة التي جلبتها إلى البرّ، فزعت، سمعت صوت والدتها يناديها: "وضحى يا بنتي، لا تخافين"، ثم صوت والدتها تقهقه بفرح، بدأت تسمع صوت جلجلة حليّ ذهبية يحكّ بعضها

بعضاً، وحفيف ثياب ووطء أقدام تبعثر الرمل بدعسها، لم تعد تذكر غير صورٍ غائمة. امرأة تضع برقعاً على وجهها، والكحل في عينيها بالغ السواد، تفوح منها رائحة حنّاء وورد وزباد، وأمّها فوق رأسها تمسح وجهها، وتمسك يدها، سمعت صوت الطفل وهو يخرج، ثم صوتاً يدقّ الحصى، يقطع حبل السرّة، سمعت صوت أحد يأخذ الحقيبة القماشيّة الخضراء التي تحمل فيها حبّات التمر ويفتقها.

وحين استيقظت في الفجر كان طفلها نائماً في حضن الرمل بجانبها، والسحليّة التي رأت نظرة الشفقة في عينيها تقف في باب جحرها تنظر إليها، وما إن رأتها تفيق حتى دخلت جحرها سريعاً وتركتها. لولا قطعة القماش الخضراء الملفوفة حول طفلها لظنّت أنّ كلّ ما حدث لها أضغاث أحلام. منذ ذلك اليوم وهي تحتفظ بتلك القطعة الخضراء تلفّ بها رأسها إشارة لأخوّتها مع الجنّ الذين ساعدوها لتلد. أسمت ابنها متعب لأنه أتعبها في ولادته، وأسمت ابنها الآخر الذي ولدته في الصحراء أيضاً ضاري كي يكتسب قوة الضواري، أرادته شجاعاً ينتصر على أعدائه ويحمي أخوته، أما ابنتاها، فقد توسّمت في الجازي اسم أنثى الصقر لتكون قويّة ثاقبة الرؤية، وسمّت ابنتها الصغرى مزنة متمنّية أن تكون حياتها نديّة كالمطر، ففي الصحراء يصبح الماء هو حياة أهلها، لهذا يسمّيه البدو "الحيا"، لأنّ الله يجعل به كلّ شيء حيّاً.

(٢٨)

استيقظتُ في الصباح. كان خدّي متورّداً من برد الرخام في حمّام الفندق، وثوبي الأبيض قد اتّسخ، نسيت لماذا جئت إلى هنا، والسبب الذي جعلني أرتدي هذه الملابس التي أرتديها، وتذكّرت أنني أصبحت زوجةً لأبي فهد. وقبل أن يهبط قلبي في أحزان هذه القصّة وأتخبّط في حبالها التي أراني مقيّدة بها، وقبل أن تلتقمني دوّامة الندم نهضت سريعاً مثل جنديّ قرّر أن لا يستسلم في حربه وأن لا يعلن استسلامه.

نظرت عيني الداخلية إلى هدفها في وسط اللوحة المعلّقة في رأسي: جواز السفر الأخضر. نظرت إلى نفسي في المرآة، فرأيت خطوط الكحل الأسود الجافّة حول عينيّ، واللون الأخضر فوق جفنيّ، وبقايا اللون الأحمر فوق شفتيّ. تزاحمت المربّعات وصُفّت بعضها بجانب بعضها الآخر، فظهرت فيها صورتي الحزينة تشبه ممثّلة تعسة خائبة وضعيفة.

خلعت ثوب الممثّلة، وطاف بي وجه تحيّة كاريوكا وابتسامة سعاد حسني وغمزة شادية، وكأنهنّ ينظرن إليّ من وسط الجمهور. فتحت باب الحمّام بحذر. نظرت إلى قلب الغرفة، رأيت حقيبة ثيابي

المسندة على الحائط، وحقيبة يدي فوق التسريحة، ورأيت أبا فهد نائماً بفانيلته وسرواله وسمعت صوت شخيره العالي. غاصت قدمي في خيوط سجّادة الفندق السميكة، وفتحت حقيبتي ووضعت فيها جواز السفر، وخرجت.

ضغطت على جرس الباب، عزفت موسيقى الجرس مثل مقدّمة جميلة في رأسي لفيلم مرح ومبتهج، لم يفتح الباب أحد، الوقت لا يزال مبكراً، وأنا مثل تلميذة خرجت إلى مدرستها قبل الأوان من شدّة فرحتها باليوم الأوّل للمدرسة. أسندت ظهري إلى جدار السلم المقابل وأرحت رأسي عليه وغرقت في رائحة عطور العرس الباذخة.

الممرّضة الهنديّة وصلت أوّلاً، همّت بفتح الباب، وحين رأتني شبه غافية مستندة إلى الجدار تراجعت مذعورة، ثم تمالكت نفسها، ومدّت يدها نحوي وسألتني:

– عزيزتي هل أنت بخير؟

فتحت عينيّ وابتسمت، وقلت:

– أندرا لقد تزوّجت البارحة كي أحصل على جواز سفر.

لم تفهم أندرا، لكنها فتحت باب العيادة ودخلت وتبعتها، وطلبت منها شاياً، صبّته في كأس زجاجيّة شفّافة ووضعته أمامي، وذهبت تمسح وجه الطاولات، وتغسل أرضيّة الحمّام، وأنا أشرب الشاي، أنظر إلى زينتي التي تركتها بقايا البارحة، أظافري الطويلة والملوّنة بالأحمر، أتحسّس جلدي الذي قشرته المزيّنة عصر أمس، وهي تجهّزني، شعرت بسعادة بالغة وأنا أزيح من رأسي صورة أبي فهد، وأضع مكانها أحمد، وأتخيّل أنني ما كنت أتجهّز كلّ نهار أمس إلاّ له.

صوت صرير الباب الخارجيّ للعيادة أيقظني من هواجسي، سمعت صوته الجميل:

- صباح الخير أندرا.

سمعتها توشوشه، وهو يردّ عليها:

- طيّب اعملي لي شاي.

وحين دخل تخاطفت وجهه ملامح سعادة وقلق مشترك، سلّم عليّ سريعاً، ثم سألني:

- أنتِ كويسة؟

جلس أحمد على الكرسي المقابل يستمع إلى قصّتي، وأنا أتخيّل نفسي فاتن حمامة الهاربة من القرية، وجاءت تفتّش عن حبيبها. حين أنهيت قصّتي دسست يدي في حقيبتي وأخرجت جواز السفر الأخضر ورفعته في وجهه.

نظر إليّ متعجّباً وكأنه فقد ذاكرته وراح يحاول استعادتها.

أخذت أشرح له بأننا سنسافر الليلة أنا وأبو فهد إلى مصر، وحالما نصل هناك سأطلب الطلاق، ولن أعود إلى الرياض، ويمكننا أن نتزوّج هناك.

وبدا أنه انتفض، وقال بل صرخ:

- إزّاااي، أنتِ بتتكلّمي جدّ؟

- طبعاً؟

نظر إليّ أحمد، وقال وكأنه يضع نهاية للحديث:

- أنت بقيتي مرات واحد تاني يا عزيزة.

قالها ونظر إلى الأرض بحزن. تفرّست في وجهه، تناثرت شظايا

عقلي هنا وهناك. كان يبدو حقّاً حزيناً بعد أن قال جملته، لكنه لا يفهمني، أنا أصبحت زوجة أخرى بالأوراق فقط، لأنني أردت الحصول على جواز السفر، و لم أصبح بعد زوجة أبي فهد. أنا فعلت هذا من أجل أن أهرب إلى مصر وأتزوّجه.

شعرت بشيءٍ ساخن يدخل عينيّ وينهمر على وجهي، أحمد لا يفهم ولا يقدّر تلك المغامرة، وأنا ما أقدمت عليها إلاّ من أجله، من أجل الحبّ الذي بيننا. قلت له، وقد بدأ الخوف يتملّكني:

- ماذا تقصد أنني صرت زوجة أحد آخر.

قال كلاماً كثيراً عن العرب وعن الشرف وعن التقاليد وعن الشهامة، أحاديث لم يسبق لي أن سمعت أحمد يعرفها ويدافع عنها. كنت أظنّ أنه ينتمي إلى عالم آخر، عالم لا يشبه عالمنا، عالم الحبّ والأفلام والتسامح، عالم يسامح فاتن حمامة ويبتهج بسعاد حسني ويغفر لتحيّة كاريوكا. ظننت أنني قد وصلت إلى هذا العالم بمجرّد أنني امتلكت جواز سفر، وأنني قد أصبحت حرّة بامتلاكه، لكن أحمد أفهمني عكس ذلك تماماً.

للحظة كدت أقع تحت قدميه، أتوسّل إليه أن لا يتركني أعود إلى أبي فهد أو إلى بيت أهلي، فقد بدأ الذعر يسيطر عليّ، لكنني فجأةً شعرت بغضب كبير يتمدّد في عروقي. بدأت أبتعد قليلاً عنه، وأخرج من دائرة عطره الذي ملأ أنفي، والذي كان يخدّرني فأفقد قوّتي، ابتعدت عنه أمتاراً، فغابت رائحته. تملّكني شعور بالاشمئزاز، تكدّر وجهي، حدّقت فيه فرأيت ملامحاً كأني أراها للمرّة الأولى. أنفه المفلطح وعيناه المسحوبتان إلى أعلى، نظّارته الطبّية، وشفتاه المسودّتان

من أثر السجائر. بدا لي قبيحاً وساذجاً وبليداً.

دخلت منزل والدي وأنا أبكي، كانت والدتي تقف في المطبخ تعدّ القهوة، ووالدي يجلس في فناء البيت يتشمّس، ألقيت بحقائبي ودخلت غرفتي وأغلقت الباب.

مرّ عليّ أسبوعان، وأنا حبيسة غرفتي، لا أخرج منها ولا أسمح لأحد بالدخول. جاءت أمّي أوّل يوم، وجلست عند الباب تتوسّل إليّ أن أفتح الباب لكنني لم أفتحه، جاءت سونيا خادمتنا، وتوسّلت إليّ أن أفتح الباب لتمرّر إليّ إبريق الحليب والبسكويت، ففتحته، وقلت لها إنّ عليها أن لا تخبر أحداً أنني أفتح لها الباب، وإلاّ لن أفتحه مرّة أخرى.

ومن شبّاك غرفتي تصلني الأصوات التي تتجمّع في فناء منزلنا في الشرفة الأرضيّة التي جُهّزت بكامل أثاث المجلس، المقاعد المحشوّة بالتبن، سجّادة الصوف الحمراء التي تكنسها سونيا قبل فرشها، وحافظة القهوة الممتلئة بالقهوة، وصحن التمر المعجون والرطب.

بعد صلاة المغرب عاد أبي إلى المنزل ومعه أبو فهد الذي يأتي لزيارتنا كلّ مساء. جلسا في الشرفة الأرضيّة تحت غرفتي مباشرة، طلب أبو فهد أن يقابل أمّي، ويتحدّث معها، قال لها:

– الأمّ مستودع أسرار ابنتها، هل قالت لك عزيزة إنني أغضبتها في شيء؟ هل شافت منّي شي تكرهه؟

طيّبت أمّي خاطره وقالت:

– والله إنك يا أبو فهد أحسن الرجاجيل، لكن البنت جاهلة.

قال والدي:

- يا أخي البنت غيّرت رأيها، واللّي دفعته يرجع لك بدون نقصان.

ردّ أبو فهد غاضباً:

- هو العرس تسلية، ولاّ يعني لعبة، البنت يوم موافقة ويوم غيّرت رأيها؟

حين خرج أبو فهد سمعت أبي يقول لأمّي:

- أنا الغلطان اللّي طاوعتها وزوّجتها.

خرج أبو فهد من المنزل غاضباً، لكنه عاد في المساء التالي، وبدأ من جديد، سمعت أصواتاً جديدة تشترك في الجدال كان بينهم صوت وضحى، ثم جاءت الجازي ودقّت الباب، لكنني لم أفتح. ظلّت أنوار غرفتي مطفأة وغارقة في الصمت وكأنني متّ.

(٢٩)

بعد صلاة العشاء اتّصلت بأبي فهد في منزله.

رفع سماعة الهاتف، وحبال صوته الخمسينيّة تثقل حروفه:

- آلو.

ردّت الجازي:

- آلو.

رنّت بحّة صوتها في أذنه مثل جنيه ذهب في سمع بخيل، قال مرّة أخرى، وقد نظّف الحماس صوته، وجعله صافياً مستعدّاً لشرب ذهب صوتها المنساب في أذنه.

قالت الجازي:

- السلام عليكم.

دق قلبه، كما يضرب جلد الدفّ المشدود في رقصة سكرى، وقال:

- وعليكم السلام.

- من؟

قالت:

- أنا الجازي بنت وضحى.

وعلى الفور تسلّل هذا الاسم وجلس في أقصى ركنٍ في قلبه. لكنّ الهواء في صدره بدأ يتناقص، ولم يعد قادراً على قول المزيد، فتركها تتحدّث.

- عزيزة هنا؟

اكفهّر صوته، فقد كان في مكانٍ بعيد عن هذه القصّة المهينة، وصوتها قد بثّ خدره وكاد ينسيه جرحه. خاف أنها تهزأ به، فصرخ في وجهها:

- عزيزة في بيت أهلها.

ثم أغلق السمّاعة غاضباً.

في الليلة التالية اتّصلت الجازي في الوقت نفسه بعد صلاة العشاء، فرفع السمّاعة، وقال:

- آلو.

قالت:

- آلو.

كان وقع آلو هذه المرّة أخفّ من الأوّلى، وأقل براءةً وغواية، فهي مسؤولة عن جرحه البارحة، وقد تكون جاءت لتزعجه مرّة أخرى. أصبح أقلّ ثقة بهذا الصوت الجارح مرّتين.

قال بجفاء:

- نعم، ماذا تريدين؟

قالت:

- أريدك أن تسامحني يا أبو فهد، والله ما دريت باللّي صار إلاّ اليوم الصبح، لكن تأكّد يا أبو فهد أن عزيزة غلطانة إذ خسرت رجلاً مثلك.

ابتسم سريعاً، لكنّ الشكّ عاد وكدّر عليه ابتسامته، وسعادته بهذا الصوت الساحر، فقال:

- أها، وش تبين؟

- أبيك تسامحني.

صبّت هذه الجملة ملعقة شهد من غوايتها، فجعلت مرارته تذوب، وطفا قشر العسل الشمعيّ فوق لسانه، وهو يقول:

- تسلمين يا الجازي، أنت بنت أجاويد.

ترك صوتها الذي تسلّل البارحة في نفسه يلهو على مهله. تنفّس الصعداء، قرّر قلبه أن يسامحها دون إذن منه.

سكت، لم يتحدّث كثيراً تلك الليلة، أنهكته هذه المشاعر الجديدة، وأخذ يتأمّل مساحة الصمت التي قبعت بين صوتيهما عبر الهاتف، كان يرى طريقاً غامضاً يشمّ فيه رائحة أنثى مغوية ومريحة وطيّعة، بينما صمتت هي لأنها تفكّر في الكلام الذي يمكن أن ينمو بينهما. صمتت لتعطيَه الفرصة. إن استبقاها، وإلاّ فإنها مضطرّة أن تذهب. تعدّى الصمت وقته، ودخل في وقت الريبة، لكنه فعل فعلته، وأعلن عن اعتقال روحيهما، كلٌّ اعتقل الآخر، و لم يبقَ سوى وقت أقلّ لتتّضح الرؤية عند صاحب القرار.

قالت:

- أستأذن، أنا شكلي سهّرتك.

قال أبو فهد:

- لا أبداً، الساعة المباركة.

في مساء اليوم التالي بعد صلاة المغرب لم يذهب أبو فهد إلى بيت

عزيزة، بل اتّجه بسيّارته نحو حيّ البديعة الغربيّ، حيث تسكن، فتّش عن بيت وضحى، ثم توقّف عند بابها ودقّ الجرس.

فتحت الجازي الباب، وهي تضع غلالة سوداء شفّافة على وجهها. نظرت من فتحة الباب فإذا هو الرجل ذاته، بلحيته الخنجريّة السوداء، وثوب ناصع البياض فوق صديريّ أسود. شلّت المفاجأة تفكيرها، لقد هرع إليها أسرع ممّا توقّعت، تركت نصف غطائها يسقط عن ابتسامة خجلة توجّهت بها مباشرة نحو عينيه، فبدا وكأنه انضغط على نفسه من شدّة الإثارة والفرح.

– يا ربيه.

قالت الجازي، وضحك هو، ثم نظر جانباً غاضّاً بصره، ثم سألها:

– أمّ متعب موجودة؟ أنا جيت أدوّر عندها العود الطيّب وأسلّم عليها.

قالت:

– الوالدة في السوق، تفضّل.

– لا. المرّة الجاية.

لم يصدّق ما رآه. نسي كلّ القصص المتعثّرة التي حدثت له مع النساء اللاتي تزوّجهنّ، والخيبات التي غصّ بها، فلوة وعزيزة. امتلأت روحه بمشهد قمر أبيض، بحبّة خال، اختبأ في منجم وضحى المعتم الذي لم يفكّر يوماً بالمرور به، ولا البحث في جوفه.

ركب سيّارته يسترجع ما سمع عن سحر البدويّات، وهو يقع في عشق واحدة منهنّ، تدفّق في قلبه حنين لسماع أغنية تعبّر عن حاله اللهفى، العطشى. أدار مفتاح الراديو، فسمع حديثاً دينياً، أداره مرّة

أخرى فسمع مذيعاً يتحدث عن الحرب في الشيشان. توتّر، لا يريد أن تفلت من يده هذه اللحظة. دفع بطرف الشريط الذي انتبه إلى وجوده في مسجّلة سيّارته، فانطلق صوتٌ عذب طالما صاحبه في ليالي السهر وحيداً، يسكب في روحه معنى لمشاعره الجديدة، ويقول:

"في يوم وليلة، يوم وليلة، دوبنا حلاوة الحبّ، كله، في يوم وليلة".

تمدّدت روحه في الغناء، وارتخت ملامحه، صعدت نشوة طائشة إلى رأسه، ثم هبطت دافئة في قلبه. صار وجه الجازي يظهر له من الضوء المنعكس في أعمدة الكهرباء المحاذية للشارع. يسوق سيّارته البويك على مهل، وأبواق السيّارات المستعجلة تزعق فيه، وهو لا يبالي، يصل إلى مستشفى الشميسي، ويدخل من الشارع الملتوي متّجهاً إلى بيته، وصوت الحبّ عالق في أذنه، يبتسم وحده في السيّارة، ويفكر في حبّة الخال السوداء ويغنّي وحده:

"ما هقيت أن البراقع يفتنّي"...

عزيزة، المولعة بالأفلام المصرية، تفقد بصرها في ليلة عاصفة محمّلة بالغبار. وفي العيادة، تطيل الإصغاء إلى صوت الدكتور أحمد. هي لا تعرف صوت من يشبه، حسين فهمي أم رشدي أباظة أم شكري سرحان؟

بعد شفائها تغرم به، ليس لأنه مصري، فهي لا تحبّ اللهجة بل تحبّ الحنان الذي تسكبه لتصبح حديثاً دافئاً. عائلتها تعارض ارتباطها به لتصبح قصّتها، كبقية حكايا الحب في شارع الأعشى، من دون ثمر.

هل تهرب معه إلى بلاده وتغيّر اسمها كي لا يعرفها أحد، تماماً كما فعلت تحية كاريوكا؟

بدرية البشر روائية وصحافية سعودية، حائزة دكتوراه في فلسفة الآداب ـ علم اجتماع ثقافي، تكتب في جريدة "الحياة". صدر لها في القصّة القصيرة "حبة الهال" و"مساء الأربعاء" و"نهاية اللعبة"، وفي الرواية عن دار الساقي "هند والعسكر" و"الأرجوحة".

ISBN 978-1-85516-984-5



